



تأثير التطورات الاقتصادية والاجتماعية
في الحضارة العربية الإسلامية

بنكى زين



الدكتور حسين قاسم العزيز

تأثير التطورات الاقتصادية والاجتماعية
في الحضارة العربية الإسلامية

مراجعة

الدكتور حسام الدين النقشبندي

بنكى زين

السليمانية ٢٠٢٠

٢٣٠,١٢١

٢٤٣

العزبي، حسين قاسم

تأثير التطورات الاقتصادية والاجتماعية في الحضارة العربية الإسلامية / تأليف
د. حسين قاسم العزبي؛ مراجعة د. حسام الدين النقشبندي. - ط١.
السليمانية: مركز زين، ٢٠٢٠.
١٨٤×٢٥×١٥ سم.
١. الاقتصاد الإسلامي - تطورات
٢. الإسلام - التاريخ
٣. النقشبندي، حسام الدين (مراجعة)
ب. العنوان

المشرف العام للمطبوعات:

صديق صالح

التسلسل: ١٩٠

الكتاب: تأثير التطورات الاقتصادية والاجتماعية في الحضارة العربية الإسلامية

المؤلف: الدكتور حسين قاسم العزبي

تنضيد: سهند

تصميم: لاس

خط وتصميم الغلاف: أحمد سعيد

رقم الإبداع ١٤٣٥ لسنة ٢٠٢٠ من المديرية العامة للمكتبات العامة

الرقم الدولي ISBN: 978-9922-9206-5-8

مكان الطبع: السليمانية، مطبعة زين

سنة الطبع: ٢٠٢٠

بنكى زين

مركز زين للتوثيق والدراسات

العراق: أقليم كردستان، السليمانية، الشارع ١١ بيرمكرون، محلة ١٠٧ بربان

أسياسيل: ١٤٨٤٦٣٣ - ٢٢٠٠٥٦٥٨٦٤ أو ٢٢٠٠٥٦٥٢٩٦ أو ٢٢٠٠١٥٢٢٩٦ ص.ب: ١٤ بختياري

الموقع: info@zheen.org البريد الإلكتروني: www.zheen.org

الفهرس

٧

توطئة

الفصل الأول

مؤثرات التفاعل الحضاري

٢٥	توطئة
٣٧	الحضارة كمرحلة في تطور المجتمع
٤٣	موقف الفكر البرجوازي من التطور الحضاري
٤٩	جوهر التباين الحضاري
٧٣	التفاعل الحضاري

الفصل الثاني

دول المجتمع العبودي

توطئة

٨٧	تشكيلنا العبودية والقطاعية في البلاد العربية قبل الاسلام
٩١	دراسة العبودية الاقتصادية بأبحاث مستقلة ومستلزماتها
٩٩	أساس تباين وجهات النظر
١٠٧	بعض وجهات نظر عن مجتمعات الشرقيين الأدنى والأوسط
١١٠	دول اليمن

توطئة

١٣٨	اليمن خلال تشكيلة المشاعبة البدائية
١٤١	دوابع الهجرات
١٦١	



* توطئة:

تشكل حضارة العرب والمسلمين، البالغة أقصى مدارج رقّها في عهد العباسين في المشرق والأندلسيين في المغرب، حلقة رئيسية في سلسلة حلقات الحضارة العالمية في العصر الوسيط.^١ إنّ هذا الدور الرئيس المتميّز الهام الذي اضطلعت به الحضارة العربية الإسلامية، يدعونا إلى بذل أقصى الجهود العلمية بموضوعية لدراسة وتحليل أسس وركائز ومقومات هذه الحضارة، وكذلك دراسة المؤثرات والمعوقات ودرجة تفاعل الحضارة العربية الإسلامية مع مجمل الموروث الحضاري العالمي في ذلك العصر.

ويقتضي، ولاشك، من أجل التقييم العلمي الدقيق، لدى متابعة العملية التطورية (السيرة) لمجمل إبعاد حضارة العرب والمسلمين منذ بزوغ فجرها في عهود موغلة سابقة للإسلام، الأخذ بعين الاعتبار مسائل جوهرية عدّة، منها:

- (١) إن هذه الحضارة كما تمتلك الاصالة في بعض اجزائها، فأنّها لم تنهض من العدم، إذ إنّ لها جذورها ومقوماتها الممتدة عمودياً في تاريخ شعوب متعددة أخرى، وأفقياً فيما هو موروث من أساليب في الزراعة والصناعة والتجارة

* هذه الدراسة ودراسات أخرى مخطوطه للمرحوم الدكتور حسين قاسم العزيز، أودعها في حينه المرحوم حسين فيض الله الجاف في مركز زين، للحفظ علىها ونشرها في آية فرصة مواطنة: أثروا نشرها، وفاء له كباحث جدي ومبدع وتقديرًا لجهوده وخدماته العلمية القيمة. (مركز زين)

^١ انظر: مقدمة كتاب دفاتر عن الدياكنيك للبيزنطيين، ترجمة: الياس مرقص، بيروت، ١٩٧١، ص٦٤؛ فردرريك انجلز، جدليات الطبيعة، بالروسية، موسكو، ١٩٤١، ص٦؛ انظر فردرريك انجلز، مقدمة كتاب جدليات الطبيعة، ترجمة محمد اسامه القوتلي، [عن الطبعة الثالثة الانكليزية]، دمشق، ١٩٧٠، ص٣١.

معمول بها، ومن أبنية شاخصة وكتب محفوظة مخزونة ونظم معروفة وتقالييد ممارسة لدى تلك الشعوب. وبزداد تأثر العرب والمسلمين بالتراث الإنساني والتفاعل معه والتأثير فيه وبشكل واعٍ ومتقن ومدروس (تأسيس بيت الحكمـةـ مثلاً) في أيام أزدهار حضارة العرب والمسلمين، نتيجة تغير الأساس المادي لحياة المجتمع الإسلامي الذي أستوجب تغيير واستحداث وتطوير نظم وأساليب ومناهج جديدة: حكومية (ظهور الوزارة لأول مرة في العهد العباسى، توسيع وتطور الدواوين... الخ) وعلمية (ظهور مختلف الدراسات الطبية والكيميائية والفلكلورية والرياضية والأدبية واللغوية.. المترجمة والمؤلفة) وعقائدية (المذاهب الفقهية) وفلسفية وفنية (تطور فن العمارة وظهور الرسم).

(٢) وإن شعوب العالم، بما فيها العربية، لدى ممارساتها لعملية الإنتاج بأنماط مختلفة محددة، قد ساهمت في بناء صرح الحضارة العالمية بأشكال متفاوتة من التفاعل تتناسب ومدى تدرجها الحضاري ومركزها التطورى في مسيرة التطور العالمية، فتظهر جراء ذلك الخصوصيات المحلية المؤدية إلى التنوع ضمن سياق الوحدة التاريخية. فيترتب على ما قدم، أن الحضارة العالمية في آية مرحلة من المراحل، وإن بدلت للبعضـ من وجهة نظرهـ الشمولية التعميميةـ واحدةـ فيـ المظاهرـ، هيـ فيـ الجوهرـ تراكمـ عضويـ لحضاراتـ متطرورةـ تناقضـياًـ فيـ مراحلـ متباعدةـ. وعلىـ هذاـ الأساسـ لمـ تكنـ حضارةـ العربـ والمسلمينـ فيـ شكلـهاـ المتتطورـ سوىـ خلاصةـ تفاعلـ مؤثراتـ

^١ كما يذهب إلى ذلك غالى شكري، انظر كتابه: *التراث والثورة*، ط١، بيروت، ١٩٧٣، ص ٢٠-١٩؛ انظر رد يمني العيد عليه في مقاله: *التراث، الاصالة والمعاصرة*، مجلة *الطريق اللبناني*، ١٩٧٣، ٧٩/٩؛ انظر مناقشتنا لذلك في مقالنا: *التطور الحضاري عبد الانظمة الاجتماعية*، مجلة *الثقافة الجديدة*، ١٩٧٤، ١٥٠/٦٠، ١٥٢-١٥٠/٦٠.

^٢ مقالنا: *التطور الحضاري، الثقافة الجديدة*، ١٥٠/٦٠.

وموروثات شعوب متعددة بضمها موروث عرب ما قبل الإسلام، رغم بساطته، إن التقييم الصحيح والدقيق لدور العرب والمسلمين في المساهمة الحضارية يتطلب دراسة الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية للعرب في العهود السابقة للأسلام ومن ثم في عهد الخلافة الإسلامية ذلك لأن الانتاج الاقتصادي والنظام الاجتماعي الذي ينتج عنه حتماً يكونان في كل عصرٍ تاريخي، اساس التاريخ السياسي والفكري لذلك العصر. لذا فإن دراسة الظروف المختلفة ضرورية من أجل استجلاء العوامل الحقيقة الكامنة والمؤثرة في المسار الحضاري، لأننا نلاحظ بأن تطور الشعوب الحضاري يقترن، من دون ريب، بالأمكانيات المادية والاستعدادات وبدرجة الوعي، التي تهيئها الظروف الموضوعية والذاتية وتفاعلها لخلق شروط نمط معين من الانتاج.

إن التفسير المادي للتاريخ لا يعتمد، كما يُهم باطلأ، نظرة أحادية الجانب للعوامل المؤثرة في المسيرة التطورية للبشرية، فلا يقتصر أصحاب هذا التفسير، وهم يتبعون تطور العلاقات الاجتماعية، الناتجة عن تأثير وتأثر القوى المنتجة المتدخلة، التأثير على القاعدة الاقتصادية؛ على الرغم من إعاراتهم الانتباه إلى دورها البارز كمحرك جوهري وفعال وركيزة أساسية في المسيرة التطورية للبشرية فحسب، وإنما يعترفون أيضاً بدور البناء الفوقي (المؤسسات السياسية والحقوقية والفكرية والدينية والفنية والأخلاقية... الخ) في تعجيل أو تأخير دور القاعدة الاقتصادية (البناء التحتي) في بناء المجتمع وتطوره، حيث هناك علاقة جدلية بين القاعدة والبناء الفوقي. فكما أن التطور السياسي والحقوقي والفلسفي والديني والأدبي والفكري... الخ يستند إلى التطور الاقتصادي، فكذلك هي جمعياً تتأثر بعضها ببعض وتؤثر في الأساس الاقتصادي أيضاً².

² فردرick انجلز، تصوير مختصر، اختيار وتعليق جان كانابا، ترجمة وصفي البي.

وعلى هذا الأساس استنتج ماركس: إذا كان الناس نتاج الظروف، فإن الناس أيضاً هم الذين يغيرون هذه الظروف.^٥ ويوضح انجلز بقوله: إننا نصنع تاريخنا بأنفسنا، ولكن قبل كل شيء بمقدمات وضمن ظروف محددة. والظروف الاقتصادية، من بين جميع الظروف، هي في النهاية الظروف المحددة. ولكن الظروف السياسية،... الخ، بل وحتى التقاليد التي تختلط أدمغة الناس، تلعب كذلك دوراً، وإن يكن غير حاسم.^٦ قبل أن يلفظ القرن (١٩) أنفاسه بقليل، كان بليخانوف قد ناقش مبسطي الماركسيّة وأنتقد تلك المزاعم التي تهم الماركسيّة بالنظرية الاحدادية الجانب، مبيناً بأن كلاً من ماركس وانجلز قد أظهرا منذ بداية أعمالهما تأثير التداخل بين القاعدة في البناء الفوقي.^٧

إن خير عاصم من المبوط في شراك التسطيح والتبسيط ومن قوله الأساس النظرية، هو التطبيق الصحيح للمبادئ والأسس النظرية، بجذف واع عن لاهوتية النظرة الصنمية المتصوفة للمبادئ الماركسيّة. لقد كان ماركس وانجلز يحذران من النقل الآلي ويخشيان من أن يعمد مبسطو الماركسيّة، بسبب جمودهم العقائدي، إلى التطبيق الدوغماتي لما توصلوا إليه من آراء وتحاليل. لهذا فقد تهَا غير مرة إلى ضرورة الإهتمام أيضاً بدور بقية العوامل غير الاقتصادية وملحوظة تأثيرها الواضح في البناء الاقتصادي، على الرغم من إنعكاسها عن البناء التحتي.^٨ وعلى هذا الأساس، فليس صحيحاً أن الوضع الاقتصادي، وان

دمشق، ١٩٧٢، ص ١٧٩.

^٥ كارل ماركس، م الموضوعات عن فيورياخ [كتبه] ماركس عام ١٨٤٥ ونشرها انجلز عام ١٨٨٨ [م] مختارات بالعربية، دار التقدم، موسكو، ١٩٦٨، ٣٨/١.

^٦ انجلز، تصوّص مختار، ص ١٩٢.

^٧ جوري بليخانوف، القضية الأساسية في الماركسيّة، ترجمة: حنا عبود، دمشق، ١٩٧٣، ص ٦٣ وما بعدها.

^٨ انظر: انجلز، تصوّص مختار، ص ١٧٨-١٩٤.

كان للظروف الاقتصادية القول الفصل في تحديد التطور التاريخي، هو السبب، وهو وحده الفاعل، وإن عداه ليس سوى مفعول. إن ثمة بالعكس تفاعلاً على أساس الضرورة الاقتصادية التي لها الغلبة في المرجع الآخر.^١

إن في هذه العوامل غير الاقتصادية تكمن ظروف التنوع والخصوصيات الموضعية ضمن سياق الوحدة التاريخية، وهي التي توجب على الباحثين إبداء فائق الإنتماء. ذلك لأن تضخيم دور العامل الاقتصادي مع إهمال دور البناء الفوقي، من شأنه أن يضع الباحثين أمام مشكلات يعجزون عن تفسيرها، إذا لم يعثروا على أوجوبة لها في الأدبيات الماركسية، لاسيما وهي لم تتطرق بالطبع إلى كل جزئيات الأحداث التاريخية. فعلى سبيل المثال لا الحصر، لم تسر المؤسسات الحكومية في كل من دولتي الأناباط وتدمير على نمط واحد، رغم تشابه ظروف نشوئهما، نتيجة وقوعهما على طرق التجارة العالمية، حيث ظهر نظام المجلسين في تدمير ولم يكن مألوفاً لدى الأناباط مع أن الدولتين تعتبران ضمن تشكيلة العيوبية. لاشك أن عمق صلات تدمير بالروماني أبان تمعتها بالاستقلال الذاتي، مكتنها من نقل أساليب وتقالييد الحكم من الدولة الرومانية، بينما صلة الانباط بالروماني تمت بعد دخولهما في حوزة الدولة الرومانية بشكل مباشر. كذلك فقد لاحظ ف. كونستانتينوف، في معرض إنتقاده لمبسطي الماركسية، من انصار المادية الاقتصادية، بأن هؤلاء: "كانوا لا يحسبون حساب التفاعلات المتبادلة بين مختلف اشكال الإدراك الاجتماعي وتأثير الدولة وسياستها على جميع اشكال هذا الإدراك. وكانوا في محاولتهم استنتاج العقلية استنتاجاً مباشراً من مستوىقوى المنتجة غير قادرين على تفسير حوادث، مثل ازدهار الفن اليوناني في القديم وفن عصر النهضة والأدب والفن الروسيين في النصف

^١ ن.م، ص ١٨٠.

الأول من القرن التاسع عشر، فإن مجتمع عهد الرق في اليونان القديمة، مثلاً، كان من حيث مستوى تطور القوى المنتجة، أدنى بكثير من المجتمع الأقطاعي، ومع ذلك فقد كان تطور الفنون في اليونان القديمة أرق بكثير من تطور الفنون في المجتمع الأقطاعي في القرون الوسطى.^{١٠} إن تعليل هذا الاختلاف الذي أشار إليه كونستانتيروف، يعود بالطبع إلى أن القيود الأقطاعية في أوروبا كانت أشدّ وطأة من نظائرها، حيث قد سار الأقطاع في أوروبا بوتائر أسرع في تطوره، فغدا أشدّ تركيزاً وأثقل وطأةً من سواه، فكان للعقيدة [المسيحية قبل تصديعها] المسخرة كلّياً لخدمة مصالح الأقطاع المركز، تأثير سلبي في مجرى التطور الحضاري العام. فقد وقفت الكنيسة، ولاسيما الكاثوليكية، حائلاً دون تطور الفنون وممحراً على الأفكار. فهي التي حجرت معظم الإنتاج الفكري والفناني الاغريقي واللاتيني بذرية الوثنية، وهي التي عمدت إلى إخفاء مؤلفات الغابرين عن أعين غالبية الناس وخزنها في أقبتها. وإذا أعدّ هذا الحجر فضل للكنيسة لأنقادها المؤلفات من الضياع، فإنه لا يوازي حرمانها غالبية سكان أوروبا، في العصور المظلمة من أشعاعات النساجة الفكرية النيرة ونور المعرفة الإنسانية. فقد كان الحجر الفكري محكماً ورهيباً لتأطيره، وسط بسطاء متدينين، بأردية لاهوتية حرم بموجبها الأطلاع على التراث الفكري، ولم يسمح إلا لقلة موثوقة من رجال الكنيسة، وعلى مؤلفات محددة، بغية اعتماد حججها وبراهينها المنطقية عند الرد على الأفكار الحررة المناهضة، التي لا يقتصر اصحابها بأدلة الكتاب المقدس. هذا إلى

^{١٠} دور الأفكار التقديمية في تطوير المجتمع [العربية] دمشق، ط٢، ١٩٧١، ص٤٤.
ويضيف كونستانتيروف: (ولقد أثبتت ماركس وإنجلز في البيان الشيوعي ان الرأسمالية قد قفزت بتطور القوى المنتجة قفزة رائعة ومع ذلك يلاحظ ماركس: «.. ان الإنتاج الرأسمالي يعادي بعض فروع الإنتاج الفكري مثل الفن والشعر»، ص٤٤.

أن التلف قد أمتد إلى كثير من المؤلفات المخزونة. فأستحقت تلك القرون بذلك تسميتها بعصر التعمية والظلم.

ولم تر مؤلفات الغابرين النور إلا في عهد الابتعاث -الرنسانس- في عصر النهضة وبعد التصدع الديني وتوزع مركز الكنيسة الكاثوليكية ونشوء البرجوازية وأغلب تلك المؤلفات عبر ترجمات عربية، حيث فقدت الأصول الأفريقية -اللاتينية للكثير منها¹¹.

كان الإنتاج الفكري العربي الإسلامي عموماً والفلسفى بصورة خاصة، نقلأً وتتأليفاً، وإن لم يزامن التطورات الاجتماعية في الربوع الإسلامية بدقة، قد تأثر بالمسيرة التطورية بشكل متضاد، فحينما كانت عناصر الأقطاع لازالت ضعيفة، حتى القرن العاشر الميلادي -كان الإنتاج الفكري يتمموا بوتائر سريعة كمّاً ونوعاً مع ابداعات أصلية في ميادين مختلفة، حتى إذا نشطت عناصر الأقطاع وتركت وعممت الظلمة البلاد الإسلامية من جراء ذلك، بدأ الإنتاج الفكري عموماً بالركود والانحسار والتهاافت¹² نحو مستويات هابطة، أجترارية غيبية ضحلة، غالية في التدني، مع استثناءات نادرة كومضات في ديجور.

لقد كان الأقطاع في الشرق قد تميز عموماً بخصائص منها: سعة الامتداد الزمني لعملية تطوير العناصر من مرحلة النشوء والتكون إلى مرحلة التوطيد والتركيز، بسبب من ظروف تتعلق بالمناخ والتربة¹³ - كما

¹¹ انظر: مقالنا: التطور الحضاري، الثقافة الجديدة، ٦٠-١٦٢.

¹² انظر: مقالنا: الأساس المادي لتطور منهج البحث التاريخي، مجلة المثقف العربي، السنة السادسة، كانون الثاني ١٩٧٤، العدد الأول، ص ٩١.

¹³ ماركس، نقد الاقتصاد السياسي [بالروسية]، موسكو، ١٩٥٢، ص ٨ والترجمة العربية (د. راشد البراوي)، ط ١، القاهرة، ١٩٦٩، ص ٨؛ إنجلز، اصل العائلة والملكية الاسميما والدولة، ترجمة الياس شاهين، دار التقدم، موسكو، ص ١٢٧. حول أهمية المنشآت الاروائية في الزراعة والعمل الأقطاعي للأرض والتقدم الحضاري، انظر: كارل

لاحظ وأكد عليه ماركس وانجلز- فقد استغرقت العملية في آسيا أطول نسبياً مما في أوروبا. ولهذا فإن التقدم التاريخي (التحولات الاجتماعية) في آسيا كان يسير بوتائر أبطأ من أوروبا. وهنا تجدر الإشارة إلى ملاحظة لينين عن المسار التطوري للتشكيلات الاقتصادية، العبودية والأقطاعية: ما كان بإمكانه إلقاء نظرة على تاريخ سوى أن يزحف ببطء شديد. لقد أدى تلاؤ سير عملية التطور الأقطاعي الشرقي إلى أضعاف تأثير القيود الأقطاعية وتأخرها، مما كان له، مع تغير الأساس المادي لحياة المجتمع العربي الإسلامي واتصال العرب والمسلمين العميق عبر قرون بأبناء شعوب الخلافة المتقدمة في مدارج الرقي الاجتماعي والحضاري، أثره الواضح في مساهمة العلماء والعرب والمسلمين الواسعة النشرة في مجلمل التراث الإنساني، بعد أن أفادوا من النقل (الترجمة) عن الحضارات القديمة في تتبع أساليبها ومناهجها وفلسفتها، المبنية في عقلانية المعتلة وأفكار أخوان الصفا الموسوعيين (فلاسفة وعلماء) وبعض الفلاسفة اللاحقين، الذين طوروا فلسفة ارسطو في اتجاه مادي.^{١٤} فكانوا الحلقة الضرورية - كما أشار انجلز- بين اليونان وعصر النهضة.^{١٥}

لقد شهد المجتمع العربي الإسلامي، قبل تركز الأقطاع فيه، مجالاً للدراسة والمساهمة في التراث الإنساني بفتح وعقلانية أوسع من المجتمعات الأوروبية، التي

ماركس، السيطرة البريطانية في الهند، المؤلفات، ط٢، ١٣٢/٩، أيضاً: كارل ماركس، المؤلفات المختارة [بالروسية]، موسكو، ١٩٣٤، ٥، ٩/٢، ٦٣٤، ورسالة انجلز إلى ماركس، حزيران ١٨٥٣، كارل وماركس وفريدرك وانجلز، الرسائل المختارة، [بالروسية]، موسكو، ١٩٥٢، ص ٧٤-٧٥؛ انظر مقالتنا: دراسة في الشعوبية، الثقافة الجديدة، ١٩٧٦، ٧١/٨١، ٧٥ و ٧١/٨١.

^{١٤} انظر: لينين، دفاتر عن الدياليتيك، ص ٦٣-٦٤.

^{١٥} جنابات الطبيعة، [بالروسية]، ص ٦، والتجمة العربية، ص ٣١.

تحكم بها -كما قلنا أعلاه- الأقطاع والكنيسة. بيد أنَّ الإنتاج الفكري العربي الإسلامي، تفتاحاً واسهاماً، قد أبْتلى هو الآخر بالقيود الأقطاعية، بعد ترکز النظام، فأعتبراه الضعف والوهن والأنحسار -كما أسلفنا، ولم يسلم من الاضطهاد فتوقع في (دروشة) صوفية رهبة هم الأحاداد.

وتتجدر بهذا الصدد ملاحظة كونستانتينوف: "ان تحليل ولادة الوعي الاجتماعي وتطوره، دراسة علاقاته بالنظام الاقتصادي للمجتمع يتطلبان حسبان الحساب أيضاً لتفاعل المتبادل بين مختلف اشكال العقلية: بين الأخلاق والدين، والأخلاق والقانون، والأخلاق والفن، والفن والفلسفة، الخ. فهكذا مثلاً اثر الدين والفلسفة في تطور الأخلاق، واثر الدين في تطور الفلسفة المثلالية وأثر الفلسفة والدين في الفن. ومن الضروري على الخصوص حسبان الحساب للتأثير الشديد الذي مارسته المفاهيم السياسية والحقوقية والأوضاع المطابقة لها في الفلسفة والعلم والفن والأخلاق والدين. إننا لانستطيع ان نفهم فيما صحيحاً الحركة المعقّدة لتطور الوعي الاجتماعي وتطور الحياة الفكرية لدى كل طبقة ولدى المجتمع كله، ما لم نحسب حساب كل هذه التأثيرات والتفاعلات".^{١٦}

من كل ما تقدّم نتوصل إلى أنَّ تفاعل أي شعب من الشعوب مع الحضارة، السلبي والإيجابي، يتوقف، من دون شك، على عوامل موضوعية وذاتية معقدة من اجتماعية واقتصادية، وتناثر، ولاسيما لدى الشعوب المتأخرة، قديماً، بالظروف الجغرافية: التضاريسية والجيولوجية والمناخية والموقعة (السوقية)،^{١٧} وبالنشاط الاقتصادي، وبالاتصال البشري: عن طريق المجرات -الأقوام السامية والقبائل العربية، فيما بعد، مثلاً- عن طريق التجارة

^{١٦} دور الأفكار التقديمية، ص ٤٣.

^{١٧} بليخانوف، القضايا المعاصرة، ص ١-٤١، ٥١.

والحروب،^{١٨} علماً بأن البيئة الجغرافية تؤثر في الإنسان -كما يرى ماركس- من خلال وسيط هو علاقات الإنتاج التي تظهر في منطقة معينة على أساس قوى منتجة محددة، حيث يمكن الشرط الأساس لتطورها في خصائص تلك البيئة.^{١٩} ولاريب في أن العوامل التي أثرت في خلق عدم تكافؤ الفرص أمام الشعوب في مساهمتها وتأثيرها في الحضارة العالمية، هي، العوامل، ذاتها التي أثرت وتأثر في تحديد مقدار تأثير الشعوب بالحضارة العالمية، وبالتالي تؤثر في درجة تطورها ورقيمها. فإننا نلاحظ شعوباً قد أرتفعت درجات عليا من سلم التطور التاريخي والاجتماعي والحضاري، بينما تلکأت سواها في حين ظل غيرها يتغثر في خطوة او يراوح في مكانه جراء عوامل موضوعية وذاتية، يأتي في مقدمتها ضعف الإنتاج الاقتصادي، الذي يؤخر تقدم المجتمعات ويضعف كياناتها السياسية (بناؤها الفوقي)، ذلك لأن إنتاج وسائل العيش المادية المباشرة وكل درجة معينة من التطور الاقتصادي للشعب او العصر تشكل الأساس الذي تتتطور فوقه المؤسسات الحكومية، والآراء الحقوقية والفن وحق التصورات الدينية للناس المعنيين، ولهذا يجب الأنطلاق -كما يذكر ماركس- من هذا الأساس عند تفسيرها وليس العكس- كما يجري حتى الان.^{٢٠}

وغير خافٍ أن الظروف الجغرافية، لاسيما لدى الشعوب المختلفة، السائدة فيها الأنظمة القبلية، حيث يخضع الإنسان خصوصاً تماماً تقريباً -كما يرى انجلز- للطبيعة المحيطة به،^{٢١} تحكم في الإنتاج وفي الاتصالات

^{١٨} انظر: مقالنا، التطور/الحضاري، الثقافة الجديدة، ١٥٥/٦٠.

^{١٩} انظر: بلخانوف، القضايا الأساسية، ص ١-٥.

^{٢٠} كارل ماركس وفريديريك انجلز، المؤلفات المختارة، [بالروسية]، بجزئين، ١٥٧/٢، انظر

ايضاً: ف. افاناسييف، اسس الفلسفة الماركسية، ترجمة عبد الرزاق الصافي، ط٣،

بغداد، ١٩٧٦، ص ١٥٣.

^{٢١} اصل العلاقة، ص ١٢٧.

البشرية- كالصحابي، المجدبة العازلة، مثلاً- اضافة الى انعدام إمكانية توفير ظروف تحسين شروط الإنتاج، نتيجة تحول طرق التجارة والحروب والغزوat المدمرة [لصراعات الدموية بين القبائل على مقومات الحياة، الكلا و الماء- أيام العرب، والغزو الاجنبي- الروماني، الحبشي، الساساني] الأوبئة الفتاكaة التي تجلب الكوارث، فتؤدي هذه العوامل السلبية الى تفرق القوى المنتجة وانهيار الحكومات المحلية، إن وجدت، والى التخلف الاجتماعي.

وعلى ضوء ما تقدّم سنتناول بحثنا، الممتد عميقاً في تاريخ العرب، منذ أقدم مساهمة لهم في البناء الحضاري قاموا بها منذ أيام المعينيين، المجالات الاقتصادية والإجتماعية والفكرية، داخل شبه الجزيرة العربية وخارجها، وليس الأمر سهلاً ميسوراً، لا لطول الحقبة الممتدة الى سقوط بغداد، في القرن الثالث عشر الميلادي، بتباين عهودها وأختلاف مناطقها، فحسب، وأنما لأنعدام المصادر التاريخية المكتوبة بالعربية قبل الإسلام. وبشكل انعدامها مسألة بالغة الخطورة يواجهها الباحث المعني بدراسة تلك الحقبة. وتزداد المسألة تعقيداً في حالة معالجة القضايا الاقتصادية والإجتماعية والفكرية، ولا سيما في الحجاز، وبصورة ادق في نجد. والمسألة المحيرة التي لا تزال من دون جواب هي عدم العثور لحد الآن على مصادر مدونة من تلك الحقبة رغم معرفة القراءة والكتابة في الحقبة السابقة للإسلام. فالروايات المدونة في الحقبة الإسلامية تشير الى: وجود المعلقات، وان أسرى بدر من قريش طلب من يعرف القراءة والكتابة منهم تعليم عشرة مسلمين أميين كشرط لأطلاق سراحهم، وما ذكره كل من ابن قتيبة الدينوري^٢ وأبن

^{٢٢} ابن قتيبة، ابو عبدالله محمد بن مسلم الدينوري، *المعارف*، القاهرة، ١٩٦٠، ص ٦٢١.

رسنه:^{٢٣} من أن قريشاً أخذت الكتابة من العبرة. وما ذكره المستشرق السوفيتي العلامة بارتولد: «بأن هنالك كتاباً بقيت من القرن السادس تدل على أن اللغة العربية أيضاً استعملت لغة الكنيسة، ولكن لم يثبت لحد الآن وجود أدب نصراوي عربي في العصور التي قبل الإسلام».«^٤

وتتبدّل إلى الذهن أسئلة عديدة من قبيل سبب عزوف الجاهليين عن تدوين أحداث عصرهم؟ وهل أتّلف المسلمون مدونات عرب ما قبل الإسلام بأعتبارها تمجد عهوداً وثنية؟ رغم نقلهم للروايات الشفهية عن تلك العهود؟. وكذلك أن غالبية الروايات الشفهية، ذات الطابع القصصي، التي وصلت المؤرخين المسلمين عن تلك الحقبة لم تدون إلا في القرنين الثاني والثالث الهجري؟، وهي في الأصل من صميم الأدب القصصي. ولم يلتقط العلماء المسلمين، عند تدوينهم لتلك الروايات -كما يشير فرانز روزنتال^{٢٥}- إلى أصولها الأدبية القديمة. فأعتبرت تلك الروايات مادة تاريخ تلك الحقب رغم سذاجتها وارتباكتها وتناقضها ومتغالحتها وتهويلها، وأعتمادها الوصف العرضي للحوادث، وتجنّبها العمق في معرفة الأسباب والدوافع، وعدم اهتمامها بـاستخلاص النتائج. ولهذا في أقرب إلى الأساطير والأدب الفولكلوري منها إلى المادة التاريخية والبحث التاريخي التي تعتمد على الدراسة والتعميّص والاستنتاج والنقد والتجريح. يقول فرانز روزنتال: «لقد كانت الرواية التاريخية الإسلامية في أصلها من منتوجات

^{٢٣} ابن رسته، أبو علي أحمد بن عمر، الاعلاقي النقيسة (نشر دى غوبه، ليدن، ١٨٩٢)، ص ٢١٧، ٢١٢.

^٤ بارتولد، فاسيلي فلاديميروفيتش، الحضارة الإسلامية، ترجمتها عن التركية إلى العربية، حمزة طاهر، ط٤، القاهرة، ١٩٦٦، ص ٤٤.

^{٢٥} علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة الدكتور صالح احمد العلي، بغداد، ١٩٦٣، ص ٢٥٨.

الجزيرة العربية، بصرف النظر عن وجود مقدار كبير من الأدب الفارسي الذي عرفه المسلمون. وسرعان ما أعتبروه أسطورة، وفي مراحلها الأولى كانت قد سبقت تبلور العلم والأدب الإسلامي، فقد وجد هذا النوع من الرواية الأدبية عندما بدأ كتابة الأدب الإسلامي، ثم صار جزءاً من الأدب التاريخي الذي لم يعد ينقبله القصاصون، بل أصبح ينقبله العلماء كتابة أو مشافهة دون أن ينتهي إلى أصوله القصصية».^{٢٦}

إن إنعدام المصادر المكتوبة لا تشكل العقبة الوحيدة التي يواجهها الباحث المعني بدراسة تاريخ تلك الحقبة وإنما تتعدد المشكلة أمامه أيضاً بانعدام المدونات الرسمية والاحصائيات والبيانات، باستثناء الجنوب الغربي لشبه الجزيرة، في اليمن وحضرموت وقتبان، حيث اشارت النصوص، التي اكتشفها واستفسخها وحل رموزها المستشرقون في القرنين الماضيين، إلى مقدار المضارب وكيفية جبايتها ومصادرها والجهات التي تذهب إليها، إذ أن الروايات التي على تلك الشاكلة التي ذكرت أعلاه قلما تعنى بالأمور الاقتصادية والمعاشية والإجتماعية للسكان.

وإذا تعرضت لها بصورة عرضية غير مقصودة. لهذا لا نستغرب إذا احجم الكثيرون عن الخوض في تاريخ عرب ما قبل الإسلام. وقد علل جرجي زيدان سبب الاحجام بقوله: «ليس في تاريخ الأمم الراقية أقسم من تاريخ العرب قبل الإسلام، حتى تهيب الكاتبون الخوض فيه لوعورة مسلكه وتناقض الأقوال فيه». ^{٢٧} ويضيف فليب حتى: «ليس للباحث في ظلمات

^{٢٦} ن، م، ص ٢٥٨.

^{٢٧} العرب قبل الإسلام، مراجعة وتعليق الدكتور حسين مؤنس، القاهرة، بلا، ص ١٧.

الجاهلية إلا نور ضئيل من الحقائق المثبتة يهتمّي به».«^{٢٨} أما الدكتور جواد علي، صاحب أوسع عمل في تاريخ العرب قبل الإسلام،^{٢٩} فإنه يشكّو من تأريخ العرب السابق للإسلام، فقد كتب: «تأريخ الجاهلية- قاصداً به تاريخ الحقبة السابقة لظهور الإسلام- هو أضعف قسم كتبه المؤرخون في تاريخ العرب، يعزّزه التحقيق والتدقيق والغربلة».«^{٣٠}

ونظراً لشمول البحث على سيرورة الحضارة العربية الإسلامية، منذ نشأتها فتطورها وأزدهارها ثم توقفها وتلاؤها، لضعف الإنتاج وتشتت القوى المنتجة والاحتلال الاجنبي- المغولي وما أعقبه- فإنه سيغطي والحالة هذه حقبة طويلة تمتدّ حوالي ٤٥ قرناً. إن هذا الميدان الفسيح ليفرض علينا تجزئة البحث إلى قسمين يُفرد لكلّ منهما كتاباً خاصاً. ولا يتوقف ذلك على طول الحقبة الزمنية، أساساً، وإنما إلى اختلافات، منها جوهريّة: لأنّ الجزء الأول ينصب على دراسة المجتمعات العربية حصراً، وهي السابقة للإسلام، بينما يشتمل الجزء الثاني على دراسة المجتمعات العربية الإسلامية، الشعوب العربية وغير العربية المسلمة وغيرها من أديان أخرى، منضمة في مجتمع واحد، ومنها شكلية تتعلق بأطار تناول الجوانب المدروسة في كلّ منها.

يتألف الجزء الأول من خمسة فصولٍ ومقدمة. ببحث الفصل الأول، وهو كمدخل عام لبقية الفصول، التطورات الاقتصادية والإجتماعية وأثرهما في تطور المجتمعات والحضارات. ويكتفى الفصل بمقدمة أولية عن الفروق الأساسية بين المجتمعات الزراعية المستقرة وبين مجتمعات الصيد

^{٢٨} فيليب حتّي وادورد جرجي وجبرائيل جبور، تاريخ العرب (مطوى)، ط٤، بيروت، ١٩٦٥، ١١٨/١.

^{٢٩} المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ١٠، أجزاء، ٣، ن.م، ٤٢/١.

والرعى. ثم يتناول موضوع الحضارة كمرحلة في تطور المجتمع لأرتباط قيامها عضوياً بتقدّم المجتمع وأزدهار اقتصاده. وتبّرز، خلال ذلك، ضرورة بيان أهمية الثقافة والمدنية كمحصلة للاستقرار والحضر وتطور الاقتصاد وقوته. بيد أنّ هذا الترابط العضوي بين تطور المجتمع وأزدهار الاقتصاد المنتج بالأسلوب الإنتاج لا يلقي القبول من الفكر البرجوازي المحافظ، الذي يعزل التطور الحضاري عن السيرورة الجدلية لتطور البشرية الاجتماعي، ومن هذا المنظور يعتبر سيرورة التطور العربية مجذفة عن القوانين الاجتماعية العامة للتطور، فكان لزاماً الالتفات هنا إلى موقف الفكر الرافض للترابط الجدي. وقد أشير لبعضها لأعطاء صورة عن الأفكار المغايرة للواقع العلمي الموضوعي، والتي تعتمد في أغلب الأحيان إلى تفسير التطورات بشكل غيبي ومثالي. كما تناول البحث أيضاً بعض الردود العلمية ضد تلك الأفكار. لقد أشير إلى دوافع نكران الفكر البرجوازي المحافظ للقوانين العامة للتطور. ويأتي في مقدمتها الاصرار على حرمان القوى الثورية من أسلحتها الفكرية لدى أسمامتها في العملية الثورية العالمية في صراعها ضد الامبرالية والصهيونية والرجعية ومن أجل اختيار الطريق السليم لأسعاد شعوبها. فمن أجل الرد العلمي على أمثل تلك التفسيرات المثالية الخاطئة للفكر البرجوازي المحافظ جرى البحث في جوهر التباين الحضاري بين مجتمعات مختلفة في أساليب انتاجها. وسيقت أمثلة عديدة وتاريخ العرب القديم كشهادة على أثر الحياة الاقتصادية وما انعكس منها من البني الفوقيّة في تباين رقي المجتمعات المختلفة. وكان استخدام الموقف من اسرى الحروب بين الفتاك بهم أو البقاء على أرواحهم احد الأمثلة الحية على اختلاف التدرج الحضاري. لكن المثل الاقوى هو (الدولة) لأن توفر عناصر قيامها لا يتم الا في مجتمع بلغ جداً معيناً من تطويره الظبيقي، حيث يؤدي

نضج التناقضات في المجتمع إلى ضرورة ظهور الدولة لتأحيم التضاد. وما انتفاء عناصر الدولة أو ضعفها، قدّيماً، إلا دليلاً على أن شروط ظهور الدولة غير مكتملة في مجتمع مختلف ولم تبلغ التناقضات النضج الكافي لقيام الدولة بمؤسساتها المعروفة. بل تقتصر على الأشكال المتطورة من المؤسسات القبلية في الحكم والسيادة مع إمكانية تحولها إلى ما يشبه حكومات المدن (Polis) كما في الحجاز، قبل الإسلام. بينما اكتسبت المؤسسات الحكومية أشكالاً متطورة أكثر في الانباط وتدمر، ولا سيما الأخيرة. وجود مجلس الشيوخ والعوام، رغم التشابه بشكل عام في ظروفها الطوبغرافية والمناخية والموضعية –على مر الطرق التجارية العالمية- وفي اعتمادها على التجارة بصورة رئيسة.

لما كانت الحضارة العالمية في جوهرها تراكم عضوي لحضارات متطورة تناقضياً في مراحل متباعدة، كما ذكرنا سابقاً، فإنه بات من الضروري بحث تأثير الشعوب المتبادل ونتاجاتها الحضارية، ودراسة شكل الحضارة العالمية وجوهرها، لمعرفة العامل الذي يحدد مقدار مساهمة الشعوب فيها ضمن سياق العملية التاريخية الموحدة، شرط الإنبهاء إلى عوامل التنوع ضمن تلك الوحدة التاريخية، بسبب الشروط المادية للحياة وللظروف المحلية.

تناول الفصول الأربع الباقية دراسات المجتمعات العربية القديمة وفق تطورها الاقتصادي الاجتماعي والفكري وحسب تسلسها الزمني. فيتناول الفصل الثاني دول المجتمع العبودي وأقدمها التي قامت في الطرف الجنوبي الغربي لشبه جزيرة العرب، في اليمن وحضرموت منذ أيام المعينيين والسبئيين والحميريين والقطبيين والحضارمة. ثم ينتقل الفصل إلى خارج شبه الجزيرة ليتابع المسار الحضاري لدى الانباط، في الأقسام الجنوبية من فلسطين والأردن وشمال الحجاز، ولدى التدمررين، في بادية الشام، شرق

سوريا وغرب الفرات، بينما يتناول الفصل الثالث دوبيات المجتمع الأقطاعي، حيث أقام اللخميون (المناذرة) الرحل دوبياتهم الحاجزة (Buffer State)، بعد استقرارهم وتطورهم، في العراق الجنوبي. وكذلك شأن الغساسنة الرحل، الذين أقاموا مستوطناتهم دوبيتهم الحاجزة في سوريا بعد استيطانهم وتحضيرهم. أما الفصل الرابع فمكرس لدراسة المجتمعات العربية التي لم تنضج في تطورها، في شبه الجزيرة العربية في الحجاز ونجد.

ونظراً لتغطية الصحراء لغالب الأعم من أراضها، فقد تناول هذا الفصل دور الصحراء، متأخراً وتضاريسياً، في التأثر الاقتصادي والخلاف الاجتماعي، ثم دراسة حكومات المدن الحجازية وتطور النظم القبلية في نجد إلى امارة واسعة -كتنده-.

ويتناول الفصل الخامس بعض الجوانب الفكرية والعقائدية التي لم يجر التركيز عليها في الفصول السابقة، مع إلقاء الاهتمام للمعتقدات الدينية ومن ثم المعارف والعلوم التي ظهرت في تلك المجتمعات السابقة لظهور الإسلام. وبه يختتم الجزء الأول.

اما الجزء الثاني، فيتناول تطور الحضارة العربية الإسلامية، منذ الفتوحات الإسلامية حتى نهاية العباسين على يد المغول، اي مواكبة تطورها منذ النشأة حتى الانكسار. ولما كان التركيز ميئنصب على الجوانب العملية والأدبية من الحضارة، بات من الضروري التطرق بصورة جدية وعميقة إلى عملية التناقض التي جرت بين الشعوب معاية لعمليات التطور الاقتصادية مع بيان تأثير التبادل عبر الترجمة والنقل مما اقتضى دراسة البيور الثقافية التي رفدت الحضارة العربية الإسلامية بعطاء ثر من نتاجات الشعوب المختلفة وأنعكاس ذلك في مختلف المجالات بما فيها العلمية والفنية والأدبية. وظاهرة الترجمة والنقل عن الثقافات العالمية لدى العرب والمسلمين وان بدأت ترقية مائية

(لبرالية) تتبع حرفية النص، لكنها سرعان ما اعتمدت المنهجية باتباعها معايير علمية بعد ان اخذت تسد بوتائر اسرع متطلبات تطور حياة الناس المادية حيث حورّت، في احيان كثيرة، ويشكل مبدع، تأثيرها بابداعات الشعوب بروح عربية اسلامية. ان تطور الاداب العربية وعلومها وعلم اللغة وعلم التاريخ، منهجاً واسلوباً، تشكل مؤشرات جيدة على مسيرة العرب والمسلمين التطورية الحضارية وعلى مبلغ التأثير والتأثر بالتراث العالمي، مما يستوجب بذل غاية الاهتمام والعناية بها، وليس مرد ذلك الى ما احتمل في اتون الانصهار الحضاري من صراع فكري (الشعوبية، والموقف منها) في هذه الميادين، فحسب، ولكن لأنّها تشكل ايضاً مؤشرات جيدة على سرعة تأثير العرب والمسلمين وتفاعلهم الحضاري جراء تغير الأساس المادي لحياة المجتمع في هذه الحقبة عن العهود السابقة. لهذا اقتصر الجزء الثاني على مركبات أساسية عبر دراسات في تطور الأدب، واللغة، والشعوبية، ومراكز الترجمة الأساسية، وتطور العلوم، وتطور النظم الإسلامية وتغير منهج علم التاريخ، حيث تتجلى فيها التغييرات والتطورات المشار إليها أعلاه بشكل اوضح من سواها.

ال歇止 آذون مؤثرات التفاعل الحضاري

وطئة:

كانت الزراعة والحرف المتعلقة بها، قديماً، توفر للمجتمع مستلزمات الاستقرار والهوض والأرتقاء بصورة أمن واسع من حرف الصيد والرعى. ذلك أنَّ الزراعة قد وفرت مستلزمات تطور تقسيم العمل الاجتماعي، وبها تعلم الناس تحويل المنتجات الطبيعية، الموجودة بشكل طبيعي، إلى خيرات مادية جديدة، فأصبح عمل الناس بفضل أحترافها أو فر انتاجيه. وبذلك توفرت إمكانيات أوسع لقيام مجتمع ذي إنتاج بضائعى بتكون الفاصل عن الحاجة [الخزن، التراكم، والتبادل]. رغم سيادة الاقتصاد الطبيعي، الذي يتالف المجتمع في ظله من مجموعة من وحدات اقتصادية متماثلة النوع، كلُّ وحدة تقوم بجمعية الأعمال أبداً من استخراج شتى أصناف الخامات وأنهاً بمعالجتها قصد الاستهلاك الشخصي. أما في حرف الصيد والرعى، فقد بقي تقسيم العمل فيها مقرروناً بالعمر والجنس فقط، وأستمر في مجتمعاتها، إلا ما ندر، الاقتصاد الاستهلاكي الضعيف مما جعل إمكانياتها في النشاط الاقتصادي محدودة؛ ذلك لأنَّ متوجهاتها كانت معدة للاستهلاك المباشر وليس للتباُدل، والفاصل منها لا يدخل حلبة التبادل إلا عرضاً وكميته المتبادلة محدودة.

وكنتيجة لذلك كان اقتصاد مجتمعات الصيد والرعى، في ظروفه تلك، غير قادر على خلق مستلزمات التطور والهوض. فالمقدرات المادية الضرورية للتحولات الاجتماعية والإقتصادية تخلَّفت عن الظهور، إلا في حالات استثنائية نادرة.

إن التعمق في دراسة التركيب البنوي للمجتمع العربي الإسلامي، هو من المستلزمات الأساسية لمعرفة سيرورة الحضارة العربية الإسلامية، باستخلاص جوهر مركباتها الأساسية منذ نشوئها وعناصر تحولها وتطورها عبر المراحل والأماكن المختلفة. إلا أنها في دراستنا هنا، التي هي عبارة عن مدخل، لانستطيع التعمق بما فيه الكفاية ولا الدخول في تفاصيل التحليلات الفلسفية والاقتصادية والاجتماعية والحقوقية للتركيب البنوي، وأنما نكتفي باستعراض سريع لأهم المسائل الجوهرية التي تعنى بالتركيبة البنوية. درجة ضمن آراء للنقاش و تعالج بأسهام فيما بعد.

لما كانت كل تشكيلة (Formation)، إقتصاجتماعية عبارة عن مجموعة من الظواهر والعمليات الاجتماعية [اقتصادية وأيديولوجية ومعيشية وعائمة وغيرها] تكمن في أساسها نوع من العلاقات الاقتصادية الإنتاجية بين الناس، ولما كان مستوى تطور العلاقات الإنتاجية في مجتمع الصيد والرعى متدنياً، فإن تشكيلة المشاعية البدائية كانت هي السائدة في المناطق التي تسودها حرف الصيد والرعى قديماً. وهذه الحالة يمكن ملاحظتها، قديماً، لدى غالبية عرب بوادي شبه جزيرة العرب الرعاة الرحالة، وفي خارجها كالأبياط والتدمريين والغساسنة واللخميين، قبل استقرارهم واحترافهم مهن الزراعة والتجارة وغيرها. حيث سادت لديهم في البداية حياة البداوة المرتكزة على نظام العشيرة القبلي بعلاقات الأبوية (البطاريكة) التي هي من مستلزمات تشكيلة المشاعية البدائية. وللمتبع لتاريخ تطور المجتمع العربي القديم يجد أن القبائل العربية البدوية الرحالة لم يتسع لها التطور إلى مجتمع أرق إلا ببعد ان تطورت العلاقات الإنتاجية لديهم إلى مستوى أرق، كنتيجة لحتميات التطور الاقتصادي، الذي ساعد على تثبيت الاستقرار وتفكك الروابط القبلية ووهبها وعلى تطور العلاقات الاجتماعية والحياة الفكرية والأعتقدادية، حيث بُرِزَ التملك

الشخصي لوسائل الإنتاج لدى الأسر القوية مع اتحاد التملك المشاعي. في اليمن القديمة، ظهرت -كما تشير المصادر- في العديد من القبائل اليمانية روابط اقتصادية وسياسية تحل محل صلة القرابة والدم. بل أنَّ كلمة شعب - كما يذكر العالم اليوناني الأصل ونمساوي النشأة، نيكولوس رودوكاناكيس- تتكون في اعتقادهم [اليمنيون القدماء-ح. ق. العزيز] من القبيلة التي أستطاعت قيادة القبائل الأخرى التي لم تبلغ نضجها السياسي، وهذا الشعب يملك أرضه وأرض الآخرين تحت زعامته كذلك نجد أسم الشعب هو عبارة عن اسم القبيلة الزعيمة هكذا في لقب (ملك سبا) و (سبا و ذوريدان) و (ملك قتيان) و (معين) وهلما جرا.^{٣١} مع تحل المجتمع القبلي أخذت تظهر بداية ونشوء الطبقات، حيث بدأت تبرز عملية فرز واضحة المعالم؛ فمن جانب تظهر جماعة تدخل في تركيب الطبقة المستغلة الناشئة، رؤوساء الأسر الغنية المتنفذة، وفي مقدمتهم شيخ القبيلة، ومن جانب آخر جماعة تدخل في تركيب الطبقة المستغلة بشقي السبيل ومتختلف الأسباب: السي، الديون، التحالفات غير المتكافئة.. وعلى هذه الطبقة المستغلة أطلقت المصادر العربية تسميات: (السوق، العامة، الصعاليك، الموالى، العبيد... الخ).^{٣٢}

^{٣١} ديتلف نيلسن، فرترز هومل، ل. رودوكاناكيس، وادولف جرومأن، *التاريخ العربي القديم*، ترجمة: د. فؤاد حسنين علي، القاهرة، ١٩٥٨، ص ١٢٦.

^{٣٢} حول تحل المجتمع القبلي، انظر: إيفور م. دياكونوف، الملامح الأساسية للمجتمع القديم في غرب آسيا، (المقال من كتاب "قضايا المجتمعات ما قبل الرأسمالية في بلدان الشرق" الصادر في موسكو، ١٩٧١، عن معهد الاستشراق التابع لacadémie العلوم السوفيتية، ترجم المقال وذيله ونشره في مجلة دراسات عربية الدكتور عارف دليلة، وهذا النص في ص ١٢٦ من مجلة دراسات عربية).

إنَّ ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ الأفكار والمعتقدات في تطورها التأريخي تتحدد بتطور البيئة الاجتماعية، بتاريخ العلاقات الاجتماعية.^{٣٣} وهكذا فإنَّ التطورات المختلفة الناجمة عن حتميات التطور الاقتصادي يمكن ملاحظتها بشكل واضح في اليمن منذ بدء عهوده التأريخية، والتي أختلف المؤرخون في تحديده بين القرن الثلاثين والقرن الثاني عشر قبل الميلاد، وفي الحجاز قبل ظهور الإسلام، ففي مجال المعتقدات مثلاً، تحولت العبادة في اليمن من أشكالها البسيطة الساذجة إلى أشكال أخرى متقدمة كنتيجة لاختلاف الأساس المادي للحياة مما سبق بعد احتراف المهن الرئيسية: الزراعة، والتجارة، وكذلك في مجال التحولات الاجتماعية، بظهور المجتمع الطبقي الواضح المعالم في اليمن بصورة مبكرة، بينما سادت التطورات الاجتماعية والفكريّة والإقتصادية في نجد والجاز ببطء حتى بقيت المعتقدات الدينية فيما لأحقاب طويلة بسيطة ساذجةً، لبساطة حياة السكان قبل الاستقرار واحتراف المهن.

لقد ظهرت قديماً لدى شعوب العالم البدائية، بما فيها العربية، تصورات ومعتقدات ساذجة وبسيطة، نتيجة لضعفها وعجزها عن النضال ضد الطبيعة ولجهلها المطبق، فألتجأت إلى خيالها المبدع في خلق الأساطير والخرافات، هذا الخيال الذي كون لديها تصورات فنتازية (سحرية) عن الظواهر الطبيعية والأشياء المحيطة بها وكذلك عن المصادر الحيوانية والنباتية. كتب فردرريك إنجلز: «ان الدين قد ولد في عصور بدائية، من تخيلات الناس الجاهلة، الغامضة، البدائية عن طبيعتهم ذاتها وعن الطبيعة الخارجية التي تعحيط به». ^{٣٤} وبفضل

^{٣٣} ج. بليخانوف، تطور النظرة الواحدية إلى التاريخ، ترجمة: محمد مستجير مصطفى، القاهرة، ١٩٧٩، ص ١٢٠-١٣.

^{٣٤} ف. إنجلز، لودفيغ فيبرياخ ونهاية الفلسفة الالمانية الكلاسيكية، بالرومية، موسكو،

الخيال المبدع للأوهام الخرافية الساذجة، أعتقدت تلك الشعوب البدائية وأمنت بأن للقوى والمظاهر الطبيعية المحيطة بها قوى سحرية خارقة الشعور ماورائية. كما دانت تلك الشعوب لما صورت من خرافات، رهبةً ورغبةً، نتيجة ضعفها وجهلها، فخشيت، حسب اعتقادها، بطش القوى المماورائية بها وطماعت بالآلهة. وأوجدت لنفسها نظاماً صارماً من التواهي والمحرمات الغذائية الجنسية. إن ظهور هذه الأعتقدات البسيطة سابق تأليه الشعوب للاريات بالاف السنين، لكنه لا يتجاوز أعوام (٥٠ الف - ٤٠ الف ق.م.)، أي في العصر الحجري القديم الأعلى (Upper Polaeolithic)، ذلك لأن ظهورها يرتبط بعمق وتطور وعي الإنسان الحديث، الإنسان العاقل (*Homo Sapiens*)، في العمل والحياة الاجتماعية، بعد أن نمت قوة الدماغ البشري الاستقرائية وظهور قابلية الإنسان في التفكير المجرد، في التخيل، في الفنطازيا، التي يدوها لا يمكن الإبداع، ولكن بسبب العجز والجهالة وقلة الخبرة العملية تتحتم أبعاد الفنطازيا عن الواقع مما أدى إلى خلق تلك التصورات الخرافية الخيالية، مع اعتبارها واقعاً وتحكّم بمصير الإنسان.^{٣٥}

لقد توصلت الشعوب البدائية، كما تذهب الروايات العلمية، إلى أشكالٍ أربعة من المعتقدات الدينية [سنكتفي بتعدادها على أن نعود إلى ذكرها بالتفصيل فيما بعد].^{٣٦} وهذه الأشكال متداخلة في تدرجها لدى تلك الشعوب نظراً لتنوع ظروف الأساس المادي لحياتها. وهذه الأشكال الأربع هي: السحرية، الفيّشية (*Fetiohiom*), الطوطمية (*Magical*) والروحانية

^{٣٥} ١٩٥٢، ص ٤٨، كذلك: ماركس وإنجلز، مختارات (بالعربية)، موسكو، ١٩٧٠، ٦٢/٤.

انظر مقالنا: عن الفلسفة الوضعية ومعيارها الاجتماعي، مجلة آفاق عربية، السنة الخامسة، ١٩٨٠، ١٥٩/٥.

^{٣٦} تاريخ العالم، تأليف لجنة من العلماء السوفيت، بالروسية، المجلد الأول، موسكو، ١٩٥٥، ص ٧٣؛ انظر مقالتنا عن الفلسفة الوضعية، آفاق عربية، ١٥٧/٥.

^{٣٧} انظر مقالنا: عن الفلسفة الوضعية، آفاق عربية، ١٥٦، ١٥٧/٥.

(Animism). إن هذه الأشكال الاربعة من المعتقدات الدينية البدائية المبكرة لدى الشعوب قد توصلت لها استنتاجات العلماء المعتمدة على الدراسات الآثرية والعلمية [الإثنوغرافية (Ethnography)، [علم خصائص الشعوب] ودراسة أحوال الشعوب البدائية في القرون الثلاثة الأخيرة.

ويعتقد العلماء البرجوازيون بأنّ شكلًا واحدًا من العبادة كان هو الأصل وتفرعت منه بقية الأشكال. قد عد اي. تيلور الأعتقد بالآرواح والأنفس الشكل الأول للدين و ر. مارست الأعتقد بأحدى القوى عديمة الصفات الاسميما (جيمس فريزر) بالسحرية (فرويد) بالطوطمية. وهذا ناجم عن اعتبارهم تطور الأديان كسيرورة مستقلة غير مرتبطة بظروف حياة المجتمع المادية.

غير أنّ جملة من العلماء، الذين أقاموا استنتاجاتهم العلمية على الدراسات الآثرية والعلمية بشكل موثوق ودقيق، يرون بأنه من العبث النقاش الآن في أيٍ من هذه الأشكال الاربعة أكثر قدمًا، ذلك لعدم تشابه تدرجها لدى الشعوب البدائية من جهة، ولأنّ شكلًا مختلفًا من التصورات الدينية القديمة كانت موجودة لدى تلك الشعوب في آن واحد من جهة أخرى، فتشابكت وتحولت وتطورت، حيث لم تظهر كل واحدة منها بصورة مستقلة معزولة بعضها عن بعض، وأنما بالعكس بترت باتصال وتفاعل وثيق فيما بينها، فعلى سبيل المثال، السحرية وجدت في الطوطمية والآرواحية، وكثير من التصورات البسيطة الساذجة العامة عن قوى ومظاهر الطبيعية وما فيها من أشياء، والتي خلقها في مخيلته الأنسان البدائي عوامل الخوف والامل ونمثها الاحلام والاساطير البدائية.^{٣٧} تعتبر المرحلة الأولى في تاريخ الاديان

^{٣٧} انظر: د. صادق جلال العظم، نقد الفكر الديني، ط٢، بيروت، ١٩٧٠، ص٨٥؛ ولديورانت، قصة الحضارة، ترجمة: د. زيـنـي نـجـيبـ مـحـمـودـ، القـاهـرـةـ، ١٩٤٩، ١١٧/١، ١١٨-١١٧.

البشرية، وهي مرحلة عبادة المحسوسات. أما المرحلة الثانية فهي العبادة التجريبية. والأخيرة تكونت بعد ان تطورت بشكل متفاعل وتدخلت عبادات المرحلة الأولى الروحانية والفتيسية والطوطمية والسحرية بعضها ببعض وأمتدت بها احترام وتقدير الآباء.

لقد لعبت الأساطير، التي تخلق العقيدة في ماوراء الطبيعة^{٣٨} دورها في تصور كائنات غير مادية، تجريدات: كالأله، الروح، النفس. فتكوّنت عبادة الآلهة المتعددة الأرضية، بأشكال وهيئات بشرية وحيوانية لها ابدان وارواح ونفوس ورغائب، والسماوية، كالكواكب والنجوم وسواها، ومن ثم العبادة التوحيدية.

ان هذه الوقفة عند بوادر الاعتقاد البشري، وان كانت استطراداً طويلاً نوعما، لكنها حسب رأينا، ضرورية جداً لأنقاء الضوء على نشوء المعتقد العربي الطفولي لهم تطوراته اللاحقة.

ان الشعوب العربية القديمة لا تستثنى من ظهور هذه المعتقدات لديها بشكلها البسيط الساذج مع تغليب هذا المعتقد او ذاك هنا وهناك وان اصبحت الغلبة فيما بعد للأرواحية، او الروحانية، بين المعتقدات العربية القديمة. لقد ناقش جرجي زيدان اراء روبرتسون سميث (Smith Robertson^{٣٩}) القائلة بوجود الطوطمية في المعتقد العربي القديم.^{٤٠}

انظر مقالنا: التطورات الاقتصادية والاجتماعية والفكرية لعرب شبه الجزيرة قبل الإسلام، مجلة كلية الاداب، جامعة بغداد، العدد ١٧، بغداد، ١٩٧٤، القسم الخاص بالحالة الدينية، ص ٢٢٥-٢٣٠.

^{٣٨} ول ديورانت، قصة الحضارة، ١، ١٧١/٢٢٨؛ ١٧١/١٧؛ مجلة كلية الاداب، ١٥٧/٥.

^{٣٩} E. Rolerton Smith, *Kinship and marriage in Early Aralia*, Comleidge, 1885, P. 6.

انظر: مناقشة آرائه في كتاب العلامة السوفيتي يفغيني بيليف، العرب والإسلام والخلافة العربية، ترجمة: د. أنيس فريحة، بيروت، ١٩٧٣، ص ٤٨-٤٩، ٩٨-٩٩.

^{٤٠} تاريخ التمدن الإسلامي، بأعتماد د. حسين مؤنس، القاهرة، بلا، ٣/٤٠-٤٧.

ولم يكن جرجي زيدان موفقاً في حجمه النافذة لتلك الآراء، ومع ذلك فقد اكتفى بالاعتماد عليها كل من د. جواد علي^{٤١} و د. صالح احمد العلي^{٤٢} عند نفهمما وجود الطوطمية لدى العرب القدماء وسوف نناقش الموضوع بشيء من التفصيل عندتناولنا الحالة العقائدية لدى عرب ما قبل الإسلام.

تعكس سذاجة المعتقد العربي الطفولي واضحة بساطة حياتهم البدائية، حيث قام ذلك المعتقد على حب الطبيعة والخوف منها معًا: أني تعبيراً عن الرغبة بالآلهة والرهبة من عقابها.

استمرتا تصورات ومعتقدات الشعوب العربية موحدة متشابهة في جوهرها لدى الجميع منذ البداية، مadam اساساً ظروف حياتهم المادية متشابهة. ولكن ما ان تباينت أنماط الحياة بين قوم وآخرين سواء في شبه الجزيرة او في خارجها حتى تباينت معتقدات كل فريق بالارتباط مع طراز معيشته. فقد احتفظت القبائل البدوية الرحالة، لحقب طويلة جداً بالأشكال البدائية الساذجة من المعتقدات، وحقى بعد تكوين التصورات التجريدية لديها، لما عبّدت بعض الاجرام السماوية وسوها أقياساً، فإن عبادتها تلك كانت بسيطة غير معقدة. فهذه القبائل الرحالة لم تقم لالهها تماثيل [اصنام]، وإنما استعاضت عنها برموز وأشكال بسيطة مما يسهل حمله و نقله من حجارة وسوها في حلهم وترحالهم، او بأخذ أشياء بارزة ثابتة، كتنورة بجبل [مثل إله طي، الفلس، في جبل اجا] او نخلات^{٤٣} او صخرة معينة [ك ذو الخلصة]، تحيط بها بين حين وآخر، إذا تيسر لها ذلك. كما لا تمتلك اساطير واسعة معقدة عن علاقة الآلهة

^{٤١} المفصل، ٥٢١-٥١٨/١

^{٤٢} محاضرات في تاريخ العرب، ط٣، بغداد، ١٩٦٤، ١٩٦٤، ص ١٣١.

^{٤٣} انظر: ابن الكلبي، ابو المنذر هشام بن محمد بن المسائب، كتاب الاصنام، تحقيق احمد زكي، القاهرة، ١٩٢٤ (أعيد طبعه بالافيسنست، ١٩٦٥)، الصفحات: ٢٧، ٢٥، ٥٩.

بعضها ببعض. لأن كل قبيلة اختصت بالله معين. وهذا مرتبط بحياتها التقليدية. ولنسبة ذاته لم تقم القبائل الرحالة معايداً لمعبوداتها، والظاهر أنها لم تمارس طقوساً للصلوة ولا أناشيد تسبيح، ولم تهتم بالآخرة، فلم تعتن بالقبور. بينما قد جرت تطورات وتغيرات لاحقة على مالدي المستقررين الحضريين من معتقدات موروثة، نتيجة تطور حياتهم، من جهة وتوسيع اتصالهم واحتقارهم بالإم المنطورة من جهة أخرى. فلم يكن اعتياداً أو بطريق الصدفة ظهور التحولات الأعمقية بصورة مبكرة في اليمن، وفي الانباط وتدمير، فيما بعد، حيث اقتبسوا في الحقبة اليهيلينستية بعض آلهتها، وفي مستقرات الحجاز وحواضره في حقب لاحقة، بشكل أبسط ونقلأً عن سابقها، وإنما ترتبط هذه التطورات بما جرى في تلك البقاع من تغيرات اقتصادية واجتماعية وسياسية أدت باهلها إلى أن يطورو أو يقتبسوا، من وادي الرافدين ووادي النيل ومن الأغريق وغيرهم، معتقداتهم، بعد أن انتقلوا من عبادة المظاهر الطبيعية إلى الأعتقد التجريدي، بعبادة آلهة ترمز إلىأجرام سماوية أو أرضية ممثلة باشكال وهياكل مختلفة تقوم بينها علاقات معقدة وتعبد في معابده. كما أصبح لهذه العبادة تأثيرها الواسع في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية تلمس آثارها في المعابد الضخمة ذات الحجوس الواسعة الموقوفة لها وعظام نفوذ كهانها الروحي السياسي وتراثهم الواسع.^{٤٤} أما في نجد والجاز فقد بقيت المعتقدات الدينية فيما لاحقها طولية ساذجة لتباطؤ التطورات الاجتماعية والفكرية في وتأثر سيرها ، ولبساطة حياة السكان قبل الاستقرار واحتراف المهن، كما ذكرنا، بل يلمس حتى تأثير تفاوت ظروف نجد عن الجاز وذلك في استباق أهل الجاز في تغيير معبوداتهم، حيث تنقل الروايات العربية أن عمرو بن لعي - أحد

^{٤٤} انظر: د. جواد علي، المفصل، ط ١، ١٩٧٠، ٦/١٨٧-٨.

سراة مكة من الخزاعين- جلب الأصنام معه من الشام في احدى سفراته التجارية، حيث شاهد عبادة الآلهة هناك.^{٤٥}

ومن المؤكد انه فكر ملياً بأهمية عبادة قومه للآلهة والفوائد التي سيجذبها وجماعته من وراء تلك العبادة. ولكن ما كان يعتقد عمر بن لحي طبعاً ان يحمل الناس على تجاوز مرحلتهم البسيطة الساذجة الى مرحلة متقدمة لو لا توفر ظروف موضوعية تساعد على تقبل اشكال متطرفة.

إن هذه التغيرات الإجتماعية والفكرية والعقائدية، سواء بشكل مبكر في اليمن او بشكل متاخر في الحجاز ونجد، مترابطة جديداً مع التغيرات الاقتصادية الحاصلة في كل من اليمن والجاز ونجد، ذلك لأن تطور المجتمع يمثل تبدلاً قانونياً لأحدى التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية بأخرى أكثر تكاملاً. وهذا هو تفسير بكرة التحضر في الطرف الجنوبي الغربي لشبه جزيرة العرب -اليمن- قبل سواه، وذلك بسبب قدم تحول ابنائه بشكل واسع الى حرف الزراعة والتجارة ومايتعلق بهما. في الوقت الذي استمرت فيه التشكيلة المشاعية البدائية لحقيقة اطول لدى محترفي الصيد والرعى في الحجاز ونجد لتأخر مركبات التطور لديهم مما أعاد تحضرهم، بينما تمتد مركبات تحضر المزارعين الى رحم المشاعية.

فإذا تابعنا السيرورة الجدلية [سير ونمو التطور الديالكتيكي] من ظهور التناقضات في نظام مجتمع ما الى ظهور سلسلة من التكيفات والتعديلات التي تؤدي الى اختفاء تلك التناقضات خلال النظام الجديد للمجتمع للتحول من المشاعية البدائية الى العبودية نجد أن ظهور مقومات الحضارة لدى محترفي الزراعة تبدأ منذ المرحلة الانتقالية من المشاعية الى العبودية، ان سيرورة التحولات الاقتصادية الاجتماعية وما أرتبط بها من تطور حضاري، تأثراً وتأثيراً

^{٤٥} انظر: ابن الكلبي، الأصنام، ص ٢٨، والروايات العربية تنسب نقل الآلهة الى عمر بن بعي وسواه ايضاً. وليس المهم الاسم وإنما اجماعهم على جلب الآلهة من خارج الحجاز.

بالسيرة، قد جرت في كافة المجتمعات وفقاً لقانون التطور التاريخي العام للتغير، مع ظهور اختلافات بين منطقة وأخرى أو تفاوت تعود بالطبع إلى ملموسية الظروف الموضعية المؤدية إلى تنوعات محلية تتسم بسمة تاريخ الشعب المعنى وحياته في أحوال بيئية جغرافية وأجتماعية معينة. وهذا ما يفسر لنا سبق اليمن للحجاج وتميّزهما عن باقي أنحاء شبه الجزيرة العربية. أمّا ربط مسائل الاختلاف في درجات التحضر بالاختلافات البايولوجية [الأحيائية Biolojcal في التركيب الجسيمي للشعوب وأعتماد الأحيائية Biologism الأخذ بالتعليلات البايولوجية في تحليل الأوضاع الاجتماعية] – كما يحلو لبعض المنظرين البرجوازيين، فمختلف واهي قد عفى عليه الزمن ولم يعد له من وجود إلا في بعض أدمنفة عنصرية لأنّه لا يمتلك ذرة من حقيقة. لقد عرى الأحيائية وانتقدتها الكثير من العلماء والمفكرين من أنحاء مختلفة من العالم بما فيهم فلاسفة مثلية، نشير على سبيل المثال لا الحصر إلى انتقاد الفيلسوف المثالي الألماني إرنست كاسيرر (Cassirer, Ernst)^{٤٦} في كتابه: الدولة والاسطورة،^{٤٧} لرأء جوبينو (Gobineau) العنصرية الواردة في (مقال عن التفاوت بين الأجناس البشرية و Golrinau, Essai Sur l'inegalite des races humaines) والتي تظهر اعتقاده الراسخ الخطأ بأن الجنس الأبيض هو الجنس الوحيد الذي توفرت له الأرادة والقدرة على إنشاء حياة متحضرة...، وأعتقد أنه في حكمان الجنس الأصفر والأسود من التمتع بأية حياة أو أرادة أو قدرة..، فيتعلق كاسيرر على أنّ جوبينو لا يشعر بأدنى ارتياح يحول بينه وبين اللجوء إلى إجراء المذاعيم لسد أي فراغ يصادفه في المعرفة التاريخية... من مثل نفيه لقيام الصينيين والهنود الحمر

^{٤٦} فيلسوف مثالي الماني (١٨٧٤-١٩٤٥) التجأ إلى السويد هرباً من الفاشية في المانيا النازية ومن السويد ارتحل إلى الولايات المتحدة.

^{٤٧} الدولة والاسطورة، ترجمة: د. أحمد حمدي محمود، القاهرة، ١٩٧٥.

بأنفسهم بهمة حضارية..ولهذا فإنّ جوبينو عندما كان يحتاج إلى أية وقائع تاريخية فأنّه كان يقوم بتبييفها أو آخراعها حتى تساير نظراته ويستعان بعد ذلك بالواقع ذاتها مرة أخرى لآثبات صدق النظرية. وهكذا يرى كاسيرر بأنّ وقائع كتاب جوبينو لا يمكن الا تتوافق دائمًا مع مبادئه.^{٤٨}

إنّ جعل الثقافة العامل المحدد في تمييز الفرد والمجتمع هو أيضًا من محاولات المنظرين البرجوازيين لعكس القضية ولأخفاء دور التحولات الاقتصادية في تطور المجتمعات. فينقل الدكتور عبد الباسط محمد حسن، في مجال البعد الثقافي، قولهً لكنجيزي ديفيز K. Davis^{٤٩} جاء فيه: لو أنّ هناك عاملًاً وحيدًاً لتفسير تفرد الإنسان. وتفرد مجتمعه الأنثاني وتميذه، فلاشك أنّ هذا العامل هو الثقافة (Culture). فذكاء الإنسان، وحيثنه، ولغته كلها أمور تحكمها الثقافة التي تقوم بتجسيد طرق التفكير والسلوك من خلال التفاعل الاجتماعي القائم على الاتصال بين مكونات المجتمع. وينذهب ديفيز - كما يضيف د. عبد الباسط - إلى أبعد من ذلك بأشارة إلى «- إن الثقافة لا تكتسب تفرده وتميذه فحسب، بل أنها تميز المجتمع الذي يعيش فيه عن غيره من المجتمعات». وفي هذا القول نكران واضح لدور التحولات الاقتصادية كما أشرنا.

إنّ سيرورة التحولات الاقتصادية الاجتماعية وما يرتبط بها من تطور حضاري قد ظهرت، كما سنتابع ذلك، في المجتمعات العربية، سواء السابقة لظهور الإسلام أو العربية الإسلامية اللاحقة، وان كانت بشكل متفاوت بين رقعة واخرى، لاسيما قبل ظهور الإسلام. وليس في هذا الرأي مراومة أو لوباً

^{٤٨} ن.م، ص ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٦.

^{٤٩} Davio, K., *Human Society*, New York, 1969, PP. 3-4.

^{٥٠} أصول البحث الاجتماعي، القاهرة، ط٦، ١٩٧٧، ص ١٠٩.

لاعناق الحقائق من أجل ثباتات نظرية مسبقة او تطبيقاً آلياً للفكرة، كما يقول البعض وانما هي الحقيقة الواقعية المستخلصة من تاريخ كل الشعوب، حيث لا مجال للاستثناء من تطبيق قانون التطور التاريخي العام للتغير، بحال من الاحوال، طالما يسري مجال تطبيقه على الشعوب كافة وإيماناً ببلوغ كل العرب الاشتراكية أسوة بالآخرين. لقد اكتشف ماركس وانجلز الحتميات الأساسية للتطور الاجتماعي وبينا بأن الإنتاج الاقتصادي وماينجم عنه من علاقات انتاجية يؤلفان أساساً لتاريخ المجتمع السياسي والايديولوجي. كما برهنا على ان وجود الطبقات رهن بأطار تاريخية معينة لتطور الإنتاج.^١ وعلى هذا الأساس فان نفي الطبقات وصراعها عن المجتمعات العربية يعني الإيمان ببقاء هذه المجتمعات بحالة الركود والجمود اي بصورة ثابتة [ستاتيكية] خلافاً للواقع الذي يؤكد حركة [ديناميك] كل مجتمع حتى ولو ببطء.

الحضارة كمرحلة في تطور المجتمع:

يتطابق مدرك الحضارة، سواء من ناحية المدلول المعنوي أم من ناحية التسمية اللغوية: العربية، المنحوتة من "حضر"** والتي هي عكس البداوة والاجنبية (Kulture)، المنحوتة من حراثة، زراعة، يتطابق، قدימהً، مع مرحلة متقدمة من التطور حللت المجتمع البشري المزاول للمهن والحرف، والذي أصبح اقتصاده بضائعاً قوياً مزدهراً كنتيجة لتطور تقسيم العلم بين الزراعة وتربية الماشية، بين الحرف وحراثة الأرض، ذلك لأن هذا التطور

^١ انظر: ما أورده بهذا الشأن : جورج بوليتزر، *أصول الفلسفة الماركسية*، ترجمة: شعبان برకات، بلا، ٨٢/٢، ٨٣، ٨٤.

* وتعني الحضر، مفرد الحواضر، والمدينة الكبيرة، ينظر: *المجند في اللغة*، الطبعة الرابعة والعشرون، ص ١٣٩. [د. حسام الدين النقشبendi]

لتقسيم العمل قد جعل عمل الإنسان أوفر أنتاجية، مما تسببت عنه نتائج كبيرة. فقد ظهر التبادل بين القبائل نتيجة ظهور المنتوج الزائد وامكانية تكديسه واعادة توزيعه، حتى صار التبادل بين المنتجين ظاهرة منتظمة، دائبة.^{٥٢} وظهور تركيز الثروات في أيدي قسم من المجتمع، كما ظهر استثمار قوة العمل، بعد أن غداً الإنسان نفسه ثروة [فكان العبد يعتبر بمنزلة اداة]. وهكذا تطلب الزراعة نمط الحياة الحضري.^{٥٣}

فقد ساعدت على قيام النظام الطبقي وبالتالي نضال الطبقات، الذي هو محرك التاريخ وتقدم المجتمع، كما قال ماركس. لأن نضال الطبقات هو الوسيلة التي تنحل بواسطتها تناقضات الإنتاج، كما أنه الوسيلة التي تقدم بفضلها قوى الإنتاج والمجتمع بأكمله.^{٥٤}

إن خير ما يفسر ارتباط الحضارة بالزراعة، قديماً، هو أثبات بوادرها في المناطق الصالحة للزراعة، كما في وادي الرافدين ووادي النيل، مع ملاحظة الانطلاق الكبيري والتغير الأوسع لطاقة سكان الواديين الأيدلوجية في المجال الحضاري بعد هجرة السكان من شمال العراق إلى جنوبه، ومن جنوب مصر إلى شماله، حيث توفرت في المناطق الجديدة وسائل أسهل وأغزر للخصب والإنتاج الوفير، وكما في أودية الاتهار في الصين والهند. وغيرها، حيث توفرت مستلزمات ظهور مرحلة متقدمة في تطور المجتمع الحضاري، وهي المرحلة التي تعلم الإنسان فيها تحويل المنتوجات الطبيعية إلى خيرات مادية.

^{٥٢} ف. إنجلز، *أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة*، دار التقدم، ص. ٢٣٠.

^{٥٣} ف. كيلله و م. كوفالزون، *المادية التاريخية*، دراسة في نظرية المجتمع الماركسي، دار التقدم، موسكو، (بالعربية)، ص. ٢١٥.

^{٥٤} جورج بوليتزر، *أصول الفلسفة الماركسية*، ٨٢/٢.

نعتقد، من كلّ ما تقدم وعلى أساس أربياط التحضر بالزراعة، بأنه لم يعد ثمة مجال للتساؤل أو الاستغراب لدى تحت لفظة الحضارة من حراثة وزراعة وحضر [=من حاضرة عكس البادية]. كذلك لاغرابة في ان تصميم المدنية(Civilization)، المحوته لفظاً من الأغريقية التي تعني التمدن، ومنها Civistas (Civistas) ساكن المدينة، وتصبح الثقافة^{٥٠} [Culture] من ثقاف، أي صقل الشئ، أي هذبها، ومن الحراثة] اللتان تمتازان إلى التمدن والتحضر، وإلى الصلة القوية بالاستقرار، بسكنى المدن وهجر البوادي، ان تصبجاً من سمات المجتمع الزراعي، المتميز عن المجتمع المتنقل المتسم بالخشونة والتخلف وباقتصاده الاستهلاكي الضعيف. ذلك لأنّ النّظام العشائري، الذي هو من أكثر سمات المجتمع البدوي في أوجهه يفترض [كمالاحظ انجلز دراسة مورغان لقبائل الهندوّي الحمر في أمريكا] انتاجاً بدائيّاً جداً، وبالتالي سكاناً قليلين جداً مبعثرين في رقعة شاسعة من الأرض.^{٥١}

يلمس الباحث المتفحص في تاريخ عرب ما قبل الإسلام، أفقياً، في الواقع المختلفة من شبه الجزيرة العربية وخارجها، عمودياً، عبر الامتداد الزمني، أثر بصمات تباين احتراف المجتمعات العربية للمهن في اقتصاديات مجتمعاتها المتميزة سواء داخل شبه الجزيرة او خارجها، حيث يبدو التمييز واضحاً بين الاقوام المزراعية، والاخري الرحالية من العرب الاقدمين، وبين المزاولين للزراعة والتجارة المستقررين في الطرق الجنوبي الغربي لشبه الجزيرة وفي بعض واحاتها من اهل المدر وبين العرب البدو الرحالية في بوادي شبه الجزيرة وخارجها من اهل الوبر.

^{٥٠} حول الثقافة، انظر: كيلله وكوفالرون، الماديا التأريخية، ص ١٥٢-١٥٣.

^{٥١} اصل العائلة، ص ١٢٧.

وتقديرك بوضوح، لدى متابعة التغيرات الحاصلة في المجتمعات المتحولة من نمط لآخر، العلاقة الجدلية بين الانتقال من البداوة [البربرية Barbaris بشكلها الأعم وليس التنقلية Normadis فقط] إلى التحضر وبين التملك الخاص [ليس المقصود بالملك الخاص الاقتناء الفردي للحاجيات والأدوات من ملبس وسكن وسلاح لغرض الاستعمال الشخصي، ولا الحياة على الأشياء المادية- التي هي ليست أكثر من سلطة فعلية على الموضوع بدون آية اجتماعية مع الآخرين- كما يذكر المختص بتاريخ الشرق الادنى القديم، ايغور م. دياكونوف.^{٥٧} لأن المقصود بالملك الشخصي كل ما يوظف في عملية الإنتاج ومتسم بطابع استغاثي، لأن الملكية كمفهوم تأريخية اقتصادية تمثل علاقة اجتماعية بين الطبقات تظهر في أسلوب أنتاج معين بخصوص تملك وسائل وشروط الإنتاج^{٥٨}. إن العلاقة الجدلية بين الانتقال من البداوة إلى التحضر وبين التملك الخاص واضحة للعيان لأنه ينجم عن توسيع الملكية اللاسيما توسيع الاستغلال وضرورة قيام سلطة حاكمة، التي هي ابرز سمات الاستقرار.

لقد ربط ابن خلدون، بنباهة، الحضارة بالملكية (الملك) وما تقتضيه من سلطة [من سلطان، حسب تعبيره]. فهو يرى ان الهيكل العمودي للحضارة، وان امتدت مرتكياته الى البداوة الا ان البناء الحضاري لا يظهر في البوادي، لافتقار البداوة للملكية والدولة القائمة على العصبية [ويقصد بالعصبية التماسك الاجتماعي القائم على الاستقرار]، وانما تظهر الحضارة وتقوم لدى اهل الحضر لوجود (السلطان) الذي هو ضروري (للعمان). فهو يؤكد على وجود الحضارة في المجتمعات القائمة فيها دول، وزوالها من

^{٥٧}الملاجم الأساسية للمجتمع القديم، ص ١١٧، ١١٨، ١١٩.
^{٥٨}ن.م، ص ١١٨.

المجتمعات بزوال دولها. فيقول: "فلا بد في تمصير الامصار واحتطاط المدن من الدولة والملك... فعمر الدولة حينئذ عمر لها".^{٥٩}

إنَّ رأي ابن خلدون حول أمتداد جنور الحضارة إلى البداوة يتفق والنظرة العلمية التي ترى أن هيكل الحضارة العمودي له في تطوره وسيرورته أمتدادات بعيدة حيث تُختلق بداياته في رحم مجتمعات غير متحضرة، فمن هناك البدايات، ومن هناك متلقي المسيرة، ولهذا اتقابُر بدايات المجتمعات المختلفة ثم تبدأ الاختلافات في وتائر التطور تبعاً لاختلاف النشاط الاقتصادي لكل جماعة، فالجماعات المستقرة المزاولة لحرف متطرفة تسير بوتائر أسرع وتبعد أكثر فأكثر عن الجماعات البدوية الرحالة السائدة في تطورها بوتائر بطيئة جداً وحينما يصبح البون شاسعاً بين الجماعات العائشة في زمن واحد المتحضرة وغير المتحضرة يغدو عسيراً تصور تشابه ووحدة نشأة المتلقيات في بوادر مسيرة التطور. عندئذ يفتَش المنظرون البرجوازيون عن علل غير علمية للتفاوت بين الشعوب حيث يعزونها إلى الفروق الجنسية، أي في التكوين الاحيائي البايولوجي المتأثر بالبيئة. على الرغم من أن هذه الاختلافات الحضارية تحصل حتى بين جماعات شعب واحد، سواء عمودياً عبر الأرمنة، أو افقياً متزامنة ولكنها مختلفة حرفياً، لاختلاف نشاط كل جماعة من الشعب الواحد اقتصادياً. إن ازدهار الاقتصاد او ضعفه، وماينجم عنهم من تحضر او تخلف، غير مرتهن طبعاً بالتكوين الاحيائي للشعوب، كما أنهما ليسا بقدر سرمدي لأيِّ قوم، بيد أنَّ ما يحصل إنما يتم وفقاً للخصائص المتميزة بين بقعة و أخرى ومدى تأثيرها في القوى المنتجة، أي انه منوط بعوامل بيئية وبمقدار امكانية التحرر منها، ذلك أن الظروف الجغرافية، وإن كانت لاتلعب دوراً حاسماً في التحولات الاجتماعية،

^{٥٩} ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي المغربي، المقدمة، ط٤، دار احياء التراث العربي، بيروت، بلا، ص٣٤٣.

فأوروبا مثلاً لم تغير ظروفها الجغرافية نسبياً خلال ثلاثة قرون ولكنها مرت بخمس تشكيلات، إلا أنها -الظروف الجغرافية- ولاسيما في الماضي، لم تعدم التأثير. ولما كانت الثقافة تشمل كل القيم المادية والروحية ووسائل خلقها والافادة منها ونقلها، وهي التي يخلقها المجتمع خلال التاريخ، فإنها تتأثر بنمط الإنتاج السائد، ولاسيما بالعوامل المؤثرة في القوى المنتجة. فهناك علاقة جدلية بين الثقافة وأسلوب الإنتاج. نخلص من ذلك أن الثقافة ظاهرة تاريخية يتحدد تطورها بتطور وتتابع التشكيلات الاقتصادية اجتماعية.

ولهذا ليس بمستغرب أن تميز ثقافة العرب المتحضرين عن ثقافة العرب البدو الرحالة. ذلك لأن الوجود الاجتماعي، هو الذي يحدد الوعي الاجتماعي كذلك تمايزت وتبينت ثقافات العرب عبر مراحل التطورات الاجتماعية. لأن الثقافة -كما تعتبرها الماركسية- هي أحدي جوانب نشاط حياة المجتمع، والذي يشمل جميع نواحي الحياة الاجتماعية من انتاج مادي، إلى نظام الدولة والقوانين إلى العلوم والفنون وعمaran المدن، وطريقة الأكل والملبس وغير ذلك. ليس بمقدورنا الآن أن نذكر في هذه المجال كل مايدور حول الثقافة وعلاقتها بالمجتمع والتحديد العلمي للمصطلح، ولكننا نكتفي بالإشارة إلى ماذكره العلامة السوفيتية (كيلله) و(كوفالزون) عن اختلاف العلماء حول مدرك [مفهوم] الثقافة العام والضيق.^{٦١} فقد أوردا مثلاً عن العالمين الأمريكيين (كرويبر A. Kroeber) و (كلوكلون C. Kluckhohn) اللذين يقولان بوجود (١٦٠) تعرضاً للثقافة في كتابهما: مراجعة نقدية للمفاهيم والتعاريف.^{٦٢}

^{٦١} ١٤٧٤ـ ٣-١٥٢، *A Critical Review of Concept and Definitions*, Cambridge (Mass, 1952).

موقف الفكر البرجوازي من التطور الحضاري:

يعتقد المفكرون البرجوازيون المحافظون، وهم يمتلكون قبولاً لا يستهان به من الامكانيات العلمية والواقع المتنفذة في التوجه، بأنهم قادرؤن على تشويه مسيرة الشعوب التاريخية عبر فنلكرة اكاديمية موظفين لها قدراتهم وذكاءهم. لكنهم عاجزون حتماً عن طمس القوى المحركة الحقيقة وعن طمس جوهر التطورات الحضارية مهما وظفوا لاجل ذلك من قدرات ومهارات وذكاء، ذلك لأن ذكاءهم محدود ومرتبط بقصر نظرهم الطبقي التاريخي.

إن عزل التطور الحضاري عن سيرورة تطور البشرية الإجتماعي الجدلية إنما هو دليل عقم وخواء وضيق افق علمي وسياسي لدى المفكرين البرجوازيين، الذين لا يقرؤن بالتفصير المادي للتاريخ ويجرون الحضارة من تأثيرها وتفاعلها مع نمط الانتاج السائد في المجتمع، وينقسم هؤلاء العلماء في تفسيراتهم لنشأة الحضارة إلى مجموعات متضادة في آرائهم لاعتماد بعضهم على دراسات: علم الإنسان (الأنثروبولوجيا Ahthropology) وغيرهم الأحيائية بينما يعتمد آخرون، على الإجتماعية (سوسولوجيا Sociology) والنفسية (سايكولوجيا) والإقتصادية ليخلصوا إلى أن الحضارة ردود فعل لعوامل اجتماعية واحيائية وسلوكية ونفسية واقتصادية. ويمكن ملاحظة الاستعراض المكثف لهذه الآراء في كتاب معجم علم الاجتماع.^{٦٢} إن الدافع الأساس لدى اغلبية هؤلاء لا يكمن في عدائهم للماركسيـة-

الغريد لويس كروبر (١٨٧٦-١٩٦٠) و كلайд كلوكين (١٩٠٥-١٩٦٠). عالمان انثروبولوجيان اميركيان اختصا بدراسة الحضارة على اساس الربط بين علم الانسان والمجتمع والنفس.

^{٦٢} تأليف لجنة من العلماء برئاسة تحرير البروفيسور دينكن ميشيل [استاذ ورئيس قسم الاجتماع في جامعة اكسفورد بانكلترا] وهو عبارة عن قاموس موسع لبعض مصطلحات علم الاجتماع وما يتعلّق به، ترجمة الدكتور احسان محمد الحسن، بغداد، ١٩٨٠، ص. ٩٣-٩٨.

اللينية فحسب، وإنما في سعهم لبقاء شعوب البلدان النامية في إسار النظارات الغيبة الموراثة من القرون الوسطى، لتحق بموجها القوى والعوامل الروحية الخفية محل القوانين الموضوعية التي تحكم الاتجاه العام لحركة المجتمع، وكذلك فرض الصفة الممتازة والإرادوية ضمن إطار التحدى والاستجابة.^{٦٣} وهذا الصدد نشير أيضاً إلى الأطروحة الغبية المنافية للعلم التي اعتمدتها وبشر بها المؤرخ الانكليزي آرنولد تويني عن (الاقليات المبدعة التي تستطيع مجاهدة التحدى الذي يواجهه المجتمع بطريق الأنسحاب الذي تقوم به الاقليات المبدعة من مجتمعاتها، ليغرقوا في الوحدة ويصارعوا المشاكل لوحدهم ثم العودة إلى المجتمع حيث يقودوا الآخرين لمتابعة أفكارهم بطريق التشابه الموحد).^{٦٤}

لقد أثيرت ضدّ أفكار تويني انتقادات علمية جمة نورد بعضها على سبيل المثال لا الحصر: كتب الدكتور حكمت قفلجملي: "أن الدور الذي لعبه الغرب في ساحة العلوم الاجتماعية الا وهو دور «عمي من لا يريد أن يرى» كان يخلق أشكالاً من العمى أشدّ وأدهى من العمى الحقيقي. وكان هذا الغرب قد أنجز بناء قسم الاستراكية الشرقية في الاستخبارات البريطانية على مستوى تويني. وقد ترك في ذلك القسم ساحات خالية ليصول فيها الإيديولوجيون البرجوازيون الذين يدعون بأنّهم من المنظرين، دونما أزعاج. وما مؤلفنا بعنوان «المستر تويني يقلب علم التاريخ رأساً على عقب»،^{٦٥} الا محاولة ضد أولئك الذين «يتجلون في القرى الخالية من الكلاب دون عصي».^{٦٦}

^{٦٣} تويني، آرنولد، ج. بحث في التاريخ لموجز المجلدات الستة الأولى، بقلم: د. سفي، سمرفيل، الجزء الأول، ترجمة: د. طه باقر، بغداد، ١٩٥٥، ص ٨٧-٢٠٩.

عن التحدى والاستجابة: انظر: الفصول ٥، ٦، ٧ من الكتاب نفسه.

^{٦٤} حول ذلك انظر: الاعتزاز والظهور في بحث في التاريخ لـ تويني، ن.م، ص ٢٢٠-٣٥٢.

^{٦٥} لم يترجم إلى العربية من التركية -حسب ظني- فلم أطلع عليه.

^{٦٦} تطور أشكال الملكية، ترجمة عن التركية، فاضل جنكر، ط١، بيروت، ١٩٧٨، ص ١٠١.

ويورد دومنيك أوريانى فى مقاله القيم: «المذهب الذى يفسر العالم ويحوله»^{٦٧} نصاً من كتاب توبيني،^{٦٨} كمثال باز على الغيبة. كتب دومنيك أوريانى: «يقول توبيني، المؤرخ бритانى البارز، وهو يشير إلى عرض "الإيديولوجيا الجيدة"، علىها أن تكون فعالة أن تكون نظرية عامة فلسفية ودينية جديدة، تغطي الحياة بأسرها. ويجب أن تكون تغيراً في مثلنا جالية معها تغييراً في ترتيب أولياتنا». ^{٦٩} وينتقد هنرى فرانكفورت أسلوبى شبنفلر وتوبيني رغم تضادهما، فى كتابه: [فجر الحضارة في الشرق الادنى]^{٧٠} يقول توبيني: «لكن المجتمعات تستجيب بصور مختلفة لتحدي مشترك، فإن بعضها يميل إلى الخضوع بينما يقوم البعض الآخر باستجابة ناجحة من خلال حركة ابداعية من الفر والكر، في حين نجد أن فئة ثالثة لا تنجع في الاستجابة على خطوط جديدة ولا تفشل بالاستجابة أبداً، بل تعمل على تجاوز الازمة بانتظار فرد خلاق أو أقلية مبدعة تشق الطريق، ثم تواصل السير بهدوء في اعقاب الطليعة».^{٧١} أما القاعدة الأخرى «التحدي والاستجابة»، فليست هي الأخرى ناشئة عن صلب التاريخ ولكنها نظرية تطبق على التاريخ من الخارج، أما انطباقها -ولنترك جانبًا امر قدرتها على تحليل الحقائق- « فهو في الغالب أكثر من مشكوك فيه»^{٧٢} وبشخص فرانكفورت إلى أن المعلومات الأولية في التاريخ ثبتت أن شعوباً معينة حققت العظمة. لكن توبيني يعتقد أن الاحوال السياسية التي عددها كانت بمثابة دوافع

^{٦٧} المنشور في كراس: الماركسية الليبية وعصرنا، ص ١٢-٢٤.

^{٦٨} كيف نواجه المستقبل، لندن، ١٩٧١، ص ٤٢.

^{٦٩} كراس الماركسية الليبية وعصرنا، مترجم للعربية، براغ، ١٩٧٤، ص ١٩.

^{٧٠} ترجمة ميخائيل خوري، ملشورات مؤسسة فرانكلين ودار مكتبة الحياة، ط٢، بيروت، نيويورك، ١٩٦٥.

^{٧١} ن.م، ص ٣٢.

^{٧٢} ن.م، ص ٣٣.

وحوافز. قد يكون الامر كذلك. كلّه لا يعلل، في أي حال، الحقيقة التي تحتاج قبل غيرها الى تعليل، وهي، ان هذه الاحوال كانت دوافع في بعض الحالات لكنها لم تكن كذلك في احوال اخرى.

لذلك لا أرى ان القاعدة تؤدي الى الفهم، اذ ينبغي لها في كل حالة ان تتبع تحدياً يناسب الحقيقة التاريخية التي تسمّها «استجابة»^{٧٣} ويستمر في ملاحظاته النقدية لطريقة تويني فيقول: «ان نقدنا لا ينتهي من اعتقاد ايجابي بما يدعى بالتاريخ العلمي ويفترض فيه بالدرجة الأولى ان يجمع حقائق موضوعية، ثم يفسرها فيما بعد. وليس اعتراضنا هنا ضدّ صيغ تخفى نقطة البداية والنتيجة لطريقته. ثم اننا ننتقده ايضاً لانه لا يستخرج من كل حالة تاريخية معينة فكرة التحدى الخاص الذي يمكن اعتباره استجابة لها. انه يطبق القاعدة، كما قلت، من الخارج، وهي لذلك محكم عليها بأن لا تكون ذات صلة بالموضوع».^{٧٤}

لامجال هنا للاستطراد كثيراً لأبراد كل الانتقادات لأفكار وآراء تويني بل نكتفي بالإشارة الى انتقادات الدكتور جورج حنا لأفكار تويني المأورائية،^{٧٥} وانتقادات ق. افاناسيف للغيبيات التي يشرّبها تويني^{٧٦} إنّنا لم نقصر مثالنا على تويني لكونه مؤرخاً فحسب، وإنما بسبب تحيزه الواضح للأحتكارات العالمية، رغم اختلافه مع الصهابنة العنصريين في كثير من وجهات النظر مما عرض لانتقاداتهم الكثيرة.

^{٧٣} ن.م، ص ٣٣-٣٤.

^{٧٤} ن.م، ص ٣٤.

^{٧٥} الحقيقة الحضارية، ط ١، بيروت، ١٩٥٨، ص ١٦-١٧.

^{٧٦} اسس الفلسفة الماركسية، ط ٣، وقد كتب (لقد كتب المؤرخ الانكليزي آرنولد تويني، مثلاً: ان هدف التاريخ هو اقامة المملكة الالهية والتاريخ نفسه هو: وهي ذاتي رباني)، ص ١٦٠.

تلقي الكتابات المحافظة في بلدان العالم الثالث مع آراء المفكرين البرجوازيين الغربيين المحافظة لتعبر عن مصالح الرجعية المحلية، الأقطاعية والكومبرادورية، ومصالح الامبرialisية العالمية على حد سواء. فتحاول هذه الكتابات، خلف قناع من الأكاديمية الزائفية، في دراساتها المتصدية للافكار العلمية، ان تكرّس فكرةبقاء مجتمعات العالم الثالث ولاسيما الشرقية محصنة من الابتلاء بداء التفسير المادي [كذا] بحجة عدم امكانية تطبيق التشكيلات الاقتصادية الجماعية الخمس [كقوالب، كمساطر، كذا] على الشرق كما طبقت على تطور المجتمع الأوروبي، لأن الغرب وغرب والشرق شرق ولن يتلقيا - كما قال شاعر الاستعمار كلينغ! كذلك تدافع الكتابات المحافظة في البلدان العربية عن نقاوة المجتمع العربي الإسلامي وتكامله وتكافله ولخلوه من الصراعات الطبقية في مختلف عهوده؟

إن الإيديولوجي البرجوازي المحافظين في الغرب، إذ ينكرون الطابع القانوني للتطور الاجتماعي، أنما ينفذون أرادـة الاحتـكارات العـالمـية، فيـسعـونـ إلىـ تـشوـيهـ حـقـيقـةـ التـقدـمـ التـارـيـخـيـ، وـتجـمـيلـ الرـأسـمـالـيـةـ وـتـبـيرـ سـيـاسـاهـ الرـجـعـيـةـ الدـاخـلـيـةـ وـالـخـارـجـيـةـ. انـهـمـ يـحاـولـونـ منـعـ الطـبـقـةـ العـامـلـةـ منـ فـيهـ واستـخدـامـ القـوـانـينـ المـوضـوعـيـةـ لـلـتـطـوـرـ الإـجـتمـاعـيـ، هـذـهـ القـوـانـينـ الـقـيـمـةـ تـسـيرـ الرـأسـمـالـيـةـ نحوـ نـهاـيـهـاـ المـحـتـومـةـ.⁷⁷ كـمـاـ يـحاـولـونـ أـبعـادـ حـرـكـةـ التـحرـرـ الوـطـنـيـ عنـ أـنـهـاجـ السـبـيلـ الثـورـيـ العـلـىـ. انـظـرـ: عـلـىـ سـبـيلـ المـثـالـ الجـهـدـ الـبـائـسـ لـأـربعـةـ منـ منـظـريـ الـبرـجـواـزـيـةـ: روـدىـسـونـ، مـانـدـيلـ، لـوـفيـغـرـ، وـأـفـارـيـ، فـيـ كـرـاسـهـمـ: جـدـلـ الطـبـقـةـ

⁷⁷ نـهـ، صـ ١٦٠ـ.

والإمة.^{٧٨} حيث يشكك هؤلاء الربعة بالقوانين العامة للتطور والاستنتاجات الصائبة للنضال الطبقي وحركة التحرر الوطني.

بيد أن وضع اليد بوعي ومسؤولية على المشكلات المثارة بهذا الصدد قد عالجتها كثيراً كتابات تقدمية بأسلوب علمي وموضوعي رصين. وهذه المناسبة تجدر الإشارة إلى الباحث السوفيتي نوغمان أشيروف، في كراسه: الإسلام والامة^{٧٩} ففيه الطروحات الضافية عن توضيح دور الاشتراكية العلمية وصواب مواقفها وتحليلاتها من القضية القومية. يقول أشيروف:

«تعتبر الشيوعية سيادة التملك الخاص لوسائل الإنتاج، استغلال الإنسان للإنسان، هو الذي يثير العداء بين الشعوب. ولم تحدد الماركسية العلة الرئيسية لإثارة الخلاف بين الشعوب فحسب، وإنما وضعت برنامجاً علمياً للقضاء عليه. وباحتل مطلب القضاء على التملك الخاص لوسائل الإنتاج مكانهما في هذا البرنامج. وعلم الحزب الشيوعي بأن تعميم وسائل الإنتاج يسعه أن يصبح وغداً الشرط الاقتصادي الحقيقي لتحرير الأمة والقوميات، تقارهم وتعجيل تطورهم».»^{٨٠}

وليس من حرج أن يجري تكرار التأكيد على أن الدراسات العلمية الموضوعية هي وحدها، من دون شك، تساعد على تفهم وادران المسار الحقيقي والمحرك الأساس لمجمل تاريخ البشرية وكذلك التوصل إلى استنتاجات صائبة ودقيقة، ذلك لأنها تقف مع الشعوب وتطلعاتها وبالتالي

^{٧٨} مكسيم رودنسون، إرنست مانديل، هنري لوفيفر، وايل أوفاري، جبل الطبقة والإمة، ترجمة: جورج طرابيشي، ط١، بيروت، ١٩٧٤، بالنسبة لأستاذ عزيز السيد جاسم كراس باسم جدل القومية والطبقة، بغداد، ١٩٧٦.

^{٧٩} نوغمان [زينا نعمن] أشيروف، الإسلام والامة، بالروسية، موسكو، ١٩٧٥، ن.م، ص ٢٣.

فهي بمنجاةٍ من ضيق الأفق العلمي والسياسي الطبقي الذي تحتمه مصالح الاحتكارات العالمية وكل ما يرتبط بالرأسمالية.

أما الإيديولوجية البرجوازية فأنها تواجه الان من ناحية التقدم المستمر للاشتراكية ومن ناحية أخرى التفاهم المتواصل للتناقضات الكامنة في النظام الرأسمالي المبوء بأزمات تفسخه وعدم استقراره وغدت الحقيقة نقىض التناحرى. لهذا لم يعد ممثلاً الإيديولوجية البرجوازية بمقدورهم ان يغفلوا ان قيمة الرأسمالية تهبط بشكل متزايد في أعين الجماهير، وهذا هو السبب في أنهم نادراً ما يجذرون بالدفاع عنّاً عن نظامهم ويلجأون إلى التمويه أكثر فأكثر وانتقل التركيز، حتى في الدوائر البرجوازية المحافظة، من المحافظة على النظام الرأسمالي إلى (تجديده). ويواجه ايديولوجيون هنا النظام قضية غير قابلة الحل، هي إيجاد بدائل للاشتراكية القائمة، «التخصص في الماركسية» تشويه للماركسية الليينية.^{٨١}

جوهر التباين الحضاري:

توصلنا، من ملاحظتنا السابقة، إلى أن الحضارة، التي هي مرحلة في تطور المجتمع، بربت في المراحل النهائية لأول تشكيلة اقتصاجتماعية وهي المشاعية البدائية، كما رافقت في نموها وتطورها المراحل الانتقالية من التشكيلة من التشكيلة الأولى إلى الثانية -العبودية- اي في المرحلة التي تطور فيها عمل الإنسان لخلق انتاج فائض عن الحد الأدنى الضروري للحياة. ولم يتيسر للبشر هذا التطور الا عبر سلسلة من الاكتشافات والاختراعات في اسلوب الحصول على الغذاء والمسكن والملابس ومايتعلق بها خلال الاف الالوف من السنين والتي

^{٨١} رolf بورمان، كارل هينزغوير، ملان مولير، *التخصص في الماركسية*، مترجمة للعربية، مجلة الثقافة الجديدة، ٣٩/٨٨.

مهنت لانتقال البشر من الحالة الوحشية المعتمد فيها، على جمع الغذاء، بضمته صيد الحيوان (ورعيه مؤخرًا) إلى البربرية^{٨٢} حيث بدأ إنتاج الغذاء، بعد الانتقال إلى تربية الماشية وزراعة الأرض وصهر المعادن، والتي أقتضى احترافها ظهور التقسيم الاجتماعي للعمل -كما قلنا سابقاً- حيث أخذت قسم من المجتمع ينصرف بصورة أساسية إلى زراعة الأرض وقسم آخر إلى تربية الماشي. وقد كان انفصال قبائل الرعاء عن زراعة الأرض أول تقسيم اجتماعي كبير في التاريخ تم خضته عنه اختلافات واسعة بين المجتمعات المزاولة للزراعة وبين المزاولة لتجنين الحيوان ورعايته.

يقول ابن خلدون: «أعلم أن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو بأختلاف نحلتهم من المعاش،... فمهم من يستعمل الفلاح من الغرامة والزراعة ومنهم من ينتحل القيام على الحيوان من الغنم والبقر والمعزوالنحل والدوود لتناجها وإستخراج فضلاتها». ^{٨٣} ثم يخلص ابن خلدون: «... إلى أن البدو هم سكان البوادي... وأمّا.. من كان معاشه منهم في الزراعة والقيام بالفلاح كان المقام به أولى من الطعن وهو لاء سكان المدن والقرى والجبال...». ^{٨٤} كان للتباين في الإنتاج وكميته من أثر في قيام صراعات بين الرعاء والمزارعين. [حول أثر الصراعات بين المزارعين والرعاء عموماً، انظر بليخانوف،^{٨٥} ولاسيما العرب، انظر أيام العرب،^{٨٦} بيلالييف.^{٨٧}]

^{٨٢} حول الوحشية والبربرية، انظر: إنجلز، أصل العائلة، الصفحات: ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣، انظر كذلك معجم علم الاجتماع، ص ٤٢، ٤٣.

^{٨٣} المقدمة، ص ١٢٠.

^{٨٤} ن.م، ص ١٢١.

^{٨٥} القضايا الأساسية، ص ٤٦-٥١.

وبأنفصال قبائل الرعاة عن زراعة الأرض تقرر مصير الحضارة، التي ارتبطت بالزراعة والاستقرار. لقد أشرنا، على أساس هذا التقسيم، إلى ضرورة تتبع المناطق العربية التي ساعدت ظروفها ومساعي أبنائها على احتراف مهنة الزراعة ومتعلق بها من حرف، لتمييزها عن تلك المناطق التي أرغم قاطنوها على الأقتصار في ممارسة الصيد والرعى بشكل رئيسي لأدراك علة تطور وتحضر مجموعة وتختلف أخرى. ذلك أنَّ تطور تقسيم العمل يقدر ما هو أساس في جعل عمل الإنسان أوفر أنتاجية -كما سبق وذكر- فأنه قد توفرت به المقدمات المادية لتكوين التشكيلة الجديدة -العبودية-. لبروز فائض معين من بعض المنتجات في المجتمع المشاعي وطلب على بعضها الآخر، قيام التبادل، والذي سيفرض التوسيع فيه بين القبائل إلى تقويض النظام العشائري والعلاقات والروابط القبلية في المستوطنات الزراعية، كما حدث مبكراً في الطرف الجنوبي الغربي لشبه الجزيرة العربية، لدى اليمانيين والحضارمة والقطبيين، وهم الذين سبقوا الآخرين في إخضاع البيئة باقامة المنشآت الإروائية مثلاً، وكما حدث لاحقاً في خارج شبه الجزيرة، لدى الانباط والتدمريين واهل الحضر (Hatra)، بسبب امتهانهم التجارة. وتدخل في مضمون التحولات أيضاً محاولات الكنديين القسرية لارغام القبائل العربية التجذيدية الانضمام تحت سيطرتهم، والتي يعدها البعض، بشكل غير علمي، دعوة للوحدة بداعف قومية. وكذلك ما حل ببعض قبائل الحجاز -قرיש مثلاً- من تفكك قبيل ظهور الإسلام. إنَّ علة تلك التغيرات تكمن في

^{٨٦} انظر: كتاب أيام العرب قبل الإسلام، لابي عبيدة (٢٠٩هـ)، ملقطات من الكتب والمخطوطات، من قبل الدكتور عادل جاسم البياتي، تحقيق ودراسة مقارنة، بغداد، ١٩٧٦، ص ٥٥٥-٣٧٩، وفي غيره من المصادر العربية.

^{٨٧} العرب والإسلام والخلافة العربية، ص ١١١.

ظهور كمية كبيرة من المنتوجات التي تنتج للناس تشكيل وحدات أوسع من العشيرة والقبيلة، كما هو وارد في النصوص اليمانية القديمة، والتي سبق الاشارة لها. وهذا يعني بأنّ القوى المنتجة الجديدة في المجتمع لم يعد في وسعها ان تبقى في اطار علاقات الإنتاج القائمة، ذلك ان اطار الملكية المشاعية الضيق، وتوزيع منتجات العمل بالتساوي اخذأ يقوقان تطور القوى المنتجة ولم يبق اي مبرر لضرورة العمل المشترك، الذي كان يمارس في المشاعية الجماعية وظهرت ضرورة العمل الفردي. فبزيادة انتاجية العمل بدأت العشيرة بالتفكك الى عوائل منفصلة وظهرت الملكية الاسطىما، المتميزة بلاشك عن الملكية العامة المشاعية وملكية القطاع الحكومي والملكية الفردية، اذ صار مالك وسائل الإنتاج هو العائلة وتركزت هذه الوسائل بشكل رئيسي بأيدي عوائل استقراتية العشيرة السابقين، التي اخذت تشكل سلطات ادارية جماعية، كملأا في المجتمعات العربية القديمة. بل حتى القبيلة المترمعة في اليمن [الشعب] نجد الفوارق الاجتماعية بين أفرادها.^{٨٨}

لقد ربط انجلز تفكك عقد الجماعية بأسلوب الإنتاج وتوزيع المنتجات: «إن اسلوب الإنتاج والمبادلة في مجتمع تاريخي معين والشروط التاريخية لهذا المجتمع تحدد اسلوب توزيع منتجاته. وفي الجماعية القبلية او القروية العاملة بملكية الجماعية للأرض -التي تدخل- سائر الشعوب المتحضرة التأريخ بها، او ببقايتها التي يمكن التعرف إليها بكل سهولة -ليكون توزيع المنتجات المتكافئ بصورة عادلة أمراً مفروغاً منه، أما حيث يقوم تفاوت كبير في التوزيع بين أفراد الجماعة، فتلك دلالة على أنّ عقد هذه الجماعة قد شرع ينفرط». ^{٨٩}

^{٨٨} ديتلف نيلسن وأخرون، *التاريخ العربي القديم*، ص ١-١٣.

^{٨٩} انتي دوهرنغ، *ثورة الهر اوجين دوهرنغ في العلوم*، ترجمة: د. فؤاد ايوب، ط١، دمشق، آب ١٩٦٥، ص ١٧٨.

ويجد الباحث في تتبّعه لأحوال القبائل العربية أن تفكّكها إلى وحدات أسرية قد سار بوتائر متفاوتة بعماً لظروف كل قبيلة أو إمكانية تطوير أسلوب انتاجها، بيد أن تركز وسائل الإنتاج بيد أسر أرستقراطية قبلية محدودة، والتفاوت الكبير في توزيع المنتجات، من شأنه أن يسارع في خلق التباين الاجتماعي المبكر بين صنوف أبناء العشيرة الواحدة. ويلمس هنا لدى قبائل كثيرة، فيشير د. جواد علي، مثلاً: «ولم تكن ثروة قريش موزعة توزيعاً عادلاً، بل كانت مكتسبة مكتنزة عند نفر، احتكر لنفسه المال والثراء، أما الأكثرون، فكانوا فقراء، حتى ذوو قرابة هؤلاء المثيرين، كان أغلبهم فقراء، لا يجدون منهم عوناً. ومجتمع مثل هذا، لا يمكن أن يتطرق إليه الانسجام وتخامرها الآلفة والمحبة الصادقة، مما يربط بروابط الطاعة والتسليم إلى القدر وإلى العرف والعادة وأداب الآباء والاجداد».٩٠ وفي اليمن كما تشير النصوص القديمة- ظهر التباين واضحأً ليس بين القبائل المترعمة [الشعب] وبين القبائل التابعة لها [المحتفظة باسم القبيلة] فحسب، بل حتى بين أبناء القبائل المترعمة، حيث تقوم الفوارق الاجتماعية بين أفرادها، ولأن هناك روابط اقتصادية أقوى من رابطة الدم.٩١

وفي دراسة ممتعة عن تطور المجتمع اليمني يشير سلطان احمد عمر إلى أنه بمرور الزمن (ذابت القبائل التي اخضعت بالقوة، او تلك التي دخلت في تحالفات فيما بينها في إطار القبائل القوية. وبذلك وجدت قبائل قوية متراكمة، تضم بطوناً وأفخاذًا. وترتبط بروابط المصالح الاقتصادية والإجتماعية المشتركة. وبذلك اكتسب مفهوم القبيلة مضموناً يختلف عن مضمون القبيلة

^{٩٠}. تاريخ العرب في الإسلام، بغداد، ١٩٦١، ص ٥٥.

^{٩١}. ديفل نيلسن وأخرون، التاريخ العربي القديم، ص ١٣٠.

السابق، الذي كان يقوم على رابطة الدم).^{٩٢} ويعمل سلطان احمد عمر ذلك بأن حياة الزراعة والاستقرار وفوائدها الإقتصادية قد جذبت اغلب الجماعات القبلية^{٩٣} مما اكسب القبيلة مضموناً اقتصادياً واجتماعياً مختلفاً عن السابق^{٩٤} مما ادى الى ظهور الدولة.^{٩٥}

إن توحد القبائل وتتوسيع السيادة الاسرية قد ساعدها على الارساع في تفكك النظام القبلي. وبدأ التذمر يدب بين صفوف معدمي القبيلة من ظهور بوادر عدم المساواة، من استئثار متنفذى القبائل بمقاييس لوحدهم. وقد عبر شاعر جاهلي عن ذلك خير تعبير. فقد فطن إلى إستئثار رئيس العشيرة بمقاييس الغزو، بينما المفروض من وجة النظر المنشاعية ان توزع بين افراد العشيرة بالتساوي. فيكشف بيت شعر واحد بذلك الشاعر عن مر الشكوى من جسامته الفروق وعن مدى سخط الافراد من تفرد استقراطي القبيلة بالنفوذ والرأي وتوزيع الغنائم والاستئثار بها دون الآخرين. حيث يخاطب الشاعر شيخ القبيلة بقوله:

لَكَ الْمَرِيعُ مِنْهَا وَالصَّفَايَا

وَحِكْمَكَ وَالنَّشِيطَةَ وَالْفَضُولُ

فيقييد هذا البيت بان رئيس القبيلة كان يحتجز لنفسه الربع من كل غنيمة مع ما يصطفيه لنفسه منها، بالإضافة إلى ما يناله بحكم رئاسته. وأما النشطة فهي كحل ما يستحوذ عليه عرضاً، بطريق الصدفة ولم يكن

^{٩٢} نظرة في تطور المجتمع اليمني، بيروت، ١٩٧٠، ص. ٩.

^{٩٣} ن.م، ص. ٩.

^{٩٤} ن.م، ص. ١٠.

^{٩٥} ن.م، ص ١١.

مقصود بذاته، فهو للرئيس من دون منازع، واما الغضول فهو ما لا تقبل قسمته [أي الباقي خارج القسمة] فهو من حصة الرئيس ايضاً.

للتستثنى القبائل العربية من عملية الانحلال والتفسخ جراء التصدعات الداخلية والمنازعات بين افراد القبيلة الواحدة، طالما يحصل ترکز وسائل الانتاج بيد الاسر القوية في القبيلة وتفاوت في التوزيع الامر الذي يتهم بموجبه قيام صراعات بين افراد مجتمع القبيلة الواحدة المتباغبين، بين السادة المالكين المتنفذين وبين المعدمين المستضعفين [الذين اطلق عليهم: العامة، السوق، الصعاليك، المولى.. الخ]، والى ضرورة انشاء اعراف وتقاليد ونظم تحدّ وتلجم هذا التضاد لصالح السادة المغليبين. كما عبر عن بعضها بيت الشعر الجاهلي.

لقد كان ظهور الملا، وهم عليه القوم والاشراف وذوو الشأن منهم، في المجتمعات اليمانية المتطورة منذ أقدم العصور. وكانوا -كما يشير د. عمر فروخ- أصحاب الحل والربط والاغنياء، وهم السادة والكبار، وهؤلاء هم الطبقة التي تكون حول الملك يأخذ الملك بأمرهم ويقتدي القوم [يقصد عامة الناس. ح.ق. العزيز] بهم او يخضعون لنفوذهم.^{٩١}

كما ظهروا، فيما بعد، في الحجاز، وهم الذين اطلق عليهم بالملأ الملكي، الذين كانوا يتعالون على عامة الناس «قالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين-سورة سباء-٣». وغير خافٍ ان الصراعات الأساسية، التاجمة عن تركز وسائل الإنتاج والتفاوت في التوزيع في المجتمع العربي القديم، أتّما كانت تخدم بين الطبقات المالكة والمعدمة. ولكن، الى جانبها، كانت تقوم منافسات وحتى خصومات بين شرائح المجتمع العليا، على النفوذ ومن اجل الاستحواذ، بعد انفراط روابطها القبلية. ففي قبيلة قريش، مثلاً، امتدت الصراعات والمنازعات والخلافات داخل القبيلة ذاتها، اي بين افرادها،

^{٩٦} تاريخ العجاهلية، بيروت، ١٩٧٤، ص ١٥٢.

لتشمل حق الاسر الموسرة فيها، وذلك لما توسع تبادل قريش التجاري، نتيجة انحسار التجارة اليمانية، بسبب فقدانها استقلالها السياسي وتدحرج شؤونها الداخلية الاقتصادية ولاسيما الزراعية، بعد اهمال المنشآت الاروائية، واضطراب حبل الامن وهجرة القوى المنتجة منها، وبفضل نجاح قريش في عقد الاتفاقيات والمحالفات [الإيلاف، وتنسبي العجال ايضاً] مع البلدان المجاورة: مع الشام [الغساسنة] وال العراق [المناذرة] واليمن والحبشة^{٩٧}، ومع القبائل المتنفذة: مع تميم^{٩٨} وكندة [حيث أخذوا عنها النسي]^{٩٩} وغيرها. [والنسى هو أضافة شهر «تأخير» كل أربعة سنوات إلى شهرهم القمري لتتطابق الأشهر القمرية مع فصول السنة، من أجل تثبيت مواسم الحج والأسواق الموسمية والرحلات الفصلية]. ويعزى الفضل في نجاح قريش في توسيع تبادلها التجاري إلى مساعي الأخوة الاربعة: هاشم [اسمه الحقيقي عمرو]، المطلب، نوقل، وعبدشمس، أبناء عبد مناف، ولاسيما هاشم، الذي يعزى إليه الدور الكبير في عقد الكثير من المحالفات وتنظيم الرحلات التجارية الموسمية [الفصلية]^{١٠٠}.

لقد قامت، بعد تحقيق تلك النجاحات، صراعات مكشوفة وخفية على الرعامة والنفوذ، كذلك التي بين هاشم وبين ابن أخيه أمية بن

^{٩٧} د. حسين قاسم العزيز، *موجز تاريخ العرب والإسلام*، بيروت، ١٩٧١، ص ١١٣.

^{٩٨} انظر: كستر، م. ج.، مكة وتميم (مظاهر من علاقاتهم)، ترجمة: د. يحيى الجبوري، بغداد، ١٩٧٥.

^{٩٩} جونار اولندر، ملوك كندة من بني آكل الموار، ترجمة: د. عبدالجبار المطلي، بغداد، ١٩٧٣، ص ٤٧.

^{١٠٠} د. حسين قاسم العزيز، *موجز*، ص ١١٣.

عبدشمس،^{١٠١} وما تبعها وكمتداد لها من تكتل البيوتات القرشية، الهاشمية والأموية، والتي افضت إلى عقد حلفي: الفضول [من الفضل: اي البقية من كل شيء، وهو الأرجح] بين الهاشميين وحلفائهم من جهة،^{١٠٢} ولعقة [أو لعقة: جمع لاعق] الدم بين الأمويين وحلفائهم من جهة أخرى. يحلو للبعض اعتبار حلف الفضول من أولى محاولات الوحدة القومية، رغم المشاعر القومية لا يمكن ان ترقى الى تلك العهود. كما أنَّ هذا الحلف لا يتعدى عن كونه تحالفًا اسروياً ضدَّ أسرٍ اخرى قوية. يقول ابن الأثير عن الحلفيين: «وعقد كل طائفة بينهم حلفاً مؤكداً على أن لا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضاً ما بل بحر صوفة».«^{١٠٣}

لقد افضت تلك التكتلات والخصومات الى صراعات دامية في أحباب لاحقة، شغلت حيزاً غير قليل من تاريخ المسلمين، وتعدد اسباب اغليها الى تعارض مصالح الفئات المتصادمة.

فتحت عملية انحلال نظام العشيرة القبلي وتفككه الباب على مصراعيه للصراعات الدموية على الرعامة وللانفراد باستغلال أرض العشيرة العامة، أرض الحمى، استغلالاً خاصاً. نورد على سبيل المثال لا الحصر، الصراع الذي قام بين كليب {وائل ربيعة} وبين جساس بن مزة، وما نجم عنه من صراعات

^{١٠١} المقريزي، تقى الدين احمد بن علي، النزاع والتخاصل فيما بين بني أمية وبني هاشم، النجف، ١٩٦٦، ص.٧.

^{١٠٢} ابن هشام، ابو محمد عبد الله بن هشام بن ابيو الحميري، المسيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا، ابراهيم الباري، عبدالحفيظ شلبي، القاهرة، ١٩٣٦، ١٤١/١.

^{١٠٣} ابن الأثير، عزالدين ابوالحسن علي بن محمد الشيباني، الكامل في التاريخ، بيروت، بالأوقسيت عن طبعة بريل ١٨٦٧، ١٩١٥، ٤٥٤/١.

لاحقة، كان بعضها ذا سمة ثانية. وتعرف حروفيها الضروس، التي اقامت بالأساس بين قبلي بكر وتغلب، بالبسوس.^{١٠٤}

وبتطور الملكية الالسيما وتوسيع التبادل اشتدت عملية انحلال وتفكك العشيرة البدائية كما أخذت مساواة المشاعية البدائية المكان الى عدم المساواة الاجتماعية وظهرت أولى الطبقات: العبيد ومالكيهم. وكما أسلفنا القول فإن المجتمعات المشاعية غير مستثناء من عملية التحول الى مجتمعات طبقية إذا ما اشتدت فيها عملية تفكك العشائر إثر تطور الملكية الالسيما ومايبعها من انفراط رابطة القرابة وظهور الطبقات المتخصصة، وهي بهذا تشارك المجتمعات العالم القديم بملامح عالمية - تأريخية واحدة وأن تباينت معها في التفاصيل وبنسبة العبيد في الاستثمارات الالسيما. إن استثناء مجتمع ما من التحول، في حالة توفر الشروط، يعني قبول فكرة خاطئة ببقاء ذلك المجتمع بحالة سكونية [ستاتيكية] من دون تطور وهذا شئ محال. وخير عاصم من التطبيق الآلي لقوانين تغير المجتمعات ومن النظرة المتصرفه للمبادئ النظرية هو التشخيص السليم للمتغيرات وفق اسمن العام والخاص معًا من القوانين الطبيعية للتغيير بالاستناد على معطيات الحقائق التي توفرها المصادر التاريخية.

فالمصادر والمراجع العربية تردد كثيراً اخبار العبيد ومالكيهم وذكر العلاقات القائمة بينهما، حيث تؤكد وجود العبيد وقيام العلاقات العبودية في بعض المجتمعات العربية المتطرفة تاريخياً [عن الجانب النظري ينظر: كونراد،^{١٠٥}

^{١٠٤}. ن.م.، ١٥٣٩-٥٢٣/١.

^{١٠٥}. إ. كونراد، *الغرب والشرق* (مقالات بالروسية)، الفصل الثالث منه بعنوان: حول تشكيلة العبودية، ص ٥٢٣.

دياكونوف،^{١٠٦} د. حكمت قفاجمي^{١٠٧}] كما في اليمن والأنباط وتدمر، بل وتشير إلى استخدام العبيد بشكل بارز في مناطق أخرى من شبه الجزيرة وإن لم يؤد استخدامهم إلى ظهور تشكيلة العبودية فيها. يذكر د. جواد علي: «وقد تكددس في مكة عدد كبير من الأحابيش أي الرقيق الأسود المستورد من إفريقيا من الجبشا ومن غيرها. وقد عُرف هؤلاء بالاحابيش، لصلة الجيش بجزيرة العرب قبل الإسلام بزمن طويل، ولحكم الجيش لبقعة كبيرة من الساحل المقابل للبلاد العربية، ولكونهم المستوردين لهؤلاء إلى أسواق النخاسة في ساحل إفريقيا وفي جزيرة العرب، وقد استعمل هؤلاء في أكثر العرف الشاقة والأعمال المرهقة ونيطت بهم الحراسة. وخدمة أسيادهم.. وقد جلب الأرقاء من الشمال من العراق ومن سوريا ومن أوروبا». ^{١٠٨} وينظر د. عمر فراغ: «لقد كان الرق منتشرًا انتشاراً واسعاً في الجاهلية العربية انتشاره بين الأمم القديمة كلها. كان الأرقاء عماد الحياة الاقتصادية في الأعصر القديمة وكانت مصادره العرب والشراء والنبي». ^{١٠٩} هناك من يرى بأنَّ أطلق (الاحابيش) على العبيد غير دقيق لأنَّ الاحابيش قبائل عربية معروفة والأصح إستعمال الأحباب. غير أن الاستطراد في النقاش حول هذا الاختلاف في التسمية، ليس مجاله الآن ولكن المهم أن نؤكد على أنَّ المصادر والمراجع العربية تشير إلى وجود العبيد واستخدامهم في الحجاز.

^{١٠٦} الملامح الأساسية للمجتمع القديم، مجلة دراسات عربية، ١٣١-١٢١/٤.

^{١٠٧} تطور إشكال الملكية، ص ٢٣٧-٢٣٢. كذلك الافادة من مناقشة الاستاذ صالح حسين الرووح في كتابه: العبيد في العراق القديم، بغداد، ١٩٧٧.

^{١٠٨} تاريخ العرب في الإسلام، ص ٥-٢٥، ويقول د. عمر فراغ عن الأحابيش: «والاحابيش هؤلاء جماعة منهم بنو الحارث بن عبد مناف بن كنانة وبنو المصطلق من خزانة وبنو الهون من خزيمة. والذي يبدو انهم كانوا مزيجاً من العرب والجيش والزنوج، وكانوا ذوي يأس في القتال». تاريخ الجاهلية، بيروت، ١٩٦٤، ص ١١٣.

^{١٠٩} تاريخ الجاهلية، ص ١٥٤.

في دراسة ممتعة، عن الرقيق ومجالات استخدامهم في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، الموسومة بـ*القيان والغناء في العصر الجاهلي*^{١١٠}. للدكتور ناصر الدين الأسد، المعتمدة على شواهد وأمثلة غزيرة منتقاة بدقة وعناية من مصادر متعددة كثيرة ومعروضة بأسلوب أدبي شيق، تتوضح ضخامة استخدام الرقيق في شتى الميادين. وعلى رغم من أن هذه الدراسة لم تعنى بالعبودية كتشكيلة، فلم تتعمق بالشروط الأساسية والأسباب الجوهرية الاقتصادية والإجتماعية المؤدية بالضرورة إلى ظهور التشكيلة، إلا أنها مع ذلك قد تناولت العبودية كنظام، حيث عاجلت تسخير العبيد وأرغامهم على أداء كافة الأعمال، بما فيه البغاء^{١١١}، وتطرقت إلى ظروف استرقاق العبيد، بما فيهم العرب^{١١٢}، ومصادر الحصول عليهم، ومنها الحروب والغزوات^{١١٣}. يقول د. ناصر الدين أسد عن أهمية دور العبيد في المجتمع العربي السابق للإسلام: «وأول ما يلفت الدارس في العصر الجاهلي هو أهمية الرقيق في الجاهلية وخطوره. ومرد تلك الأهمية إلى وجوبين:

الوجه الأول: كثرة الرقيق من العبيد والأماء كثرة باللغة، جعلت الرقيق طبقة اجتماعية كبيرة لها معلمها المميزة وسماتها الواضحة.

والوجه الثاني: خطر الأعمال التي كانت توكل إلى هذه الطبقة وتنوعها تنوعاً واسعاً، حتى ليكاد يخيّل إلى الباحث في هذا العصر أن الرقيق هم قوام العمل في **الحياة الجاهلية**». ^{١١٤} ويخلص د. ناصر الدين أسد إلى أن المصادر التاريخية

^{١١٠} القاهرة، ط. ٢، ١٩٦٨.

^{١١١} ن. م.، ص ٣٩-٤٠.

^{١١٢} ن. م.، ص ٣١، حيث كتب كل أولئك سجي عربي خالص، ومن القبائل العربية نفسها التي كانت تشن الغارات والحروب بينها، فتسبي نساوها وينتارق رجالها.

^{١١٣} ن. م.، ص ص ٣١، ٣٦.

^{١١٤} ن. م.، ص ٣٠.

والادبية قد عبرت بصور شتى وصيغ مختلفة عن كثرة العبيد وتوسيع الاعمال المتنوعة المناطة بهم، فيذكر بتركيز مكثف باعر ودقيق: (وهذا الوجهان من الوضوح والجلاء بحيث لانحتاج الى كبير عناء في استقصاء النصوص وأيراد الشواهد لتبنيهما، وإنما تغنينا اللحمة العابرة والإشارة الموجزة، وأي دليل على كثرة الرقيق في الجاهلية ابلغ مما يطالعنا في كتب الادب والتاريخ عامة، وما يتعلق منها بأيام العرب لاسيما. فإننا لانكاد نخطو في قراءة أيام العرب حتى تلفنا عبارات تفيد السي والاسترقاق، فما اكثر ما يرد فيها من أن "المغيرين اصابوا نسوة والعبي خلوف، وأنهم (استاكوا التعم وأصابوا نساء)، وأنهم (سبوا نساء الحي)، وأنهم (أسروا سبياً كبيراً)"^{١١٥})

ومن الجدير بالذكر في صدد الحروب والاسر أن أغلب القبائل العربية كانت في بدايتها تقتل اسراها، ثم، نتيجة التطورات الحاصلة بدرجات متفاوتة بين القبائل حسب ظروفها، أخذ المجتمع العربي المتتطور يستقي الاسرى للأفتداء او للبيع او للخدمة. وهذه الحالات يمكن ملاحظتها في تاريخ العرب القديم. يذكر محمد عبد القادر بافقية عن احداث اليمن القديم: «وبلغ قتلهم ثلاثة آلاف والسبي منهم ثمانية الاف»^{١١٦}، وأشارى عبيد بعض كبار الأقطاعيين،^{١١٧} ويلفت النظر أيضاً عمليات السي الكبيرة التي تتم في أعقاب الغزو،^{١١٨} مصادرة الارضي باسم الملك... استخدام السكان كأجزاء او مستأجرين فيها».^{١١٩}

^{١١٥} ن.م، ص ٣٠.

^{١١٦} تاريخ اليمن القديم، بيروت، ١٩٧٣، ص ٦٧.

^{١١٧} ن.م، ص ٧٥.

^{١١٨} ن.م، ص ٧٧.

^{١١٩} ن.م، ص ٧٨.

ويرى د. ناصرالدين أسد، أن قتل الاسرى يعود في الغالب للثأر، والاحتفظوا بهم طمعاً في الفدية، لأنه «مهما تكن أسباب العروب التي ثارت في الجاهلية فإن غايتها كانت الاستيلاء على أكبر قدر من الغنائم والاسرى». ^{١٢٠} ويعلل ذلك: «بأن الرجال المشتركون في الاغارة كانوا يطمعون دائمًا إلى أن يأسروا نساء أعدائهم». ^{١٢١} ولكن الثأر لا يبعد عن كونه التبرير الملاطف لممارسة القتل الوحشي. أما عملية قتل الاسرى مارستها الشعوب، فهي بقايا ممارسات قديمة ترتبط بعدم القدرة على الإفادة من عمل الاسرى. وتلاحظ في كافة الاخبار التي حول حروب العرب - الأيام ^{١٢٢} - حالات قتل الاسرى وحالات الأبقاء عليهم، تبعًا لحالات التطور: فأبن الاثير يذكر في الكامل عن يوم الرقم: «... قال أبو عبيدة وجعل الاشجعيون يذبحون كل من أسروه من بين عامر لوقعة كانت اوقعها بهم بن عامر»، ^{١٢٣} كذلك ينقل عن أبي عبيدة، حول يوم الفرات، قوله «أغار المثنى بن حرثة الشيباني، وهو ابن اخت عمران بن مرة على بي تغلب، وهم عند الفرات، وذلك قبيل الإسلام، فظفر بهم فقتل من اخذ من مقاتلتهم وغرق منهم ناس كثير في الفرات وأخذ أموالهم وقسمها بين أصحابه». ^{١٢٤} وينقل ابن الاثير عن المفضل الصبي عن يوم بارق [وهي بأرض السواد = في العراق]: (وكان من أعظم الأيام عليهم [علي تغلب] «قتل الرجال ونهب الأموال وسي العريم»). ^{١٢٥} من ناحية أخرى نرى أبو عبيدة يذكر في كتابه " أيام العرب قبل الإسلام "، عن يوم خزار مailyi: «وكان من حديث خزار، وكان يعقب يوم السلان، أن ملكاً من ملوك

^{١٢٠} القیان والغناء، ص ٣٦.

^{١٢١} ن.م، ص ٣٦.

^{١٢٢} كتاب أيام العرب لابي عبيدة، كذلك الكامل في التاريخ لابن الاثير، ٢/١، ٦٨٧-٥.

^{١٢٣} الكامل، ١:٦٤٣.

^{١٢٤} ن.م، ص ٦٤٧/١.

^{١٢٥} ن.م، ص ٦٤٨/١.

اليمن كانت في يده اساري من ربعة ومضر وقضاء»^{١٢٦} ونقل ابن الاثير هنا النص عن أبي عبيدة في الكامل.^{١٢٧} ويستشهد د. ناصر الدين اسد على ضخامة عدد العبيد الذين هم من أسرى الحروب بما لدى ذي الكلاع الاصغر، سميغع بن ناكور بن عمرو بن يعفر بن ذي الكلاع الاصغر، ابو شراحيل الحميري، من اقيال اليمن المعروفين بالأذواء،^{١٢٨} المتوفى ٦٥٧هـ/٣٧٤م، حيث كتب عنه: «وروى ان سميغع بن ناكور الكلاعي وقد على عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وله أربعة الاف اهل بيت قن من العرب مماليك أسرهم في الجاهلية، فسأله عمر أن يبعهم إياه، فلما راح قال: قد أعتقهم لله».«^{١٢٩}

إن روایات استحاء ملوك اليمن للاسرى والاحتفاظ بهم على قيد الحياة، الواردة لدى أبي عبيدة وفي الكامل لابن الاثير ومانقله د. ناصر الدين اسد عن النقائض:^{١٣٠} تتفق مع ماذهب اليه محمد بافقية، الذي اعتمد على النصوص اليمنية القديمة، التي تم نشرها من قبل المستشرقين، وهي تؤكد حقيقة ان الابقاء على حياة الاسرى لاتحصل الا في مجتمعات باللغة نسبة معينة من التطور.

^{١٢٦} ن.م، ص ٣٧٩.

^{١٢٧} ن.م، ٥٢٠/١.

^{١٢٨} وأشار خيرالدين الزركلي، الذي نقلنا عنه ترجمة سميغع بن ناكور الكلاعي، بأن المؤرخين مختلفون في ضبط اسمه واسم أبيه، متفقون على تعريفه بذي الكلاع (وقد اعتمد الزركلي على: القاموس: مادة كلع، والمحيبر، ٢٢٣، والاصابة، الترجمة: ٢٥٠، وتهذيب ابن عساكر ٢٦٦/٥، وجمهورية الانساب ٧، ط.٣، ٢٠٥/٣)، الاعلام، ٤)، لقدره الزركلي من ملوك اليمن وقلنا عنه من الاقيان وذلك ادق.

^{١٢٩} القيان والغناء، ص ٣١.

^{١٣٠} ط. برول، ٤/١، ١٩٠٥، انظر: القيان والغناء، ص ٣١، هامش ٣.

ومن هنا تأتي سهولة علة اختلاف الموقف من الاسرى بين قتلهم او استحيائهم، حيث يرتبط بالتطور -كما ذكرنا آنفاً- ان قتل الاسرى، والذي مارسته قديماً غالبية الشعوب في بدايتها، ومنها القبائل العربية، ما كان ليحصل لديها، بشكل عام، لو كانت تلك الشعوب تمتلك اية امكانية تقنية للأفادة من العمل العبودي. بينما التطورات المبكرة في اليمن واللاحقة لدى سواها قد جعلت المجتمعات العربية المتطرفة قادرة على الافادة من العمل العبودي، ولهذا اخذت تبقى على أرواح الاسرى وتحولهم الى عبيد. ولهذا الحالة نظائرها في تاريخ الشعوب، فلقد استنتاج بليخانوف، من آراء راتزل، حول اختلاف موقف قبائل الماساي الرعوية في شرق افريقيا من الاسرى عن موقف مجاوريهم من قبائل الفاكامبو الزراعية حيث الأولى تقتل اسراها بينما تبقى الثانية عليهم، استنتاج بليخانوف: «من أن الماساي لا يملكون امكانية تقنية للأفادة من العمل العبودي ولهذا يحولون الاسرى الى عبيد». ^{١٣١} وبما ان القبائل والمجتمعات العربية السابقة للإسلام ليست على درجة واحدة من التطور لهذا تباينت مواقفها من الاسرى بين الفتك بهم او استحيائهم، اما للأفتداء او لاستخدامهم كعبيد. والحالة الأخيرة تقررها درجة تطور القبيلة الأسرة. ذلك لأن ظهور العبودية كما يشير بليخانوف- يتطلب مسبقاً تحقيق درجة معينة في تطور القوى الإجتماعية، درجة تسمح باستغلال العمل العبودي. ^{١٣٢}

كان من أبرز نتائج التفاوت في التوزيع هو انبعاث الفوارق الطبقية، حيث انقسم المجتمع الى طبقات متضادة وأحتاجت المستغلة السائدة جراء ذلك الى سلطة حاكمة لتفرض وجودها وسيطرتها ضد الطبقة المستغلة. يرى انجلز ان

^{١٣١} التضاريا الأساسية، ص ٤٤.

^{١٣٢} ن.م، ص ٤٤.

الدولة التي توصلت إليها بادئ الأمر الجماعات البدائية المرتبطة إلى القبيلة نفسها فقط من أجل المحافظة على مصالحها الجماعية ومن أجل الحماية ضد الأعداء الخارجيين، لتكسب من هذه المرحلة [انقسام المجتمع إلى طبقات. ج.ق. العزيز] فصاعداً بما لا يقل عن ذلك من القوة. وظيفة المحافظة بالقوة على شروط وجود الطبقة الحاكمة أو سيطرتها ضد الطبقة المستعبدة.^{١٣٣}

لاشك أنَّ مؤسسات الدولة من محاكم وسجون وقوانين شرطة وجيوش مؤشر على انتقال المجتمع إلى مرحلة أعلى على تقسيمها مصالحة المستثمرين، لأنَّ توفر هذه المؤسسات وتطورها الدليل على ارتفاع حدة التناقضات في المجتمعات الطبقية وعلى أنَّ التراكم الكمي قد تحول إلى تغير كيفي، أي أنَّ النظام الجديد للمجتمع قد ظهر بكامل معالمه وليس ببعض عناصره. وبعكسه يدل الاحتفاظ بالمؤسسات والأعراف القبلية فقط على تخلف المجتمع وان عملية الاستقطاب الطبقي لم تنته بعد، فتبدأ بعض عناصر النظام المُقبل بالبروز كنواتات -ظهور الاستقراطية القبلية المتنفذة -الملا المكي مثلاً.

وعلى ضوء ما تقدم يمكن تفسير أسباب ظهور الدول في أماكن معينة من شبه جزيرة العرب [في اليمن] موغلة في القدم، وتعد قيامها في أماكن أخرى حتى ظهور الإسلام. وإنْ ظهرت، فهي على شكل حكومة مدنية [Polis]، غير متطورة.. كما في مدن الحجاز، أو على شكل إمارة كبيرة، حكم قبلي واسع [الاستقراطية القبلية] - كما في إمارة كندة - في وسط نجد. وغير خافٍ أنَّ اختلاف أسلوب ودرجة تطور المدن [المستقررين -المتحضررين] عن الريف المشاعي [الرحالة -البدو] يترك بصماته في تباين سير تطور الهيئات الحاكمة في كلِّ من مجتمعات المدن المتقدمة والمجتمعات المشاعية. لقد عالج ماركس وانجلز هذه الاختلافات بأسهاب وربطها بشكل دقيق باختلاف نمط الإنتاج [تجدد التأثير المكثف في كتاب: تطور الشكل

.^{١٣٣} نتي دوهريك، ص ١٧٩

الملكية للدكتور حكمت قفلجملي^{١٣٤}. إن اختلاف أسلوب تطور الهيئات الحاكمة والمؤسسات القائمة بين المدن والمشاعر هو أحد أبرز الفروق بين الدولة والقبيلة. وعلى الرغم من وجود فروق واضحة بين الدولة والقبيلة يأخذ بها جمهور العلماء إلا أنها نجد أصراً عجيباً من بعض الباحثين على نكران تلك الفروق. فرئيس المجمع العلمي العراقي الدكتور صالح احمد العلي يعتقد بأن القبيلة تستوفي كافة مقومات الدولة سوى الأرض المعينة المحددة^{١٣٥}. بينما يعتبر عضو المجمع المذكور الدكتور جواد علي الاعراف والمؤسسات القبلية القائمة بمثابة دولة وحتى في حالة عدم وجود أرض محددة للقبائل. فنراه يقول: «أقصد بالدولة الشعب والحزب أو الجماعة الحاكمة له في أرضه وتحت سلطاته وفي حيازته وملكه. لذلك لا اشتراط في هذه الدولة أن تكون دولة كبيرة كالدولة الرومانية أو اليونانية أو الساسانية، فقد تكون الدولة حكومة قرية مثل: يثرب أو مكة، وقد تكون حكومة قبيلة، وقد تكون أكبر من ذلك وأوسع مثل دولة العيرة ودولة الغساسنة ودول اليمن. فلا علاقة أذن للكبر أو لصغر الحكومة بمفهوم الدولة بنظري، فكل حكومة جاهلية مستقلة، هي عندي مع شعها أي التابعين لها دولة صارت أم كبرى. والشعب في الجاهلية عند الجاهليين، هو القبيلة. فالقبيلة هي أصل الدولة وبنواها، وتقوم على رابطة الدم، أي على فكرة أن القبيلة هي من صلب رجل عاش حقاً ومات، وإن افرادها من هنا يرتبطون ببعضهم بروابط الدم، أي أن بينهم قرابة وصلة رحم. أما وطن القبيلة فالأرض التي نشأت فيها، ثم الأرض التي هي عليها، فمن القبيلة ومن أرضها، تكونت دولتها وعلى رأسها سيد القبيلة». ^{١٣٦} فهنا بكل بساطة يلغي د. جواد علي كافة الفوارق بين الدولة كمجتمع طبقي [كما يلاحظ هو بالنسبة لدول

^{١٣٤} تطور اشكال الملكية، ص ١٠٦-١٦١.

^{١٣٥} المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت، ١٩٧٠، ٥/١٧٨.

^{١٣٦} ن.م، ص ٥/١٧٩.

اليمن^{١٣٧}] وبين القبيلة كمجتمع مشاعي، كذلك وعلى الرغم من عدم وجود أرض محددة للقبائل، ولا سيما الرحالة منها، فإنَّ د. جواد علي يصرُّ على اعتبار القبيلة دولة. ولاشكَّ أنَّ أقراره هذا سيقوده إلى مأزق حرج ويخلق له صعوبات جمة من أجل إيجاد مبرر معقول يحمله على هذا الخلط العجيب بين الدولة، ذات العناصر المعروفة، وبين القبيلة، وعلى انفراده بتصور الهيئات أو المجالس القائمة الحاكمة والمشيخات المترعمة في القبائل المشاعية على أنها حكومات دول.^{١٣٨}

وحتى إذا كانت النصوص الآشورية، التي تخص الملوك الآشوريين: شيلمننصر الثالث (٨٥٨-٨٢٤ ق.م.)، وتجلات بلاسر الثالث (٧٤٤-٧٢٧ ق.م.)، وسخاريب (٦٦٨-٦٤١ ق.م.)، اسرحدون (٦٦٨-٦٤١ ق.م.)، وأشوريانبال (٦٣٣-٦٣٣ ق.م.)، والنصوص البابلية الحديثة (الكلدانية) في عهد الملك الكلداني نبونيدس [نبونيد]، ونبوناخيدي [نبوناخيدي]، قد ذكرت، أحياناً، لقب ملك (كلمة شار تعني ملك باللغات الآكديية والبابلية والآشورية. أما في اللغة السومرية فأنَّ كلمة لوكل هي التي تعني الملك) لامراء عرب، حيث اطلقت عليهم تسمية ملكو [غير أنَّ كلمة ملكو تعني باللغات الآكديية والبابلية والآشورية، أمير] في مناطق مختلفة: دومة الجندي، وتيماء وغيرها [دول هذه النصوص انظر: د. طه باقر،^{١٣٩} ورضا الهاشمي،^{١٤٠} فإنَّ تلك النصوص إنما تذكرون في الأغلب الأعم بلقب أمراء، كال الأمير جندبو العربي، مثلاً، وبينما أنَّ الآشوريين والكلدانين ما كانوا مهتمين كثيراً باللقب هؤلاء الأمراء البعيدين: [انظر: ملاحظة الدكتور هومل بالنسبة لأطلاق لقب ملك على كرب إل

^{١٣٧} انظر: /مفصل، ١٧٩/٥.

^{١٣٨} مقالنا: التطورات الاقتصادية، مجلة كلية الاداب، ٢١٤/١٧.

^{١٣٩} مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، بيروت، ط١، ١٩٧٣، ص. ٥٠٤، ٥٠٥، ٥٢٠، ٥٥٤-٥٥٦.

^{١٤٠} العرب في ضوء المصادر المسماوية، مجلة كلية الاداب، شباط، ١٩٧٨، ٦٣٩-٦٨٣/٢٢.

في نص آشوري من عهد سنحاريب، بينما كرب إل من المكارب اليمانيين.^{١٤١} ولربما حصل الالتباس عند قراءة (ملكو) من قبل الباحثين وظنوها تعني ملكاً خلاف ما هي باللغات الآكدية والبابلية والأشورية حيث تعني أمير- كما أسلفنا. لقد انتبه د. عمر فروخ، عند تطرقه إلى النصوص الأشورية التي أشارت بصراحة إلى العرب، إلى أن لفظة الملك الواردة لا تعني الملكية ... إن اللقب "ملك العرب" لم يكن يعني أكثر من رئيس البدو أو شيخ القبيلة.^{١٤٢}

لقد ذكر النسابة والمؤرخون العرب والمسلمين كلمة (ملك) وأطلقوها على بعض رؤساء العشائر الكبار. لكن ذلك تجاوز ولابير استخدامه حالياً، فالماستشرقين: البرايت، ريكمنس، غلامس، فليبي، هومل، رودوكاناكيس، كروهمن، هارتمن، نولدكه، وأخرين غيرهم، الذين دونوا في المؤلفات الحديثة قوائم مملوكين وحضرموت وقبطان وأمراء العصاسنة والعبيرة، استنساخاً عن القوائم القديمة، لم يطلقوا لفظة (ملك) على رؤساء العشائر والأمارات الواسعة.^{١٤٣} بل أن جونار أولندر، مؤلف كتاب "ملوك كندة من بني أكل المرار،"^{١٤٤} ويدرك مراراً أمير وإمارة في مؤلفه حينما يتكلم عن الأمراء الكنديين وإمارتهم،^{١٤٥} مثلما يذكرهم بلقب ملك في أماكن أخرى من كتابه.

نخلص من كل ذلك إلى أنه على الرغم من ورود كلمة (ملك) ^{١٤٦} تطلق في الجنوب أو في الشمال {على أمراء كنده مثلاً} على رؤوساء القبائل فإن ذلك

^{١٤١} ديات فيلسن، التاريخ العربي القديم، ص ٧٦.

^{١٤٢} العرب في حضارتهم وثقافتهم، ط٢، ١٩٦٨، ص٣٨.

^{١٤٣} مقالنا: التطورات الاقتصادية، ٢١٤/١٧.

^{١٤٤} ترجمة: د. عبد الجبار المطلابي، انظر هامشنا رقم ٦٧.

^{١٤٥} فعلى سبيل المثال في الصفحات: ٣٩، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٩٤، ٩٦.. الخ.

١٤٦ - انظر: المفصل، ١٩٢/٥

لابير تسمية الهيئات القائدة والحاكمة ورؤوساء القبائل في المجتمعات المشاعية بالملوكية.

فأمارة كنده، وعلى ضوء ماوصل اليها من معطيات المصادر، وهي ضئيلة لحد الان، قد اختلفت في تركيب هيئتها الحاكمة [بدون جيوش منظمة وبدون شرطة وسجون ومحاكم] عن حكومات اليمن والانباط وتدمير والغساسنة والمناذرة كما اختلفت عن حكومات مدن الحجاز، ولهذا يتعدى اعتبار حكامها ملوكاً واعتبارها دولة ليس لافتقارها لعاصمة معينة وحدود محددة فحسب ولكن لتأخر تطورها الاجتماعي نتيجة ضعف انتاجها الاقتصادي واستمرار سيادة النمط المشاعي فيها. إمارة كنده استمرت القبيلة [الشعب] القوية المتنفذة والسائلة على مجموعة من قبائل وسط نجد الأضعف منها.

إن الحكومات لا تقوم، كما هو معلوم، الا في مجتمع طبقي. وقد لاحظ د. جواد علي نفسه ان حكومات الجنوب العربي قامت في مجتمع طبقي.^{١٤٧} فهو يقول: «ويفضل عنور الباحثين على كتابات تعود إلى عبود مختلفة من تاريخ العربية الجنوبية استطعنا الالام بعض الالام بشئ من نظم الدولة في تلك الاراضي وفي جملتها طرق الحكم فيها ونفوذ رجال الدين وأصحاب الأرض والحياة الاقتصادية التي جعلت العربية الجنوبية مجتمعاً مكوناً من طبقات، يسره الحكم ورجال الدين وأصحاب المال والأرض». إن هذا التفهم لواقع الدولة في المجتمع الطبقي وقيامها فيه يتعارض ولا يفسح المجال، بالطبع للتوهם بقيام دولة في القبيلة المشاعية ابداً. فنجد ول دبورانت، بعد أن يستعرض آراء الفلاسفة والمؤرخين البرجوازيين (نيتشه ليتسروورد، اوينبمر، رانستهوفر، جمبلوвш، وسمبر)، الذين يشرون إلى سيطرة جماعة او قبيلة قوية على عدة قبائل بالعنف، [هذا الاخضاع

^{١٤٧} ن.م، ص ١٧٨/٥ - ٩.

^{١٤٨} ن.م، ص ١٧٩/٥.

العنيف إنما يقع عادة على جماعة زراعية مستقرة، من قبيلة من الصائدين والرعاة، والأكره، يستخلص: بأن «قيام الدولة يقتضي تغييراً في مبدأ التنظيم الاجتماعي من أساسه فيكون المبدأ هو أن يكون الحكم لمن يسيطر بدل أن يكون لذوي القرى كما كانت القاعدة السائدة في المجتمعات البدائية، وإنما يكون نظام السيطرة في انجح حالاته اذا ما ربط عدة جماعات طبيعية مختلفة، بعضها

^{١٤٩} «بعض برباط يفيدها من نظام وتجارة».

وتحتفل الدولة عن القبيلة والعشيرة، اضافة الى ما ذكر اعلاه ايضاً بأختلافات عديدة واضحة تذكر منها: أن الأوامر والأنظمة وأطاعتها تكون أجبارية في الدولة بينما هي طوعية في العشيرة، وتضم الدولة، بخلاف العشيرة، مجموعة من السكان يعيشون على أراضٍ محدودة أرغمنهم التناقضات القائمة بينهم على إقامة نظام يلجم تضاد الطبقات. بينما تقتصر العشيرة على سكان محدودين يعيشون في أراضٍ غير محددة ولا وجود للتناقضات الطبيعية بين أفرادها أو أنها في بداية تشكيلها ولم تتطور

^{١٥٠} بعد بحث تحت قيام دولة.

إن قيام الدولة يتطلب حدوث تطورات معينة في مجتمع ما. وقد أوضح انجلز في الفصل الخاص بالبربرية والحضارة، في مؤلفه: اصل العائلة والملكية الاساسية والدولة^{١٥١} العلاقة الجدلية بين حتميات قيام الدولة وبين مجمل التطورات الحاصلة في المجتمع العشائري حيث يقول: «وهكذا ليست الدولة بحال قوة مفروضة على المجتمع من خارجه. والدولة ليست كذلك واقع الفكرة الأخلاقية La Realization de L'idee Morale

^{١٤٩} قصة الحضارة، ١/٤٤-٥.

^{١٥٠} انظر: مقالتنا://التطورات الاقتصادية، ١٧/٦٢١.

^{١٥١} الصفحات: ٨٠-٢٣٦.

وواقع العقل La Realization de la Raizon. كما يدعى هيغل، الدولة هي نتاج مجتمع عند درجة معينة من تطوره، الدولة هي افصاح عن واقع أن هذا المجتمع قد وقع في تناقض مع ذاته لا يمكنه حلّه، عن واقع ان هذا المجتمع قد انقسم الى متضادات مستعصية هو عاجز عن الخلاص منها. ولكن لانقوم هذه المتضادات، هذه الطبقات ذات المصالح الاقتصادية المتنافرة، بالتهام بعضها بعضاً بعضاً والمجتمع في نضال عقيم، لهذا أقتضى الامر قوة تقف في الظاهر فوق المجتمع، قوة تلطف الاصطدام وتبقى ضمن حدود (النظام). إن هذه القوة المنبثقة من المجتمع والتي تتضمن نفسها، مع ذلك فوقه وتنفصل عنه أكثر فأكثر هي الدولة». ^{١٥٢}

لقد حلّ لينين هذه الآراء ببراعة وأستنتج منها: «.. بما أن الدولة قد نشأت من الحاجة إلى لجم تضاد الطبقات، وبما أنها قد نشأت في الوقت نفسه ضمن الاصطدامات بين هذه الطبقات، فهي كقاعدة عامة دولة الطبقة الأقوى السائدة اقتصادياً والتي تصبح عن طريق الدولة الطبقة السائدة سياسياً أيضاً، وتكتسب على هذه الصورة وسائل جديدة لقمع الطبقة المظلومة واستثمارها...». ^{١٥٣}

كما كتب لينين، بالاعتماد على انجلز، بهذا الصدد ايضاً: «وهكذا، فالدولة لم توجد منذ الأزل. فقد وجدت المجتمعات كانت في غنى عن الدولة ولم يكن لديها أية فكرة عن الدولة وسلطة الدولة. وعندما بلغ التطور

^{١٥٢} أصل العائلة، ص ٢٤-٥.

^{١٥٣} الدولة والثورة بالعربية، دار التقدم، موسكو، بلا، ص ١٥-٦. انظر: لينين، مختارات، بالعربية، دار التقدم، موسكو، ١٩٦٨، ٢/١٨٧-٨.

الاقتصادي درجة اقترنت بالضرورة بانقسام المجتمع الى طبقات، غدت الدولة بحكم هذا الانقسام أمراً ضرورياً».^{١٥٤}

نخلص من ذلك، وبالاعتماد على آراء انجلز ولينين، الى أن قيام الدولة في مجتمع طبقي أمر محتم تاريخياً، أي ليس صدفة تاريخية وأنما طبيعة تاريخية، أي بموجب قوانين عامة طبيعية، أما في المجتمعات القبلية الخالية من الطبقات، او لاتزال في بدء تكوينها ونشأتها، فإنه يتعدى قيام دول فيها.

فالحجاز ونجد قد حُرما، قبل الإسلام، من قيام دول فيما نظراً لعلاقة الظروف الطبيعية، التضاريسية المناخية، الصحاري، لحقبة طويلة ولاسيما في نجد، ولسيادة حياة التنقل الرعوية من قيام اقتصاد قوي ذي انتاج سلعي، ولأنَّ النظام العشائري يفترض شكلاً من الإنتاج منخفضاً جداً، ففساد فيها مجتمع المشاعية بعلاقاته القبلية العائلية لقيام أية وحدة او تنظيم سياسي [عدا تنظيمات محلية قامت في الآخر، قبيل الإسلام، ويطلق عليها -تجاوزاً- دولة المدينة: يثرب، مكة، خيبر، تيماء، الطائف... الخ]. وبدلاً من التنظيمات والمؤسسات الحكومية ظل العرف القبلي والعلاقات البدائية يهيمنان لحقبات طويلة. وأصبحت المؤسسات القبلية القائدة في القبائل القوية [كنده، قريش مثلاً] وسائل لتنظيم الحياة السياسية والإدارية [مثل دار الندوة]. وبهذا غدت تلك القبائل تشكل البذرة الأولى لتكوين الدولة، اي الشروط الجينية لولادة الدولة، حتى إذا بلغت التطورات مستوىً أعلى كانت هذه القبائل مهيأة لتولي الحكم [كما حصل لقرיש فيما بعد بفضل الإسلام]. ذلك أنَّ أقوى القبائل في المجتمع القبلي -كما يذكر سلطان احمد

^{١٥٤} الدولة والثورة، ص ١٨-١٩، ٢٠١١/٢، انظر: نص انجلز، أصل العائلة، ص ٢٢٩.

عمر- هي التي تصير المحور الذي تدور حوله القبائل الأخرى. والمركز الذي تتمركز فيه القوى الادارية والإقتصادية، وهي جماعتها تكون الدولة.^{١٥٥}
 إنَّ تطور مستوى الإنتاج هو الذي يحدد، ولاشك، سرعة وتأثير تحول المؤسسات القبلية القائدة إلى إدارات شبه مدنية بين منطقة وأخرى. وهذا مايفسر ظهور مايشبه دولة المدينة (Pdis)، في مدن الحجاز قبل الإسلام.
 ففي مكة كان لسراة قريش مجلس [دار الندوة] يسيطرُون به على شؤون المدينة، وإن لم يضع مجلسهم آية وسائل أجبارية لأجل ارغام العصاة على أمثال قراراته.

كرست الدكتورة نازلي اسماعيل حسين، الفصل الرابع من الباب الأول من مؤلفها: الشعب والتاريخ هيغل،^{١٥٦} لبحث موضوع: الدولة- المدينة.^{١٥٧}
 من الناحية القانونية والسياسية والاجتماعية تنتقطرف منه مايلي: «يقول شيلنج في كتابه: تاريخ الأفكار الاجتماعية، إن الكلمة اليونانية Polis، كان معناها في الأصل قلعة الرجال الأحرار القادرين على الدفاع عن أنفسهم. وكان المواطن Polites يتمتع بجميع حقوقه السياسية، ويمتلك الأرض ووسائل الدفاع عنها. وكانت كلمة Namos تشير إلى النباء الاجتماعي الباطن للوحدة السياسية. ومع مرور الزمن أصبحت هذه الكلمة اليونانية تشير إلى الدولة وبعبارة أدق الدولة المدينة...».«^{١٥٨} نلاحظ في هذا النص تشخيص الهيئة السياسية القائدة المتنفذة في الدولة المدنية وهم الأحرار ملوك الأرض

^{١٥٥} نظرية في تطور المجتمع اليمني، ص ١١.

^{١٥٦} القاهرة، ١٩٧٦.

^{١٥٧} ن.م، ص ٤٠-٤٩.

^{١٥٨} Kurt Schilling, *Histoire des idées politiques*, p.31.

^{١٥٩} ن.م، ص ٤١.

المتمتعون بكامل الحقوق السياسية. وحكومات المدن الحجازية وأن لم تتطابق كلياً مع دولة المدينة وأئمها أمثلت بعض ملامحها وخصائصها، إلا أنها لم تختلف عنها من ناحية سيطرة المالك على شؤونها، فكان السراة أصحاب الثروة والأملاك الالسيما هم وحدهم المتمتعون بكامل الحقوق والسيادة والجاه والنفوذ. أما ما عداهم فعيبي وسوقه وصعاليك وموالٍ لاترق حقوقهم إلى حقوق السادة بل الغالية ليست لها حقوق إطلاقاً وليس لها تمثيل في الاندية ولاسيما دار الندوة، التي ظلت حكراً لسراة قريش، فحتى فقراء قريش ما كان يتمنى لهم ولوح هذه الدار. فقد اختلف السادة مسؤولو حكومات المدن واختلفت مؤسساتها تماماً عن صفات مؤسسات قرابة الدم ومسؤولي العشائر.

التفاعل الحضاري:

لاشك أن التناقض الجدي بين تطور القوى المنتجة وعلاقات الإنتاج السائدة في المجتمع المشاعي البدائي وتكييف التركيب الفوقي الجديد مع الأساس الاقتصادي الجديد في المجتمع العبودي هي ابرز عناصر السيرة الجدلية، التي لا تكون عملياتها الثلاث [ظهور التناقضات *Conthadictono*، سلسلة من التعديلات *Adjustments*، التي تؤدي إلى اختفاء هذه التناقضات] مجتمعة التطوير الاجتماعي للبشرية^{١٦٠} فحسب، وأنما وضعت المقدمات المادية للنهوض ومن ثم التطوير الحضاري أيضاً [من المفيد الرجوع إلى بحث إنجلز: البربرية والحضارة، في مؤلفه: أصل العائلة والملكية الالسيما والدولة^{١٦١} -المشار إليه

^{١٦٠} انظر اوسمكار لانكه، الاقتصاد السياسي، تعریف وتقديم: د. محمد سلمان حسن، ط١، بيروت، ١٩٦٧، ص٩٨، انظر شرحها لدى د. محمد احمد الزعبي، //التغيير الاجتماعي، بين علم الاجتماع البرجوازي وعلم الاجتماع الاشتراكي، بيروت، ط١، نيسان ١٩٧٨، ص٦٢.
^{١٦١} أصل العائلة، الصفحات: ٣٢-٢٥، انظر هامشنا رقم ٥٠.

سابقاً، وفي هذه الحالة يمكن ادراك ومتابعة التطور الحضاري بسهولة ضمن العملية التاريخية الموحدة، وملحوظة التنوع ايضاً ضمن الوحدة التاريخية. ذلك أن الشعوب لدى ممارستها لعملية الإنتاج بأنماط مختلفة محددة متمايزة قد ساهمت في بناء صرح الحضارة العالمية بأشكال متفاوتة من التفاعل بين أخذ وعطاء (بما فيه الاصالة) ورفض ومقاومة، عبر سلسلة من علاقات الاتصال والتعاون والتدخل والسيطرة.^{١٦٢}

ولما كانت الحضارة العالمية، في الماضي او الحاضر سواء بسواء، نتيجة تراكم عضوي لحضارات متطرفة تناقضياً [ابقاء وانقاء الافضل في سلم التطور] في مراحل متباعدة، فإن التطور الجدي هو الذي ينسق امتدادها العمودي عبر التمايز المرحلي.

والاستنتاجات العلمية إذ تؤكد على أنَّ اختلاف أنماط الإنتاج في المراحل المتمايزة، وأنَّ كان هو الأساس المحدد للحضارات وتنوعها، فأنَّه ليس بالعامل الوحيد بل ترى إلى جانبه عوامل أخرى تلعب دورها أيضاً. إذ مع النظم الاجتماعية وشروطها المادية الأساسية، البني التحتية، تلعب العوامل الأخرى من عقائد وأفكار وشرائع ونظم سياسية... الخ، البني الفوقية، التي هي في الأصل انعكاس للشروط المادية، تلعب هي الأخرى -كما سبق وقلنا- دورها في الحياة الاجتماعية والسياسية والإقتصادية وفي التركيب الحضاري. فتطور المجتمع على هذا الأساس ما هو الا تأثيراً متبادلاً بين الإقتصادية وبين السياسة والإيديولوجيا وجميع جوانب الحياة الاجتماعية الأخرى، ومن الخرق انكار دورها. ولكن يجب أن نرى دائماً في هذا التأثير المتبادل، الأساس الإقتصادي الذي يتخذه

^{١٦٢} انظر: مقالتنا: التطور الحضاري، الثقافة الجديدة، ٦٠/١٥١-١٥٣.

بوضوح والذي يسمح بهم المنطق القانوني للتطور الاجتماعي.^{٦٣} هذه النظرة العلمية، التي تربط بشكل جدي تركيب المجتمع بتطوره التاريخي، تنطلق من اعتبار أن المجتمع لا يمكن أن يظل مالكاً [ستاتيكياً] ومنعزلاً عن ظروف تطوره التاريخي وأنما هو متحرك [ديناميكي] يتطور لتفاعلاته وتأثيره بشروط التطور التاريخية. فلا يجوز الفصل بين مجتمع ما وظروف تطوره التاريخي إلا بشكل افتراضي من أجل الدراسة فحسب وما عداه فهو فصل ماوري [ميافيزيقي] يؤدي إلى إعاقة فهم المسائل التاريخية فهماً علمياً صابباً. ويصبح جراء ذلك من المستحيل فهم العلاقة بين المجتمع والظروف الخارجية فهماً علمياً.

إن تفاعل الشعوب مع الحضارة، السلي والأيجابي، يتوقف على عوامل موضوعية وذاتية معقدة من اجتماعية وأقتصادية، تم تناولها، ويؤكد قانون المسار التطوري للحضارة العالمية العام بأنَّ لكل نمط من الإنتاج الذي تمر به البشرية حضارته الخاصة. إلا أنَّ الخصائص الموضوعية تتحتم قيام تنويعات أفقية في مرحلة واحدة، كما أشرنا سابقاً. لهذا لا يعني تنويع التراث الإنساني سواء بين فترة و أخرى أو بين منطقة وغيرها أو بين شعب و آخر، وإن توفر في بعضه أصالة وابداع ولحق بعضه الآخر ضمور و خواء، لا يعني بأنه انفصل عن حلقات المسار التطوري للحضارة العالمية، أو انتقال من حضارة إلى سواها، من حضارة الشرق القديم إلى حضارة الأغريق أو اللاتين، أو من الحضارة العربية الإسلامية إلى الحضارة الأوروبية.. الخ إن هذا التنويع يرتبط ولاشك بمقدار تفاوت مساهمات الشعوب المختلفة في البناء الحضاري، تلك المساهمات التي تتخذ أشكالاً متنوعة حسب امكانيات

^{٦٣} الناس والعلم والمجتمع، إعداد جماعة من العلماءsoviet، بالعربية، دار التقدم، موسكو، بلا، ص. ٦٦.

الشعوب المادية المرتبطة بنمط الإنتاج السائد لديها، والمتغيرة، جراء انتقال المجتمعات، في شروط تاريخية محددة، من نمط الإنتاج إلى نمط إنتاج آخر، عبر ثورات هي عمليات تاريخية معقدة من الصراع الطبقي^{١٦٤}، كما تحدد المساهمات بظروف كل مجتمع في النظام الاجتماعي المتواجد فيه ومن جراء تأثيرات تفاعلات الحياة الاقتصادية بمختلف أشكال العلاقات الفوقية من إلحادية ودينية وفلسفية وقانونية وسياسية وفنية وبالظروف الاقتصادية المحلية سواء المساعدة على ازدهار اقتصاد منتج قوي، أو بالكوارث المدمرة للنشاط الاقتصادي، من أوبئة وحروب ودمير لمنشآت الأروائية... الخ. إن توفر ظروف أفضل لمنطقة معينة أو لشعب معين للأصالة والعطاء ليس مردّه إلى أمور ذاتية تتعلق بالتركيب الجسماني لذلك الشعب بعينه أو بيته حتماً، لأننا نجد أيضاً ضموراً وخواءً لدى إبناء تلك المنطقة أو لدى ذلك الشعب بعينه عندما تنحسر عنه الشروط الموضوعية للتطور والازدهار، ونصل من ذلك إلى أن الأصالة والإبداع والتفاعل الحضاري الجيد ليست حكراً بمنطقة أو بشعب معين. وكذلك الحال مع الجمود والتخلف وضعف التفاعل الحضاري ليست وقفًا على منطقة أو شعب معين. وأنما يحدد الأصالة أو التخلف وعدم الإبداع موقع هذا الشعب ومدى مسانته في مرحلة متطرفة لأحدث تشكيلات العصر الاقتصادية الاجتماعية أو احتفاظه بمرحلة تعود إلى تشكيله اقتصاجتمعية سابقة، غدت متخلفة بالنسبة للمسيرة التطورية للحضارة العالمية. نخلص من كل ما قدم إلى أن

^{١٦٤} يبني العيد، التراث، مجلة الطريق، ٨٠/٩، وهي ترد على غالى شكري الذي يرى وحدة الحضارة لا يها في جوهرها الإنسانية لها دورات جدلية تعتمد الأخذ والعطاء، في كتابه التراث والثروة، ص ٢٠-١٩، فتنكر يبني في أساسها علاقات إنتاج، مجلة الطريق، ٧٩/٩، انظر مقالتنا: التطور الحضاري، مجلة الثقافة الجديدة، ١٥٢-١٥١/٦، ١٥٣.

الحضارات تتنوع حسب الشروط المادية للحياة وحسب الظروف المحلية، الجغرافية والاجتماعية والتاريخية وتأثيرات البني التحتية والفوقية ببعضها البعض، المؤدية إلى تنوعات افقية للحضارة حتى ضمن تشكيلة اقتصادجتمعية واحدة، كالاختلافات بين الحضارتين اليونانية والرومانية وكذلك بين الحضارات اليمنية والنبطية والتدميرية، رغم أنها جميعاً ضمن تشكيلة العبودية، كما سبق وتحديثنا عنها. بالمناسبة تبني الباحثة الثقافية، ثريا منقوش، من جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية، وجود نظام العبودية في اليمن القديمة،^{١٦٥} رغم أنها تشير^{١٦٦} بأن القبائل الغالية تخد جميع أفراد القبائل المغلوبة أسرى حرب. وتقترح تسمية النظام القائم في اليمن بنظام اقطاعية الدولة. وهي تستخدم مدرك نظام بدلاً من تشكيلة وسوف تعالج هذه الأمور في مجال آخر بشكل تفصيلي أكثر.

إذن تقتضي الضرورة، عند تقييم اية حضارة تقييماً موضوعياً، حسبان الحساب للاختلافات وللتفاعلات المتبادلة بين مختلف اشكال الادراك الاجتماعي وتأثير الدولة وسياستها [مهما كان المستوى الذي بلغته الدولة] في جميع اشكال هذا الادراك. لأن الوجود الاجتماعي، الذي هو الحياة المادية للمجتمع، وقبل كل شئ نشاط الناس الإنتاجي والعلاقات الاقتصادية التي تنشأ بين الناس في عملية الإنتاج، هو الذي يحدد الوعي الاجتماعي، الذي هو حياة الناس الفكرية، الأفكار والنظريات والأراء التي يسترشدون بها في نشاطهم العملي.^{١٦٧}

^{١٦٥} تاريخ الآلهة اليمنية والتوحيد الآلي، مجلة المؤرخ العربي، مجلة اتحاد مؤرخين العرب، ٤٠-٣٩/٩.

^{١٦٦} ن.م، ص ٣٠٦/٩

^{١٦٧} ق. أفالانسيف، أمسن الفلسفة الماركسية، ص ١٥٣.

كذلك تقتضي الضرورة اجتناب التطبيق الآلي لما هو عام من قوانين التطور على كل موضع دونما أي اعتبار للفروق الموضوعية وتضخيم ما هو خاص على حساب القانون العام للتطور، لهذا تستوجب العناية الفائقة بالاختلافات الموضوعية والتفاعلات القائمة فيها ولكن ضمن سياق القانون العام. بيد أنَّ الفكر البرجوازي، الذي يسقط من حسابه تأثير التفاعلات المتنوعة في كل حضارة، يتخذ من التنوع بين الحضارات مرتكزاً لرفض فكرة وحدة العملية التاريخية بأعتبار اصالة وإنغلاق هذه التنوعات وعدم تأثيرها وتأثيرها بعضها ببعض، أي نكران وحدة العملية التاريخية العالمية، على الرغم من أنَّ التاريخ العالمي هو وحدة التنوع، وليس تنوعاً بلا وحدة.^{١٦٨}

وتأسساً على رفض الفكر البرجوازي لتأثير التفاعلات المتنوعة في كل حضارة، يقوم تصور خاطئ عن كل تطور حاصل في الحضارة على أنه مجرد اضطرابات آلية، كما يعزى التغيير لعوامل داخلية. فنرى على سبيل المثال هنري فرانكفورت [رغم ما أوردنا له من انتقادات لرأء توبني المثالية الغريبة] يقول: «ما هو ذلك الشيء الذي يكون ذاتية الحضارة وطابعها المميز وما هي التي تستمر خلال مراحل وجودها المتتالية؟ وما هي، من ناحية ثانية، التطورات التي تميز مرحلة من الأخرى؟ إننا، بالطبع لا نبحث عن معادلة أو عن قاعدة عامة إذ أن طابع الحضارة بعد من أن يلين لمعادلة أو أن يخضع لقاعدة. فنحن نتعرف إليها في وجود تماسك أو ترابط معين يبين مظاهرها المختلفة، وفي إنسجام اكيد في اتجاهها، وفي "اسلوب" ثقافي معين يعطي مؤسساتها السياسية والقضائية شكلًا خاصاً، وفي فهها وأدتها أيضًا. وفي دينها وقوانينها الخلقدية. وانا اقترح ان ندعوا هذه الماهية المهمة في الحضارة "شكلها". ان هذا "الشكل" هو الذي لا يمحى أبداً مع انه يتغير بمرور الزمن. وإذا تغير فان ذلك نتيجة عوامل داخلية - كالتطور- من ناحية، وانا اقترح تسمية

^{١٦٨} كيلله وكوفالزون، *المادية التاريخية*، دراسة في نظرية المجتمع الماركسية، ص ١٦٧.

مجموعة هذه التطورات بديناميكية الحضارة. ان تفاعل الشكل والдинاميكية يكون تاريخ الحضارة وينتشر سؤالاً - وهو سؤال يقع خارج بحثنا الحالى- عن مدى اثر "شكل" الحضارة في تحديد مصيرها.^{١٦٩} وهكذا نجد أن فرانكفورت بعد ان نسف قوانين التطور الطبيعي للمجتمعات قد وقع في حلقة مفرغة ودوامة مهمة من المنهات التي اوصلته الى استنتاجات خاطئة.^{١٧٠}

لاشك ان تفهمنا لحقيقة كون التاريخ العالمي هو وحدة التنوع ضمن إطار وحدة العملية التاريخية العالمية هو الذي سيساعدنا بالطبع على ادراك علة اختلاف الحضارات ومما اختلف وتتنوع حضارة عرب ما قبل الإسلام افقياً في يقان شبه الجزيرة العربية المختلفة وخارجها بسبب الاختلافات الموضعية، كالمي بين اليمانيين والحضرمية والقطبيين، وكذلك الابساط والتدمريين، المتنقلة بمجتمعاتهم من المشاعية البدائية الى العبودية، والمناذرة والفساسنة، الذين مارست مجتمعاتهم العلاقات الأقطاعية، وبين بقية سكان شبه الجزيرة العربية، كل في زمانه قبل ظهور الإسلام، نتيجة الاختلاف في نمط الإنتاج، السائد في كل موضع. كما سيساعدنا تفهم وحدة التنوع على ادراك علة التنوع العمودي بين حضارة عرب ما قبل الإسلام وبين الحضارة العربية الإسلامية وارتباط التنوع بأنماط الإنتاج السائدة في كل منها. ذلك لأن انتاج الخيرات المادية بقدر ما ماهو ضروري لبقاء المجتمع البشري، فإنه يعتبر أساساً لحياة المجتمع بأسره ويشكل قاعدة تتطور على أساسها جميع جوانب الحياة الاجتماعية.^{١٧١}

^{١٦٩} فجر الحضارة في الشرق الادنى، ص ٤١-٥.

^{١٧٠} انظر: مقالتنا: التطور الحضاري، الثقافة الجديدة، ٦٠/١٥٤.

^{١٧١} ل. ليونيف، الاقتصاد السياسي، ترجمة: د. محمد رشاد الحملاوي، ط٢، القاهرة، ١٩٧٤، ص ١٠.

ومن خلال هذا المنظور يمكن تفسير الانتقال الحضاري من منطقة لآخر على انه ليس سوى العكاساً لانتقال المجتمعات، في شروط تاريخية محددة، من نمط انتاج لآخر، عبر ثورات هي عمليات تاريخية معقدة من الصراع الطبقي.^{١٧٢}

لم تكون سيرورة الانتقال من المشاعية الى العبودية الجدلية تطور البشرية الاجتماعي -كما أسلفنا القول- فحسب، وأنما خلقت الشروط التاريخية للتطور الحضاري ايضاً وذلك بأسئها اولى بنات تطور المجتمعات الحضاري، رغم مارافق تلك السيرورة من معاناة وشقاء وتعاسة، بعد ان اخلت المساواة البدائية المشاعية المكان لعدم المساواة الاجتماعية، بتطور الاقلية الضئيلة على حساب الاقلبية الهائلة من المستثمرين والحاكمين والمحكومين، على رغم من ذلك فان مستوى تطور الحضارة سار بوتائر أسرع وبشكل ارق، اذ مع القوى المنتجة، شرع الانسان ينتج من مقومات المعيشة اكثر مما ينبغي للقيام بالألود. وفي هذه الحالة اصبح من الممكن ان يستخدم فردٌ في استثماراته الالسيما شغيلة آخرين يعطي عملهم كذلك فائضاً من المنتجات. كما اصبح من الممكن تكديس المنتج الفائض ومبادله بسلح غير متوفرة في الاستثمارة الالسيما. وكانت الحروب تؤمن رفد هؤلاء الشغيلة حيث ينم تحويل الامرى الى أرقاء. لقد أرتدى الرق في البدء طابعاً ابوياً [بطريركياً] [بيتياً]. ثم غدا أساس وجود النظام الجديد.^{١٧٣}

لقد آل عمل الرقيق الى تفاقم التفاوت، لأن الاستثمارات التي كانت تستغل العبيد كانت تثير بسرعة. «فعلى الرغم من أنّ عمل الرقيق كان ذا مردود قليل ويعطي قليلاً من المنتج الفائض، فإنّ استثمار جماهير العبيد

^{١٧٢} مجلة الطريق، ٧٩/٩، الثقافة الجديدة، ١٥٢/٦٠ هامش هذا المقال رقم ١١٩

^{١٧٣} م.أ. كونراد، الغرب والشرق، ص ٣٨-٣٧

الواسعة كان يجلب للملكين ثروات هائلة.^{١٧٤} ومع تفاقم التفاوت في الثروة، لم يعد الأغنياء يقتصرن على تحويل أسرى الحرب إلى أرقاء، بل أخذوا يفرضون الرق على الذين يصبحون فقراء ومدينيين لهم من أعضاء قبيلتهم نفسها.^{١٧٥} وهكذا نشأ أول تقسيم طبقي للمجتمع، إلى أرقاء ومالكي أرقاء [سادة]. وفيه خلق عالم الرقيق الشروط من أجل تطوير تقسيم العمل فيما بعد. وفي الدرجة الأولى، فصل العمل الذهني عن العمل العضلي، والمدينة عن القرية، والحرفة عن زراعة الأرض. ويشير بهذا الصدد العلامة السوفيتيان كيللي و كوفالزون: «إن نظام الرق والعبودية إذ كان الأساس لتقسيم العمل الضروري من الوجهة التاريخية، فإنه خلق الشروط لازدهار ثقافة العالم القديم، ولتقدم قوى الإنتاج، ولزيادة وتيرة التطور التاريخي. إن تطوير تقسيم العمل الاجتماعي كان أحد الجوانب التقدمية لأسلوب الإنتاج العبودي بالمقارنة مع نظام المجتمع البدائي».^{١٧٦}

من المشاكل التي يحتمد النقاش حولها مسألة مرور مجتمعات الشرق الأدنى القديم بتشكيلية العبودية أسوة بمجتمعات العالم القديم، كالأغريق والرومان، وفق شروط التشكيلة. وتثير الإجابة حول هذه المسألة نقاطاً عديدة بين العلماء يأتي في مقدمتها موضوع (الملكية الlassيما) وعلاقتها بالأرض وبالقطاع العام (المشاعي) والحكومي وبطبيعة العمل المستخدم في الإنتاج.^{١٧٧} لقد عالج يغور م. دياكونوف هذه المسائل وتوصل إلى إستحالة ظهور المجتمع الأقطاعي

^{١٧٤} كيللي و كوفالزون، *الإمارة التاريخية*، ترجمة: احمد داود، دمشق، ١٩٦٧، ص ١٦١.

^{١٧٥} د. عمر فرقخ، *العرب*، ص ١٧.

^{١٧٦} *الإمارة التاريخية*، طبعة دمشق، ص ١٦١.

^{١٧٧} لاحظ مناقشة اوسمكار لأنكه لطبيعة العمل المستخدم في النظام الاجتماعي الآسيوي، *الاقتصاد السياسي*، ص ٨٨-٩٠، انظر مقالتنا: *التطور الحضاري، الثقافة الجديدة*، ١٦٠/١٦٢.

مباشرة من المجتمع المشاعي [الا في حالات معينة]^{١٧٨}، وإلى «أن في المدن في المرحلة المتأخرة من المجتمع القديم، أي في الشرق الادنى، بدءاً من اواخر العصر الاشوري وحتى اوائل العصر الساساني، مروراً بالمرحلة الهيلينية، فإنّ ما وضعناه اعلاه من بنية علاقات الإنتاج العبودية، بالمعنى الذي عرضناه لهذا المفهوم، (تستمر بالبقاء وتندلع).»^{١٧٩}

إن دياكونوف، وهو المعتمد على النظرية العلمية في المساهمة مع العديد من العلماء السوفيت أمثال: كونراد، فارك، وسواهم في هذه النقاشات، يعترف بأنه وإن كان يرى جميع مجتمعات العالم القديم تشتراك بملامح عالمية تاريخية واحدة، إلا أن ذلك لا يعني أنه لا يرى الفروق الحادة جداً بين التماذج المختلفة من المجتمعات القديمة نفسها، ويخلص دياكونوف «الا أن هذه الفروق ليست بين تشكيلات أو أساليب انتاج متوازية، وإنما بين طرق لتطور التشكيلة القديمة نفسها..»^{١٨٠}

لم تخل المجتمعات العربية القديمة بالفعل من ممارسة تحويل اسرى الحروب والمدنيين العاجزين عن افتداء انفسهم او تسديد ما بذمهم من ديون الى عبيد ارقاء ليعملوا لدى قيامط آسرهم او دائتهم او يساقو الى اسواق النخاسة ليبيعوا فيها. يذكر د. عمر فروخ: «والمفروض ان يكون الرقيق غير عربي ولكن قد يؤسر عربي في الحرب ثم لا يستطيع افتداء نفسه بمال، او قد يستدرين مالاً لا يستطيع وفاء دينه فيسترق.»^{١٨١}

^{١٧٨} الملامح الأساسية، مجلة دراسات عربية، ٤/١٢٨.

^{١٧٩} ن.م، ص ٤/١٢٨.

^{١٨٠} ن.م، ص ٤/١٢٩.

^{١٨١} ن.م، ص ١٧.

لقد كانت الحروب والمنازعات، سواء بين القبائل او الحكومات، وما اكثراها قديماً، اوفر واسع وانفع وسيلة للاستيلاء والاستعباد وعلى اكبر عدد من الافراد، فنجد د. حكمت قفلجملي، حينما يحاول توكيد العلاقة الجدلية التي توصل اليها ماركس وانجلز، بين طبيعة الانتقال من الملكية الجماعية الى الملكية الاسمية، الوسائل والاثار، وبين الانتقال من العلاقات المشاعية الى العبودية والأقطاعية، فإنه يستشهد بالاحتلال العربي للأرض والافراد المتواجدين عليها. «.. وبالتالي فان القبيلة التي تتعرض للغزو والاخضاع على يد قبيلة اخرى، تصبح بدون ملكية وجزءاً من الشروط الاعضوية لعادة انتاج القبيلة الغازية التي تعتبر الأولى ملكاً لها. ولذلك كانت العبودية والقنانة بالضرورة، بادخال تعديلات على اشكال هذه وتقوم العبودية والقنانة بالضرورة، بادخال تعديلات على اشكال هذه الملكية كافة، لكن قدرهما على تعديل الشكل الاسيوى هي الضعف من غيرها»^{١٨٢} فيستخلص د. حكمت: «مرة اخرى نقف على الحقيقة، ان تعديل الملكية الجماعية صادر عن مؤسسة العبودية والقنانة التي كانت نتيجة للحرب اي للقوى الانسانية الضاربة»^{١٨٣} واحيراً يشير د. حكمت الى الاشكال المتطورة حيث يتتوفر العبيد والاقنان بالأرض المحظلة وانتقال ملكيthem والأرض من مالك لآخر سواء تم ذلك مع الأرض او بدونها فأنه كان سلوكاً طبيعياً مقبولاً على انه سلوك مقبول لدى اليأس. يقول د. حكمت: «فعندهما كانت الأرض تتعرض للاحتلال كان الأفراد الذين يؤلفون جزءاً منها يتعرضون هم ايضاً للاحتلال، شأنهم شأن الأرض. ومن يقع في الأسر بعد

^{١٨٢} تطور اشكال الملكية، ص ٢٠٦.
وهو هنا يعتمد على ماركس، الاسيس، ص ٤٨٦.
^{١٨٣} ن.م، ص ٢٠٦.

احتلاله مع الأرض إنما هو العبد أو القن. ومن هنا اعتبر تعرض العبد للبيع أاما مع الأرض أو كسلعة منفصلة، وتعرض القن للبيع والشراء والتداول من قبل الأقطاعين جنباً إلى جنب مع الأرض، سلوكاً طبيعياً فقويل على انه سلوك مقبول لدى اليأس»^{١٨٤}

لقد أقام المجتمع الطبيعي العبودي علاقات سيطرة وخصوص، علاقات الاستغلال القاسي لجماهير العبيد المحرومة تماماً من الحقوق، بما فيها حرية الاعتقاد، حيث لم تكن للجماهير الواسعة المستغلة ايديولوجيتها بل كانت تكره حتى على عبادة آلهة أسيادها وسادتها المتغلبين، حتى ساد القول (وللناس على دين ملوكهم). فتذكرة الباحثة ثريا منقوش التجاء القبائل المغلوبة كأسرى حرب إلى هجر آلهتها وعبادة آلهة القبيلة الأسرة في اليمن القديمة كمحاولة للمساواة مع أبناء القبيلة الأسرة (فيتمتعوا بنفس الحقوق الدينية على الأقل)^{١٨٥} وهذه الحالة معروفة في العراق القديم وغيره حيث يرتفع شأن الله المدينة الغالية وتتضاءل أهمية آلهة المدن المغلوبة.

لقد ساعدت العلاقات القائمة في المجتمع العبودي لحقبة معلومة على تطور القوى المنتجة، وبعد ذلك استنفذت امكانياتها وتحولت إلى عقبة كأداء في طريق التطور الاجتماعي. وبمرور الوقت تفاقمت التناقضات بين القوى المنتجة وعلاقات الإنتاج في مجتمع الرق إلى حدتها الأقصى.

لقد عالج هذا الفصل القضايا النظرية للجوانب الاقتصادية والإجتماعية والتطور الحضاري لدى الانتقال من المجتمعات المشاعية إلى العبودية وسوف يكرس الفصل الذي لمعالجة التطورات الاقتصادية والإجتماعية وما ارتبط بها من تطور حضاري في دول شبه الجزيرة العربية

^{١٨٤} ن.م، ص ٢٠٧

^{١٨٥} تاريخ الآلهة اليمنية، مجلة المؤرخ العربي، ٩/٣٦-٧

وخارجها العبودية، في اليمن وحضرموت وقتيان وفي الأنباط وتدمير بشكل
مركز وعلى ضوء استنتاجات الفصل الأول هنا.



الكتاب الثاني دول المجتمع العربي

توضيحة:

تعتمد الدراسات العلمية الجادة المترنة، المتوكية إستخلاص إستنتاجات علمية صافية دقيقة، للأحاطة، قدر المستطاع وعلى ضوء ما يتيسر لها من مصادر، بكافة معطيات المبادئ والنظريات والقوانين العامة، اضافة الى كل ما يتصل بها من علوم ومعارف، التي تعالج أوجه فعاليات ونشاط الأنسان الإجتماعي. فتحصل بذلك لا على خزين ثر من المعلومات الضرورية للعقل الخاص وللتنوير العام سواء بسواء، ولا على خلفية نقية متينة أساسية تعين على تفقه، بشكل وافي وعميق، العوامل المؤثرة والمترادفة في سيرورة التحولات الإجتماعية الجدلية وما يترتب عليها من تطور حضاري، لأية حقبة تاريخية معينة بدراساتها، وفي مجمل سياق تطورها الشامل ضمن التطور التأريخي العام للمجتمع، فحسب، وإنما تساعدها هذه الأحاطة الشاملة والمعنفة، وما ينتج عنها من خلفية رصينة، على التحصن من إفرازات مضادة ما ورائية ومحافظة وتجنب ضغوطها الفكرية وتجنف بوعي عما تطرحه من أفكار ومفاهيم خاطئة مضللة.

ولما كان النشاط البشري، في مساره التطوري التناقضي، غزيراً ثرّاً متعدد الحقول متشعب الجوانب، فقد تعددت جراء ذلك الحقول العلمية وتنوعت أبواب المعرفة الإنسانية مما يتطلب جهداً استثنائياً حتى تهل تلك الدراسات المتعمقة من بنابيع المعرفة، مما كثرت وتعددت صنوفها وتشعبت حقولها الاختصاصية [الاقتصادية والإجتماعية والتاريخية

والأدبية والنفسية والأحيائية والعراقة... الخ] وتعمّقت وتوسعت أصولها وقوانيها ومبادئها النظرية العامة [الفلسفية]، ليتم ادراك كنه التطورات المتفاعلة المؤثرة: الإقتصادية والإجتماعية والعقائدية والسياسية والفنية والفكريّة... الخ، أدراكاً تماماً وواعياً، ومن ثمّ لتتوصل تلك الدراسات إلى استخلاص إستنتاجات علمية دقيقة يكون النجاح حليفها حتماً لالتزامها بالنهج العلمي المتحرّر من المكابرة والجمود والانفعال وضيق الأفق العلمي والسياسي، المبني على الفكر البرجوازي المحافظ.

فلتحاشي الارتماء في شباك التسطيح والتبسيط والانزلاق إلى مهابي المكابرة والجمود والانفعال التشنجي وضيق الأفق العلمي والسياسي، يقتضي الأطلاع الواسع والمثابر على قوانين تغيير المجتمع في سياق التطور التاريخي ودراسة كافة العلوم والمعارف المساعدة على تفهم التفاعل المستمر، ورفدها بالصادرج المتوفرة، لتكوين خلفيّة صلدة وتصور واضح ودقيق عن سيرورة التطور الاجتماعي الجدي وما يتربّع عليها من تطور حضاري للحقبة التاريخية المعنية بالدراسة. وهذا نستطيع، بمعارف وجهود متواضعة، اقتداء أثر من سلكوا دروباً غير منحرفة عن جادة العلم والحق والتقدّم، وأستمروا محافظين على النهج العلمي السليم، رغم ضغوط وصعوبات، نأمل أن نوفق في المثابرة على انتهاء هذا السبيل ومواصلة المسيرة.

أعتمدنا في الفصل الأول على بعض المبادئ والأسس النظرية لدى معالجتنا المؤثرات الإقتصادية والإجتماعية وما ينبع عنّها من عوامل متداخلة متفاعلة من البني التحتية، الأسماء، والفوقيّة، الأنعام، وفي بعضها البعض، في سيرورة تطور العلاقات الإجتماعية، منذ تحول البشرية من حالة البربرية إلى التحضر، بعد احتراف المهن، ولاسيما الزراعة ومانجم

عها،^{١٨٦} والتي لعبت البيئة، قديماً دوراً ملماوساً في تحديد قيامها، وما أقترن بها من تحت تسمية الحضارة والثقافة، عربياً وأجنبياً.^{١٨٧} مع معالجة مواقف العلماء المتعارضة من كلا التقدّم الاجتماعي والتطور الحضاري.

وإذا كان الفصل السابق قد اعتمد فيه إلى إيراد بعض قوانين التغيير الطبيعية المؤثرة في سيرورة التطور البشري الجدلية، لأجل كشف العلاقة الجدلية بين التقدّم الاجتماعي والتطور الحضاري، من دون التوسيع كثيراً في شرح وتفسير تلك القوانين والمبادئ والأسس النظرية، على قلتها، ومن دون الأكثار من الشواهد التطبيقية، التي يجب أن تنتقى من تفاصيل حياة العرب الاقدمين، فإن ذلك لا يتناقض مع ما ذكر آنفاً من ضرورة الاحاطة الشاملة المعمقة كما لا يعني بالطبع تعكزاً على بديهيات و المسلمات باطلاق تعميمات وإيراد مقولات جاهزة تتخد أسلوب ووسيلة جنف عن معاناة التقصي والبحث العلمي المتيقن، الذي تتطلب مستلزمات الدقة فيه الجد.

١٨٦ حدّدت، على ضوء آخر معطيات التنقيبات الآثرية، بداية تعلم الإنسان الزراعة وتربيته الحيوانات بالآلاف الثامن أو السابع ق. م، في العصر الحجري الحديث كما حدّدت مناطق تلك البدايات التي أدت إلى تغيرات مبدئية في التاريخ الإنساني، الانتقال من الاقتصاد البدائي، إلى الاقتصاد الإنتاجي، الذي سرع في وقائـر تكوين وتطور وتقدير الحضارات بشكل لم يسبق له مثيل. وسوف نتناول الشروط التي حدّدت زمان ومكان البدايات فيما بعد في مناقشة بيئـة شبه الجزيرة العربية، من حيث ملائمتها لذلك مع مناقشـة اراء د. احمد سوسـه التي تعتبر شـبه الجزـيرـة الموطن الأول لـتعلـيمـ الإنسان الزـرـاعـةـ وـانـ العـربـ المـهـاجـرـينـ يـملـكونـ خـبـرـةـ زـرـاعـةـ تمـتدـ إـلـىـ ١٠٠ـ الـفـ سـنةـ،ـ كماـ وـردـتـ فيـ كـتابـهـ حـضـارـةـ وـادـيـ الرـافـدـيـنـ بـيـنـ السـامـيـنـ وـالـسوـمـيـنـ،ـ بـغـدـادـ،ـ ١٩٨٠ـ،ـ صـ ١١ـ١٠ـ.

١٨٧ يلاحظ: إضافة إلى ماذكر سابقاً ما أورده ت. س. اليوت في الفصل الأول في مؤلفه، ملاحظات نحو تعريف الثقافة، رغم تحفظاتنا، كذلك انظر ملاحظات المترجم في الصفحة ٢٣، ت. س. اليوت، ملاحظات نحو تعريف الثقافة، ترجمة: الدكتور شكري محمد عياد، القاهرة، بلا، ص ٣٩-٤٣.

والصبر والاناء، ولا مرده الى تعود الباحثين التقديميين على هذه الاسس جراء كثرة تداولهم واستعمالهم أيها في الأغلب الأعم من أبحاثهم، دراسةً وكتاباً، بحيث تكفي الاشارة لها عند الاستعمال، فحسب، ولكن وراء ذلك الأيجاز والاقتصار اسباب ودوافع وغاييات متعددة: فليس الاكتفاء بالاشارة الى شروح تلك الاسس والمبادئ، سواء كانت الاشارة الى مضان ينابيعها الأصلية او الى مؤلفات علماء مختصين في الفلسفة والأقتصاد والتاريخ وعلم الاجتماع، المختصة بمعالجة الأدبيات الماركسية-اللينينية الكلاسيكية بشكل واضح ومتين، بسبب من شهرتها وكثرة تداولها بين المثقفين والمختصين فحسب، وأنما يقصد دفع القارئ الى التفاعل مع القضايا والمواضيعات المثارة بشكل ايجابي ومن ثم تحفيزه، اذا رغب في المساهمة في النقاش، على الرجوع الى تلك المصادر الرئيسية والفرعية لاعتمادها، أيضاً.

كما أنّ هذه الدراسة، كما أسلفنا القول، عبارة عن مدخل، لانستطيع التعقق بدقة ومتانة بما فيه الكفاية ولا الدخول في تفاصيل التحليلات الفلسفية والإقتصادية والإجتماعية والحقوقية للتركيب البنوي، بل يكتفى باستعراض سريع لأهم المسائل الجوهرية التي تعنى بالتركيب البنائي وبقدر تعلقها بالتطور الحضاري، مدرجة ضمن آراء للنقاش، على ان تعالج بأسهاب فيما بعد ضمن مجالها المعين. وأما ايرادها، أحياناً، من غير شواهد تطبيقية بشكل وافي فلئن هذه الشواهد المنتقاة من الحياة التطبيقية سيرد ذكرها في الفصول اللاحقة لها. وما الاقتصار على ذكر القليل المختار، الا من باب ضرب المثال من غير الدخول في التفاصيل لضيق مجال الاستطراد.

تشكيلات العبودية والأقطاعية في البلاد العربية قبل الإسلام:

قبل تناول موضوع تشكيلة العبودية نود أن نقف وقفة نراها ضرورية للتمييز بين تشكيلة العبودية وبين نظام العبودية نظراً لما يحصل من التباس وخلط بين المدركون لدى العديد من الباحثين حيث يستخدمون مدرك نظام [Syatem] العبودية وهم يبغون الكلام عن مدرك تشكيلة [Formation] العبودية، وبالعكس يستعملون مدرك تشكيلة العبودية عند كلامهم عن نظام العبودية.

فلا يخفى أنَّ بين تشكيلة العبودية، التي هي أحدى التشكيلات الاقتصادية الجماعية الخمس، وبين نظام العبودية فرق جوهري واضح، حيث يشترط في تشكيلة العبودية وجود نظام استخدام العبيد، بينما لا يشترط دائماً أن يكون في كل استخدام للعبيد واستغلالهم، حتى في الإنتاج، تشكيلة عبودية. هذا إلى أنَّ هنالك حالات وظروف شروط أساسية معينة تحدد قيام كل تشكيلة، وبضمها تشكيلة العبودية، التي يكون عمل العبيد فيها واستخدامهم في الإنتاج من العناصر الأساسية المحددة لاقتصاد المنطقة.^{١٨٨} وكما هو معلوم للجميع فإنَّ استرقاق أحرار البشر، بمختلف السُّبُل، وتحويلهم وبالتالي إلى عبيد مستغلين يستخدمون بمختلف الأعمال المنزلية والإنتاجية، إنما هو نظام سابق بكثير لظهور تشكيلة [Formation] العبودية، كما أستمر هذا النظام مطبقاً في

^{١٨٨} انظر: ن. إ. كونراد، *الغرب والشرق* (مقالات) [بالروسية]، موسكو، ١٩٦٦، ص. ٣٩،
والكتاب مجموعة بحاث فلسفية اجتماعية تاريخية وادبية، عدد صفحاته ٥٢٠.
وهذا النص عن مقال بعنوان حول تشكيلة العبودية من ص ٥٢-٣٣، وقد اعتمد في هذا
النص الذي أشرنا إليه على ث. ماركس، *رأس المال*، المجلد ١، و. ث. ماركس وق. إنجلز،
المؤلفات، الطبعة الثانية، المجلد ٢٣، ص ٣٤٦، ملاحظة ٢٤، وسوف نقوم بترجمة هذا
المقال المهم عن تشكيلة العبودية، انظر: نفس المقال، ص ٣٣.

تشكيلية الأقطاعية والرأسمالية، أي حتى بعد زوال تشكيلة العبودية كتشكيلية اقتصاداجتماعية.^{١٨٩}

ولن كان العبيد (كأشخاص) هم القاسم المشترك بين تشكيلة العبودية وبين النظام العبودي، حيث هم، العبيد، موجودون ومستغلون هنا وهناك، فأن مجرد علاقتهم بمالكيهم كعبد لا تكفي لتحديد مجمل علاقات المجتمع. وشأنهم في هذا يشبه حال الفلاحين لحدما، اذ ليس كل من يزارع يصبح بالضرورة قنواً مرتبطاً بعلاقات أقطاعية مع مالك الأرض، فهناك المزارعون الاحرار الذي زاولوا بحرية مهنة الفلاحة في المشاعيات البدائية،^{١٩٠} قبل ظهور الطبقات والاستغلال الظبيقي، كما إن هناك مزارعون تحرروا من قنانة الأقطاعية بتفاوت في تشكيلة الرأسمالية وتحرروا من كل صبغ العلاقة التبعية في تشكيلة الاستراكية.

إذن فإن للتطور التاريخي ودرجة استغلال العبيد ونوعية علاقتهم بمستغليهم ودور عملهم المستغال في الإنتاج في تحديد اقتصاديات المنطقة أو القطر، الدور في تحديد علاقات الإنتاج، العلاقات الاجتماعية، التي بموجها

^{١٨٩} ن.م، ص ٣٣-٤.

^{١٩٠} يقترح الاستاذ احمد صادق سعد، في مقاله، عودة الى بعض المفاهيم النظرية، في ضوء النمط الاسيوى للإنتاج، استعمال لفظ (مشترك) على الوحدات الاجتماعية التي يتكون منها البيكل الشرقي بدلاً من لفظة (مشاعة).. وذلك لأن اللفظ الثاني يعطي مفهوماً بسبب وجود الطبقات والدولة، وللاختلاف بين المشاعة والمشترك كما سيأتي بيانه بعد. مجلة دراسات عربية، العدد ١، السنة السابعة عشرة، تشرين الثاني ١٩٨٠، ص ٤٤، هامش رقم ٢ . وبالرغم من عدم وجود فروق في معانٍ اللفظتين في القومين الانكليزية والفرنسية والالمانية والروسية حيث تحل الواحدة محل الاخرى في تفسير الكلمات الاجنبية للعام والمشترك والمشاعر والجماعية والمشاعية والمشتركة فأننا سوف نناقش المقترن عندتناولنا موضوع المشاعية عند العرب.

يتحدد شكل التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية. فلaimكن، على ضوء ماقررنا، اتخاذ كل عمل للعبد وأستخدامهم في الإنتاج بشكل مطلق ومستديم عاماً محدداً لنوعية العلاقات الاجتماعية القائمة في منطقة ما وفي زمن ما، واعتبار تلك العلاقات سائدة وبالتالي احتسابها تشكيلة عبودية. وإنما يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار الحقبة الزمنية والتطور التاريخي للمجتمع، فلربما تكون المنطقة أو ما يجاورها قد أجازت تشكيلة العبودية إلى الأقطاعية أو إلى الرأسمالية، كاستخدام العبيد [الزنج، غالبيتهم من زنوج^{*} إفريقيا]، ولهذا غالب الاسم، استخدموها بكري وجرف سباح بطائح جنوب العراق، ولاسيما في منطقة البصرة، بأعدادٍ هائلة^{١٩١} الواسع في جنوب العراق في العهد العباسي،

* الزنج، اطلق العرب هذه التسمية على سكان رنجبار وجزء من المنطقة الواقعة قرب مدخل ابو الاحمر والحبشة، بالإضافة إلى مساحات أخرى في افريقيا الداخلية، وقيل ان بلاد الزنج تمتد من الاجزاء الشرقية لافريقيا حتى الحبشة تقريباً، وتسمية الزنج مكونة من لفظتين: احداهما فارسية والأخرى هندية (Bar, Zary) وتعني بلاد الرجل الاسود. ينظر: د. فيصل السامر، ثورة الزنوج، الطبعة الثانية، ٢٠٠٠، صص ٢٣-٢٤، وحاشية صفحة ٤١. [د. حسام الدين].

^{١٩١} فقد كتب د. فيصل السامر: (كان يعمل الرئيس الذي استخدم فيه الزنوج هو ازالة الطبقية المحلية - السباح - التي تحطى الأرضي وإظهار التربية الخصبة الصالحة للزراعة، ونقل السباح وجعله في اكون او تلال للافاده منه في الوقت نفسه [نقلأ عن Massignon, Emcy. Eslam, Vol. 4P. 1213 وكانت (كسواح الزنوج معروفة بالبصرة كالجبال، وكان في اهوار البصرة منهم عشرات الوف يذبحون بهذه الخدمة] [نقلأ عن مخطوطه كتاب العيون الورقة ٧ بـ]. وكان الزنج في عملهم هذا معرضين لرقابة صارمة واهانات مستمرة. وكانوا يعملون في كتل ضخمة يتراوح عدده الواحد منها ما بين (٥٠٠٠-٥٠٠) شغيل، بل قد يزيد عن هذا الحد، فقد بلغ عدد احدى الجماعات التي كانت تشغلى على نهر دجل الاهواز فقد بلغ عدد احدى الجماعات التي كانت تستغل على نهر دجل الاهواز خمسة عشر الف غلام (الطبرى، ١٧٥٠/٣، وباقوت، معجم البلدان، ٤٢/٤ - نهر الدجل في الاهواز)، ومما يدل على ضخامة اعداد الزنوج ماتروريه المراجع

وكاستخدام العبيد على نطاق واسع في [المستوطنات Plantation] الزراعية، في الامريكتين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي ولاسيما في الولايات الجنوبية من الولايات المتحدة الأمريكية الرأسمالية المتطرفة. بل وحتى في مجال الاحتفاظ بالعزبة الكبيرة [اللاتيفونديا Latifundia]^{١٩٢} بشكل مغایر للتطور التاريخي في أمريكا اللاتينية ولاسيما بصورة واسعة بالبرازيل. حتى مطلع القرن العشرين^{١٩٣} حيث يستغل بفخاضة وعلى نطاق واسع نسبياً الأعداد الهائلة من العبيد وسواهم من المعدمين والمزارعين الفقراء في تلك المزارع الواسعة بشجيع من الاحتكارات والرأسمال الاجنبي لمالك تلك المزارع [الذين يطلق

من ان صاحب الزنج استطاع ان يضم اليه في يوم واحد عدداً يتجاوز الالاف، بل ان جيش الزنج بلغ فيما بعد ثلاثة الالف مقاتل [ابن كثير، البداية والنهاية، ٤١/١١]. ومهما تكون هذه الارقام مبالغ فيها، فإنه يبدو للباحث في احدى ثورات الزنج انهم كانوا يبلغون عشرات الالاف بليل انهم دخلوا الدولة العباسية وهزموا كثيراً من جيوشها الضخمة وشغلوها أكثر من اربع عشر سنة)، ثورة الزنج، ط٢، بيروت، ١٩٧١، ص ٢٨-٩.

^{١٩٢} اللاتيفونديا = العزبة الكبيرة: ملكية زراعية لا سيما كبيرة لمالك غير مقيم عادة. ظهرت في امبراطورية روما العبودية، وتطلق الان على الملك الزراعي الكبير الخاص الذي يستثمر بطريقة بدائية مختلفة ومشوهة باستغلال الالاف من الزنوج والاقنان والمعدمين وال فلاحين الفقراء في الامريكتين وايطاليا وبعض اجزاء من الشرق. لقد شجع الرأسمل الاجنبي المالكين في أمريكا اللاتينية، الذين يتخلدون من اسبانيا المتخلفة وليس من اوروبا المتطرفة مثلهم الاعلى في التطبيق، على الاحتفاظ بهذا النمط المتخلف من الانتاج، ولكن نمو البرجوازية الوطنية بعد الحرب العالمية الأولى ساعد على تقليل هذه العزب الكبيرة لزيادة المعلومات انظر: التركيب الطبقي للبلدان النامية، تاليف عدد من العلماء السوفيت، ترجمة د. داود حيدو، مصطفى الدباس، دمشق، ١٩٧٢، ص ٢٠٢-٢٥٨. انظر ايضاً: القاموس الاقتصادي، تاليف جماعة من العلماء السوفيت، ترجمة: مصطفى الدباس، دمشق، ١٩٧٢. مادة اللاتيفونديا، ص ٤٦٢-٣.

^{١٩٣} التركيب الطبقي، ص ٢٠٥.

علمهم، جراء تطبيقهم هذا النمط المُتَخَلِّف من الإنتاج، اصطلاح: البرجوازية «الأقطاعية»^{١٩٤} بغية إبقاء القارة مصدرًا رئيسيًّا للخامات والمواد الغذائية وسوقًا للبضائع المصنوعة، لقد أدى تطبيق هذا النمط المُتَخَلِّف من الإنتاج الزراعي إلى استمرار الشكل المشوّه والمحدد للنمو الرأسمالي في أمريكا اللاتينية.

إنَّ استخدام العبيد في الأمثلة الثلاثة وإن كان على نطاق واسع وبأعداد هائلة لا يمكن اعتباره شرطًا لقيام تشكيلاً عبودية، طالما أن منطقة الشرقيين الأدنى والأوسط قد أجتازت مرحلة العبودية إلى الأقطاعية قبل قيام الدولة العباسية بمدة ليست قصيرة، ولهذا يطلق على هذه الحالة: نظام العبيد في ظل الأقطاعية، وطالما تسود الامريكتين العلاقات الرأسمالية والمتطرفة بشكل خاص في الولايات المتحدة لذلك يطلق على استخدام العبيد في المستوطنات الأمريكية بنظام العبيد في ظل الرأسمالية المتطرفة، وأمَّا استخدامهم في غرب أمريكا الجنوبية اللاتينية الكبيرة فيطلق عليه أيضًا نظام العبيد، ولكن في ظل رأسمالية محددة مشوهه.^{١٩٥} نلخص من ذلك إلى أنَّ استخدام العبيد، الذي هو حجر الأساس في تشكيلاً عبودية، لا يشكل لوحده عنصر تكوين تشكيلاً عبودية مهما كانت درجة اتساعه،^{١٩٦} كما في غرب أمريكا الجنوبية [اللاتينية] الكبيرة. بينما في إمبراطوريات العالم القديم، حيث قد مورس الاستغلال الطبيعي وظهرت الطبقات، وحيث لم تظهر بعد التشكيلاً الأقطاعية، لا في منطقة الشرق الأدنى والأوسط ولا في أيَّة بقعة أخرى من العالم القديم، كان استخدام العبيد واستغلالهم وطبيعة عمل الارقاء

^{١٩٤} حول إطلاق مصطلح البرجوازية (الأقطاعية)، انظر: التركيب الطبيعي، ص ٢٠٩.

^{١٩٥} ن.م، ص ٢٠٥.

^{١٩٦} ن.م، ص ٢٠٥؛ كذلك انظر: كونراد، الغرب والشرق، ص ٣٤.

وماترتب عليه من علاقات انتاجية، تخلق الظروف المناسبة لقيام تشكيلة العبودية، كما ظهر ذلك في العراق القديم وفي مصر القديمة، في اليونان وروما، في الصين والهند وايران، ولدى اليمانيين والانباط والتدمريين، كما سترى، ولدى غيرهم. اذن طالما وجد استخدام العبيد داخل اساليب انتاج مختلفة فهو، استخدام العبيد، لا يشكل اسلوباً للانتاج بحد ذاته، وانما هو نظام داخل تشكيلة معينة فحسب.

للتزال هذه القضايا موضع نقاش وأختلاف واسع بين الكثير من العلماء وبالذات حول مواضيع: العبودية ووضعية العبد وطبيعة العمل العبودي وعن مقدار نسبة استخدام العبيد في الإنتاج المؤثرة في تحديد سمات مجتمع ما.

ان الباحث المعنى بتركيب المجتمعات ومسار تطورها التأريخي ليصادف كثيراً هذه الاختلافات أو الاجتهادات، ويفتني عن ذكرها هنا ما أستعرضه العلامة السوفياتي محمد أ. داندامييف، في كتابه القيم، العبودية في بابل،^{١٩٧} لوجهات النظر السوفيتية والاجنبية المتباعدة حول هذه الموضوعات.^{١٩٨} لقد ذكرنا في نهاية الفصل السابق وجهة نظر ايجور م. دياكونوف المحذرة من نفي الفروق بين المجتمعات في مساراتها والقائلة: «من أنه وإن كان يرى بأن جميع المجتمعات العالم القديم تشتراك بملامح عالمية- تأريخية واحدة، إلا أن ذلك لا يعني أنه لا يرى الفروق الحادة جداً بين النماذج المختلفة من المجتمعات القديمة نفسها». ^{١٩٩} بيد أن دياكونوف نفسه يحذر أيضاً من تجسيم تلك الفروق المحلية بحيث تطمس ملامح

^{١٩٧} موسكو، ١٩٧٤ ، [بالروسية]، قامت د. جليلة ناجي الياشئي بترجمته لحساب جامعة بغداد، [ولا أعلم ان كان قد نشر أم لا، ولم اطلع على الترجمة].

^{١٩٨} ن.م، ص ٤٤-٦٧.

^{١٩٩} الملامح الأساسية...، مجلة قضايا عربية، ٤، ١٢٩/٤.

المجتمع وتبعد عن التشكيلة التي يمرّ بها حيث كتب: «ألا أن هذه الفروق ليست بين تشكيلات أو أساليب أنتاج متوازية، وإنما بين طرق لتطور التشكيلة القديمة نفسها...».٢٠٠

يرى دانداميف بأن تعليل وجود الاختلافات في وجهات النظر بين العلماء يعود إلى أمور من بينها: «إن مؤسسة العبودية قد ظهرت في نهاية الألف الرابع ق.م. بينما حتى النصف الأول من القرن الماضي كان الإنتاج بدرجة مهمة في الولايات الأمريكية الجنوبية قائماً على أساس العمل العبودي، بل وفي الوقت الحاضر توجد العبودية في بعض البلدان بشكل مباشر».٢٠١ لقد اختلفت السُّبُل التي انتهجتها العبودية في طريق تطورها مما أثرت في اختلاف وجهات النظر أيضاً، ولهذا ارجع دانداميف بعض اختلاف وجهات النظر إلى طبيعة العبودية ذاتها، فهذا يقول: «من الطبيعي حقاً أن العبودية تطورت بطريق غير موحدة في البلدان المختلفة لارتباط ذلك بالشروط التاريخية الملموسة، بل وفي بلد واحد بذاته تتغير إشكالها. إضافة إلى ذلك، وفي مجتمع ما بذاته وفي عصر تاريخي بالذات تغيرت حالة العبيد الواقعية بشدة: كابد قسم من العبيد صنوفاً قاسية من الاستغلال، بينما كان القسم الآخر نسبياً في ظروف حسنة».٢٠٢ إن ملاحظة دانداميف الأخيرة يؤكدها التباين النسبي في موقف الأمريكيين البيض من الزنوج بين الشمال والجنوب حتى الحرب الأهلية (١٨٦١-١٨٦٥ م).

٢٠٠. ن.م., ٤/٢٩.

٢٠١. العبودية في بابل، ص ٤٤.

٢٠٢. ن.م., ص ٤٤.

لأشك أن التحليل الآلي القائم على اعتماد نسبة عدد العبيد في الاستثمارات الإنتاجية لتحديد سمات مجتمع ما، فحسب، دونما النظر إلى الحقبة التاريخية، من شأنه أن يعكر صورة المجتمع ويحول دون الرؤيا الصافية للمسار الحقيقي وللواقع الاجتماعي القائم. بينما يعتمد التحليل الصائب المتابعة الدقيقة للمسيرة التطورية للمجتمع البشري بربط كافة العوامل والشروط والظروف والمسار التاريخي في الأطار العام والخاص من المؤثرات والقوانين. لقد عالج ، بشكل جيد، الاختلافات الجوهرية لطبيعة العبودية في العصور التاريخية المختلفة، الحجة الكبيرة في اللغات الشرقية العالمة السوفيتين. ا. كونراد، وقد أعتمد التحليلات الأساسية لماركس وانجلز في هذا الشأن، في الفصل المكرس لدراسة تشكيلة العبودية^{٢٠٣} من كتابه: الغرب والشرق،^{٢٠٤} وما نقتبسه الان يعكس وضوح الرؤيا في كشف تلك الاختلافات. كتب كونراد: «يظهر التاريخ لنا، بأن العبودية التي كهذه لا تكون أبداً المؤشر المحدد لتشكيل العبودية، ذلك لأن العبودية، أي كدح بعض الناس لآخرين، مشتركةً بالخاص، كما يقال، الانتماء المادي لذلك الكادح مختصب ثمار كدحه، هي ظاهرة توجد في ظروف تاريخية متباعدة، فضلاً عن اختلاف درجات انتماء العبد الشخصية بسيده وعن تباين مقاييس ومستويات أهمية العمل العبودي الاجتماعي-اقتصادية في البناء الإنتاجي العام لهذا المجتمع. إن تشكيلة العبودية لا تتصف بمثل هذه العبودية، وأنما بالنظام الاجتماعي، الذي يلعب عمل العبد فيه دور أسلوب الإنتاج المحدد للأساس الاقتصادي للكيان الاجتماعي في هذه المرحلة من تاريخ الشعب.»

لهذا فإن العبودية، في مصر القديمة مثلاً-حقيقة، واصفة بالذات طبيعة نظام مصر الاجتماعي لذلك الزمن، أما العبودية، على سبيل المثال،

^{٢٠٣}. ن.م، ص ٣٣-٥٢.

^{٢٠٤}. انظر: هامش هذا الفصل، رقم (٣).

في المستوطنات الزراعية Plantation العائدة للمستوطنين الأوروبيين في أمريكا الشمالية في القرنين السابع عشر- الثامن عشر فلم تكن آنذاك أساساً لتشكيل نظام اقتصادي-اجتماعي لديهم، الذي سبق واصبح راسماً، وإنما مجرد خصوصية محلية لهذا النظام، مشكلة فيه بقوه ظروف الاقتصاد الرأسمالي لتلك الأزمان في بعض الأقاليم البعيدة المستصلحة حديثاً -مستعمرات^{٢٠٥} [كولونيات، Colony] مستعمرات استيطانية، ح.ق. العزيز].

دراسة العبودية الأقطاعية بأبحاث مستقلة ومستلزماتها:

إن تناول موضوع العبودية كتشكيلة في بعض أجزاء شبه الجزيرة العربية وخارجها، وكذلك تناول موضوع الأقطاعية في الحقبة السابقة للإسلام أمر ليس بالسهل الميسور، بل تكتنفه، ولا سيما العبودية، صعوبات ومهمات ومستلزمات شاقة معقدة، من بينها جزء مما ذكر أعلاه.

في بحثنا الحالي شامل لفترة طويلة نسبياً، والذي يفترض فيه تناول المسائل الجوهرية المؤثرة في التطور الحضاري العربي والإسلامي - الذي هو أساس البحث- بشكل سريع ومن دون التعمق او الدراسة التفصيلية المعتمدة على ماجريات الحياة، لاينتظر من بحث على هذه الشكلة دراسة سيرة كل تشكيلة بتحليل كافة عناصرها منذ نشوئها وتطورها وتركيزها حتى تحللها وانسلاخها وبشكل تفصيلي، وإنما اعطاء خلاصة الإستنتاجات للملامح الرئيسية المدعمة ببعض الحقائق التاريخية المنتقة من الحياة المعاشرة للسكن. وعلى ضوء ذلك ومن أجل اتضاج

^{٢٠٥} ن.م.، ص ٣٣-٤.

دراسة علمية متكاملة شاملة لموضوع معقد شائك للعبودية وللإقطاعية،
نقترح تكريس دراسة منفردة [Monograph]، على شكل رسالة {اطروحة}
علمية، لكن منها بشكل مستقل ولكل دولة على انفراد، تستنفر لكل بحث
العزيمة الصادقة لبذل كل الامكانيات والجهود بغية جمع ودراسة كافة
الوثائق والنصوص والمصادر المدونة بالخطوط المسماوية والهieroغليفية
والمسند والكتابات البردية [على اوراق البردي]، والصفوفية واللحيانية
والشمودية والعبرية والإسلامية والأغريقية والهلوبية واللاتينية والنسكرينية
والسريانية والعربية القديمة، سلف الكوفية، الميسرة الأصلية والمتدرجة،
مع دراسة النصوص الدينية: (قصة استخدام يعقوب ١٤ عاماً للزواج من
ابني لابان، لبنة وراحيل، التوارة، التكون، ٢٩، ٣٠، وقصة استخدام
موسى ١٠-٨) سنوات عند شيخ من مدين للزواج من ابنته، القرآن،
القصص، ٢٧-٢٦، مثلاً، ودراسة الملائم والقصص والروايات الفولكلورية،
وأبحاث المستشرقين، بلغاتهم الأصلية والترجمة، وكافة المصادر العربية
الإسلامية والحديثة، بقدر ما يتعلق الأمر بتاريخ المنطقة من مختلف
الجوانب. ولاشك ان الخلفيّة الرصينة، كما ذكر افأ، المعتمدة على ارضية
متينة من الدراسات الفلسفية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية
والعراقية (الاثنوجرافية) والأحيائية (الأنثروبولوجية) المعمقة ستساعد على
الاستقراء الجيد للنصوص والأخبار واستخلاص الحقائق المتعلقة بدراسة
المسائل الأساسية المرتبطة بدرجة تطور انتاجية العمل في كل مجتمع، دور
الانتعاش وتطور التبادل بين مختلف القبائل، تجارة النخاسة ودورها في رفد
المجتمع بالخدم والقيّان وراقصات المعابد والرقيق لكافة الأعمال بما في ذلك
الرقيق الأبيض، تطور تقسيم العمل، الأمور المتعلقة بطبيعة التملك
الخاص للأرض، وعلاقة الملكية الأرضية، سواء الموقوفة للمعابد او

الحكومية او العائدة لمالكها من الافراد او المجموعات، المالكين الصغار، المستأجرين، العمال الاجراء في المزارع ومقارنته اعمالهم بعمل العبيد ونسبة كلّ منهم في المجتمع، التعمق في دراسة اشكال الملكية^{٢٠٦} العبيد، امتلاكهم، استخدامهم في المعابد والمؤسسات الحكومية وفي المنازل ومقارنتهم بالعمل الاجراء^{٢٠٧} طبيعة العلاقات بين القبائل الغالية والمغلوبة، علاقات التبعية والولاء والخوة، السبي والعجز عن الافتداء، بقايا المشاعية والملكية العامة، وضعية الحرفيين والتجار وبقية فئات وشرائح المجتمع، الذين هم وسط بين طبقتين رئيستان في الإنتاج: فلاهم عبيد مستغلين ولا أقنان مرتبطين بارض ولاهم احرار مالكين مستغلين، سواء ملوك العبيد والاراضي او ملوك الاراضي الأقطاعيين، قضية ربع الأرض، الضرائب، الديون والربا، العجز عن ايفاء الديون، الخدمة المترتبة، البغایا والقيان وراقصات المعابد... الخ. هذه بعض القضايا ذات الأهمية التي يجب تناولها بعناية فائقة. ومما لا شك فيه انَّ الباحث المعني بدراسة بدايات الاستغلال وظهور الطبقات، بشكل علمي موضوعي جاد، سيلتقي ايضاً، عند متابعة سيرورة التطور الاجتماعية، ظواهر عدّة يشكل بعضها مسائل جوهرية جدلية في تكوين أسس تطور الإنتاج حيث تعتبر العبودية ظاهرة حتمية وشرطية له. فيتمكن الباحث الحصى المقتدر ذاتياً على حذق الفهم الدقيق والاستيعاب الجيد وحسن الانتقاء من التوصل، على ضوء دراسته لهذه المسائل، الى إستنتاجات صائبة قيمة حول طبيعة الاستغلال و المجالات تطبيقه والشروط الأساسية لتطوره. فيتوصل بالتالي الى ان ظهور العبودية انما هو ظاهرة طبيعية

^{٢٠٦} انظر: مؤلف د. حكمت قفلجملي، تطور اشكال الملكية ومقال دياكونوف، الملخص الأساسية، مجلة دراسات عربية، العدد ٤.

^{٢٠٧} انظر: محمد أ. دانداميف، العبودية في بابل، ص. ٥.

وتحمية وشرطية لتطور الإنتاج. لكن هذه المسائل الهامة، والتي ستظهر امامه ويعثر على بعض الشواهد والمؤشرات لها، سواء من ثنايا النصوص والآثار والنقوش او في المؤثرات والدراسات المقارنة او من الحكايات الفولكلورية ومن القصص الأدبية والمدينية والامثال المرورية، تتطلب انتباهاً وجلاً شديدين وتوقفاً طويلاً من الباحث لكي يفلح، بعد معاناة وسهر دؤوب، في رسم الملامح الحقيقة وفي ابراز العوامل الأساسية لنشأة وتطور الظواهر الحتمية الطبيعية لأن المتابعة غير المتأنية والمتجاهلة بتعتمد للترابط العضوي بين العوامل الأساسية والمهملة لمتابعة التطور التناقضى من شأنها ان تؤدي الى تشويه الملامح الحقيقة للمجتمع القديم وتؤول حتماً الى استخلاص إستنتاجات خاطئة بعيدة كل البعد عن ملموسيات الواقع الحقيقى كدأب دراسات غالبية الباحثين البرجوازيين المحافظين التي تعتبر الحضارة العالمية مجرد تجمع آلي لحضارات بعضها فوق بعض من غير تفاعل، اي تنضيدات، لأن هؤلاء الباحثين لا يعترفون بأهمية الأساس المادى لحياة الناس ودوره في تطور المجتمع، بينما النظرة العلمية تؤكد على ان الحضارة العالمية هي نتيجة تراكم عضوى لحضارات متطرفة تناقضياً اي التأثير المتفاعل للحضارات فيما بينها.

إن من أبرز هذه المسائل التي يواجهها المعنى المتفحص في مسيرة البشر التطورية، اضافة إلى ما ذكر آنفاً، هي الآتية:

من المعلوم ان الإنتاج الإقتصادي للناس توسيع بشكل مطرد، لاسيما بعد ان زادت الزراعة المغولية Mottole، ولاسيما المحراجية، والبسنة في الأراضي المرورية، وتربية القطعان الكبيرة من الماشية في انتاجية العلم البشري بشكل واسع وميله نحو الفردية، فأثر تأثيراً كبيراً في خلق الفائض، بانتاج الزائد عن الاستهلاك، الذي لعب دوراً نشاطاً في نشوء ظاهرة استغلال الفائض من قبل

فرد قوي لجهد الآخرين. وقد نجم عن هذا الفائض أيضاً ظهور تبادل البضائع المنتظم بين مجتمعات متباعدة الإنتاج مهدّ له الانقسام الاجتماعي الأول للعمل الذي انفصلت به القبائل الرعوية عن البقية. وكان هذا انقساماً اجتماعياً خطيراً لا يعتمد العمر والجنس. ولا يقل عنده أهمية الانقسام الاجتماعي الثاني للعمل، الذي انفصلت به الحرف عن الزراعة، وهو الذي حفّز على تطوير التبادل بشكل واسع [وإلا حظ في التبادل خصوصيات الوضع الجغرافي، التي ساعدت على أن يلعب سكان ذلك الموضع، اليمن، الانبطاط، دوراً وسيطاً في التبادل العالمي]، وكلها ساعدت على تطور المجتمع وتتوسيع الاستغلال. ويرى التعدين والتتطور التقني والفكري للإنتاج الأدوات والخزف من بين العوامل المهمة في توسيع الإنتاج وتطوره والانقسام الاجتماعي للعمل. بل شكل بعضها بني ارتكازية أساسية لتطور الإنتاج. وهناك نقطة هامة جديرة بالإنتباه هي أن وفرة استثنائية ملحوظ ما في منطقة معينة [كالآفاوية في اليمن] تغطي التفضيل النسبي للتتطور الاقتصادي في إنتاج فوائض جسمية تخدو شرطاً أساسياً للتتطور العبودية. وكانت المشاريع [الإروائية، الطرق والجسور والشوارع، القلاع والحسون] والضخمة واستحداث وبناء العواصم والثغور وباقى المدن، تستدعي استغلال قوى بشرية هائلة مجاناً. فمن أين يأتى كان يتم توفير الحاجة المستديمة لتلك القوى المسخرة مجاناً؟ لاشك إنها الحروب وليس من سواها بمقدوره أن يظل ينبوعاً لاينصب عن توفير الطاقة البشرية المستغلة. فـأى تأثير كان للحروب والصراعات والغزوat القبلية [واغلبها بين الرعوية الرحالة وبين المزارعة المستقرة] في تحول المغلوبين إلى أرقاء ادبئاء خاضعين للقاھرين الأقوياء؟. والنقطة الأخيرة وترتبط بالانقسام الاجتماعي للعمل وبالخصوصيات المستمرة التي قامت بسبب وفرة الفائض، وهي عن تأثير انفراط النظام القبلي في المشاعيات إلى أسر قوية ثرية متنفذة، مارس كبارها السيادة ومعها في اغلب

الأحيان التجارة والربا والنخاسة، والى اخرى ضعيفة فقيرة معوزة محتاجة، في تحول الملكية الجماعية للأرض الى ملكيات لاسيما، وفي تقليل عدد المزارعين الاحرار وتحولهم الى فلاحين مسترقين وعيدين الصنوف المختلفة؟

ربّ معرضي له كل الحق في الاعتراض يسأل لماذا تحيل مهمة التصدي لموضوعي العبودية والأقطاعية بشكل مستقل لكل قطر من الأقطار العربية التي ظهرت فيها الى سوانا؟ والاجابة على هذا السؤال الوجيه قد جرى بعضها فيما سبق من قول ونضيف على ذلك بأنّ احالة مهمة التصدي لموضوعي تشكيلة العبودية وتشكيلة الأقطاعية في هذه الاتجاه، الى باحثين ينتظرون ان يكونوا متفرغين ومن لديهم الرغبة الصادقة في التصدي لموضوعات تعدّ لحد ما بكرٍ وتعتبر [بالقياس الى دراسات مماثلة عن اقطار العالم القديم الاخر، من حيث وفرة المصادر وكثرة الدراسات والمناقشات عنها]، الى حدٍ ما، معقدة شائكة، يهيمنا لاول وهلة الباحث المتصدي، على ضوء معطيات نادرة ضئيلة قلما تعنى، ولاسيما التي في شبه الجزيرة العربية، بما يشفي غليل الباحث المنعطف الى معرفة المزيد عن أحوال السكان الإقتصادية والإجتماعية، يهيمنا خشية أن لا يتوصّل بسهولة وبسرعة الى إستنتاجات علمية دقيقة صائبة، فليس في الأحوال على الغير تكئه عاجزٌ ولا يهرب حاذرٌ، حتى ولو كانت مهمة البحث هذه تتطلب خزنأثراً من دراسات نظرية كشرط ضروري واساسي لتهيئة خلفية فكرية تكون أساساً صلداً تعتمد لرصد ظاهرات تفرزها روايات، أغلهما محيرة حيث لا تقبل التصديق الهائي ولا الرفض القائم، لأنّها أقرب الى الاساطير والحكايات الفولكلورية الشعبية منها الى الحقائق التاريخية، ناهيك عن كونها مبتورة في أغلهما وبمعشرة متّورّة متّوزّعها مصادر مختلفة، ولاسيما تلك التي عن العهد الموجلة في القدم، حيث التعّيم والضبابية والتعميمات واختلاط التسميات، مما يتطلّب جهداً مركزاً أراني مفتقرًا اليه حالياً إذ لا تتوفر لدى في

الوقت الحاضر إمكانية تهيئة الظروف الملائمة له وذلك لأنصرافي كلياً. كما ذكرت قبلاً إلى البحث الحالي [المؤتمرات الاقتصادية والاجتماعية في الحضارة العربية الإسلامية]، التي الزمت نفسي به- والذي لا يحتمل التوقف والاستطراد الطويل، خشية التشتيت وضياع وحدة تجانس الموضوع المركزي- لهذا فأنني عندما أتيب غيري لموضوع العبودية والأقطاعية بشكل مستقل لكل منطقة في البلاد العربية فأنتما أنشد للبحث، الذي سينجزه غيري، الكمال وأضطرار النجاح حتى يرقى إلى مصاف البحوث العلمية الجيدة، بعد أن تتوفر له كافة المستلزمات والشروط التي نوهت عنها. والا أغالى إذا ما قلت بأننا بحاجة ماسة جداً مثل هذه الدراسات المنفردة المختصة المتينة المكرسة لدراسة العبودية ومواكبة تطورها ونهوضها وإنحلالها من حيث هي تشکيلة، في كل دولة على انفراد: كالعبودية في اليمن، في الانباط، وفي تدمر. وكذا الحال في دراسة الأقطاعية قبل الإسلام: في دولتي المناذرة والغساسنة.

إن الخطوات الجادة المخلصة، على رغم من وعورة المسالك، ستوصل إلى إستنتاجات علمية رصينة ودراسات قيمة، ويصبح بأمكان هذه الدراسات، إذا ما تتوفر لها أيدي مخلصة مثابرة وبمعونة وإشراف مختصين لهم اهتمامات في هذه المجالات مما يكفل لها النجاح، إن تغدو منجزات علمية مهمة ومتمنة للدراسات الاختصاصية التي تمت عن مجتمعات العبودية العراقية والمصرية القديمة، على سبيل المثال: بحث العلامة السوفيتي ف. ف. ستروف (مسألة تكوني مجتمعات الرق، وتطورها، وإنحلالها في الشرق القديم) [وهو الفصل الأول من كتاب العراق القديم].

والختص بالاشوريات محمد أ. دانداميف ومؤلفه: العبودية في بابل،^{٢٠٨} ولا يقل أهمية بحث السيد صالح حسين الرقيق: العبيد في العراق القديم،^{٢٠٩} إن النجاح سيكون، ولاشك، حليف الجهد العلمي الرصين في التعمق بأناه وصبر ومثابرة لتحليل كافة المسائل الجوهرية في كل دراسة منفردة. وكما توضح آنفًا بأن المهمة بحد ذاتها ليست سهلة ميسورة لكن الصعوبة لاتعود إلى ندرة المصادر وقلة تطرق الموجود منها إلى المسائل الأساسية، ولاسيما النصوص القديمة، التي تنتظر المزيد من العناية في التصنيف والتبويب والدراسة، فحسب، ولا إلى رفض غالبية المنظرين والباحثين البرجوازيين المحافظين الغربيين وكذلك عدد لا يستهان به من الباحثين البرجوازيين المحافظين الغربيين وكذلك عدد لا يستهان به من الباحثين العرب الاعتراف، كما أسلف القول في الفصل السابق، بمرور المجتمعات العربية بهاتين التشكيلتين، على الرغم من اقرار الكثير منهم بوجود العبيد [كأفراد] واستخدامهم في كافة المجالات والأنشطة الاقتصادية اضافة إلى الخدمة المنزلية، وأقرارهم بوجود الطبقات كنظام في مجتمعات تلك الدول [الذى يفترض وجود طبقة الملأك وطبقتي العبيد والفالحين، في

^{٢٠٨} هذا الكتاب هو دراسة تحليلية لأحوال العراق القديم الاقتصادية والإجتماعية، تأليف جماعة من علماء الآثار السوفيت، ترجمة وتعليق: سليم طه التكريتي، بغداد، ١٩٧٦؛ ومقال مستوف مفاهيم شاملة عن الصورة العامة لكامل التطور الاقتصادي في بلاد الرافدين. وقد نشر آخرون دراسات واسعة عن قضايا التاريخ الاقتصادي للشرق. كمقالات في التاريخ الاقتصادي والإجتماعي للشرق القديم مجلة Gaimk، عدد ٩٧، لسنة ١٩٣٤ ودولة لكش في القرنين الخامس والعشرين والرابع والعشرين قبل الميلاد، موسكو، ١٩٦١، انظر: //العراق القديم، ص ١٢-١١ وص ٣٥.

^{٢٠٩} [بالروسية]، موسكو، ١٩٧٤، [قامت د. جليلة ناجي الهاشمي بترجمته بتعضيد جامعة بغداد، لم اطلع على الترجمة لأنه لم يطبع حسب علمي].

العبودية والأقطاعية]، ولاشك ان نكرانهم لوجود التشكيلات في الدول العربية القديمة يعود بالطبع الى اعتبارهم التغييرات السياسية والإجتماعية وكذلك الحضارية كعملية مستقلة غير مرتبطة بظروف حياة المجتمع المادية، اي ان هذه التغييرات سائرة بمعزل عن سيرورة التطورات الاقتصادية وماينجم عنها من إنعكاسات وتأثيرات متبدلة، اي بنكران التفاعل القائم في التركيب البنيوي بين القاعدة -الشروط الاقتصادية- الأساس وبين البناء الفوقي -[التغييرات]- الانعكاس. لهذا تراهم يفتئشون بشكل خاطئ عن أسباب غير حقيقة لينسبوا إليها التغييرات الفوقيـة، كأن ينسبوها إلى قوى ماورائية مُسيرة مُوجهة رغبات وأرادات أفراد وجماعات لتنفيذ التغييرات. وعلى الرغم من ان موقفهم التضليلي الرافض هذا ليس من السهل تجاهله أو إغفال تأثيره السلبي في مجال تكوين القناعات الفكرية، ولاسيما بين أوساط واسعة من القراء البسطاء، لأنّ قسماً من الباحثين العرب يحتل الآن، في العديد من البلدان العربية، مراكز علمية وادارية في التوجيه الثقافي متميزة، فأنّ تعقد مهمة التصدي لبحث العبودية او الأقطاعية، قبل الإسلام، لايعود ايضاً الى موقفهم هذا فحسب، وأنّما يعود الى تعقد مسألة طابع العلاقات الإجتماعية هنا، والى طبيعة العمل المستخدم في كل تشكيلة بسبب أمور تتعلق بالبيئة التي يلمس فيها فروقاً ملحوظة بين الشرق [المقصود به هنا اقطر آسيا القديمة وشمال إفريقيا] وأوروبا، بحيث استدعت هذه الفروق وجود مايعرف بـ«نمط الإنتاج الآسيوي».

أساس تبain وجهات النظر:

لايزال النقاش بين علماء مختصين في بلدان اشتراكية متعددة مستمراً حتى الآن، ومن دون التوصل الى رأي موحد حول هذه المسائل. بيد أنّ

الاختلاف في وجهات نظر المختصين في البلدان الاشتراكية حول العبودية والأقطاعية، في الحقبة الزمنية المشار إليها أعلاه، سواء في البلدان العربية أو سواها من بلدان الشرق القديم لا ينبع على وجود أو نفي هذه التشكيلة أو تلك بهذه القطر أو ذاك، إلا في القليل النادر، على أساس تفهم للمجتمعات الطبقية في المنطقة اطلاقاً وإنما على أساس اعتقاد البعض منهم بأن بعض هذه المناطق قد انتقلت من المشاعية إلى الأقطاعية من دون المرور بالعبودية [وهذه المسألة قام عليها نقاش طويل لامجال هنا لا يراد تلك النقاشات]، فالاختلاف بينهم قائماً حول زمن مرور هذا البلد أو تلك المنطقة بهذه التشكيلة أو تلك أساساً، ذلك لأنهم، على الصدر من وجہة النظر الرافضة لمرور بلدان الشرق الآدنى بالتشكيلات اطلاقاً، يعترفون بشمول المنطقة بتأثير مفعول قوانين التغيير الطبيعية فيها، حيث الاستثناء في حالة التشابه بالظروف ووصول اقطار مجاورة إلى تشكيلة معينة.

وبما أن هؤلاء العلماء المختصين من البلدان الاشتراكية يجمعون على الاقرار بعدم امكانية وجود حدود تجريبية زمنية في المنعطفات التاريخية الكبرى، بين التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية، وإنما يعترفون بوجود مراحل انتقالية بينها، لهذا فإن الاختلاف في وجهات نظر بعضهم عن بعض إنما ينحصر في مسائل تخص بدايات ونهايات كل تشكيلة بالنسبة لبلد أو لمنطقة معينة طبقاً للاختلافات الموضوعية بينها، لاسيما وأن التحولات في الشرق كانت تجري عموماً -قياساً إلى أوروبا- بخجي زمنية أطول، لأن العملية كانت تسير هنا بوتائر أبطأ مما في أوروبا. ويقوم الاختلاف كذلك بين هؤلاء العلماء المختصين حول درجة كل اسلوب ونمط انتاجي، وعن طبيعة العمل المستخدم في كل اسلوب ونمط انتاجي بالنظر إلى ملموسيات الاختلافات الموضوعية وبشكل رئيس إلى اختلاف الطبيعة التضاريسية والمناخية في

المناطق الشرقية، آسيا، وشمال إفريقيا، التي وجد فيها نمط الإنتاج الآسيوي، مما عليه في قارة أوروبا. كتب الاقتصادي البولندي أوسكار لانكه (Oskar Ryzard Lange): «وقد ميز ماركس بين النظم الآسيوية، والقديمة، والأقطاعية، والبورجوازية مع الحقب التاريخية المقابلة لها. ونستطيع أن نضيف إلى هذه القائمة، اليوم، المجتمع البدائي والنظام الاشتراكي. وهذه النظم تقابل أساليب الإنتاج الموصوفة في أعلى- فالنظام القديم يقابل العبودية، والنظام البرجوازي يقابل الإنتاج الرأسمالي. ومايزال أسلوب الإنتاج، الذي هو أساس ما أسماه ماركس بالنظام الآسيوي، ينطوي على نقاط عدّة غامضة تستلزم الإيضاح. وكان هذا النظام قائماً على ملكية الدولة للأرض التي تبحث عن حاجة المشاريع الجماعية الكبيرة المرتبطة بتنظيم الاتّهار وبناء السدود والقنوات الزراعية تعتمد على الري الاصطناعي. وقد وجدت ملكية الدولة للأرض هذه في مصر ووادي الرافدين وإيران، والهند، والصين وسيلان والاقطاع الشرقية الأخرى. وكما قال ماركس: هنا تكون الدولة المالك الأعلى للأرض. فالسيادة تعتمد على ملكية الأرض المركزية تركيزاً يبلغ المستوى الوطني. ولهذا السبب، لا توجد ملكية لاسِيما للأرض، على الرغم من أن حيازة الأرض واستعمالها، قد تكون لاسِيما أو عامة.^{٢١٠} وقد اتّخذ التركيب الفوقي السياسي لأسلوب الإنتاج القائم على ملكية الدولة للأرض شكل (الاستبداد الشرقي Oriental Despotism)، حيث كانت وظيفته الاجتماعية الادارة المركزية للمشاريع الجماعية المرتبطة بالري

^{٢١٠} بغداد، ١٩٧٧ [وهي رسالة لنيل الماجستير].

الاصطناعي. وقد نتج عن سقوط الحضارات المتطورة تطوراً عالياً والقائمة على هذا الاسلوب من الإنتاج.^{١١}

إن ماذكره لانكه هو تلخيص مكثف لمؤثرات الظروف الموضوعية في الشرق التي بصمت آثارها فيه، وهو يعتمد على دراسات ماركس وانجلز حول الإنتاج والمناقشات التي دارت حول نمط الإنتاج الآسيوي.^{١٢} لقد كان منتظراً أن تقوم اجهادات بين العلماء المختصين في البلدان الاشتراكية حول العبودية والأقطاعية في بلدان الشرق القديم بالنظر للاختلافات الموضوعية ولاسيما بين الشرق وبين اوربا، كما أسلفنا، ومن هذه الاختلافات، او الاجهادات بصورة ادق، نذكر على سبيل المثال لا الحصر:

بعض وجهات نظر عن مجتمعات الشرقين الادنى والاوسط:

ستتناول بعض وجهات نظر الاختصاصيين والمستشرقين والمستعربين عن مجتمعات الشرقين الادنى والاوسط، باستعراض موجز متذبذب نشوء الطبقات فيها وحتى العهود الإسلامية من دون ايراد التفاصيل والشروط والإستنتاجات، الا في القليل النادر لما يستوجب ذكره مع سياق البحث. ولما كانت العبودية قد ظهرت كضرورة حتمية منذ اقدم مجتمعات بلاد الرافدين، من عهد سومر واكد وقبلهما، ومصر القديمة وسهوب سوريا وسواحل لبنان وفلسطين وبعض سهوب شبه الجزيرة العربية وهضاب ايران ومرتفعات الاناضول ومناطق من القفقاس، التي شهدت الانقسامات

^{١١} الاقتصاد السياسي، ص.٨٨، وقد أشار الى مؤلف ماركس رأس المال: K. Marx, *Das Kapital*, Dietz Vekag, Berlin, 1951, Vol 111, p. 841.

^{١٢} الاقتصاد السياسي، ص.٨٨.

الطبقية وعرفت التبادل التجاري والتنظيمي الحكومي، فأننا سنتابع وجهات النظر منذ بدايات النظام الظبي حتى العصور الإسلامية:

* ورد في تاريخ العالم القديم:^{٢١٣} افضى تطور قوى الإنتاج: نمو الزراعة، انتشار تعدين النحاس والبرونز، أرتقاء الإنتاج الخزفي وغيره. في الآلف الثالث- الآلف الثاني إلى تميز اجتماعي عميق وظهور الأشكال البدائية للعبودية، حيث ساعد على بلوغ نجاحات مهمة في حقل الحضارة.^{٢١٤}

* كتب الاختصاصي بتاريخ الشرق القديم، ف. أى. أفينيف في مؤلفه تاريخ الشرق القديم:^{٢١٥} «لاشك أن نظام مجتمع الشرق كان أكثر تطويراً من المشاعية البدائية (كانت العبودية في ظروف انحلال المشاعية البدائية ظاهرة تمام الوضوح وطبيعية، لأنها عنت خطوة للامام بالقياس إلى المشاعية البدائية).^{٢١٦} ظهر في الشرق القديم أول تقسيم للمجتمع: العبيد وملوكهم ودول استبدادية لاسيما، التي لم يعرفها عهد المشاعية البدائية بعد. مع ذلك فإن التطور التقديمي لمجتمع الشرق القديم قد انحدر بمعنوي البطل. وبغض النظر عن ظهور الإنتاج البضائعي، الذي (تحقق في النظام العبودي وخدمه)،»^{٢١٧} ولدى ظهور التجارة،

^{٢١٣} حول هذه المناقشات، انظر: يوجين فارغشا [فارغا]، *القضايا الاقتصادية/السياسية للرأسمالية*، تعرّب احمد فؤاد بلبع، بيروت، ١٩٧٥ [[الفصل الاخير: الاسلوب الامسيوي للإنتاج، ص ٤٢٠-٣٩٥]]، ص ٣٩٨-٤٠٠، وانظر: حول نمط الإنتاج الامسيوي، لمجموعة من العلماء، ترجمة: جورج طرابيشي، بيروت، ١٩٧٣، [مقال يوجين فارغا حول نمط الإنتاج الامسيوي، ص ١٠٦-١٠٨، ص ٨٦-٨٣].

^{٢١٤} باشراف ف. ن. دياكوف وأس، آي. كوفاليف، ط ٢١، موسكو [بالروسية]، ١٩٦٢.

^{٢١٥} ن.م، ص ١٩٥، كذلك بنفس المعنى انظر: الصفحات ٥١-٤٩.

^{٢١٦} ط ١، موسكو، ١٩٤٨، ط ٢ منقحة، موسكو، ١٩٥٣، [بالروسية]

^{٢١٧} هذا الاقتباس ينقله أفينيف، *تاريخ الحزب الشيوعي المソفيتي*، دورة مختصرة، ص ١٠٤، *تاريخ الشرق القديم*، ط ١، ص ٥، ط ٢، ص ٩.

البدائية، بشكل رئيس المقايضة، فإن الاقتصاد الطبيعي لعب في دول الشرق القديم العبودية دوراً متقادماً. وبالاضافة إلى ظهور أول اشكال استخدام عمل العبيد المنظم في اقتصاديات العبودية الواسعة في الشرق القديم فقد احتفظ بأشكال الخدمة المنزلية^{٢١٨}.

* كتب المختص بشؤون الشرق القديم ولاسيما المصريات العالمة السوفيتية فاسيلي فاسيليفيچ ستروف في مقاله: مسألة تكوين مجتمعات الرق، وتطورها، وانحلالها في الشرق القديم^{٢١٩}: وهو الفصل الأول من كتاب: العراق القديم^{٢٢٠}: اما في بابل فقد لعبت المبادلة دوراً اعظم حتى في ذلك الوقت السحيق. فهنا نجد الطلب على الاخشاب والاحجر- وهما المادتان اللتان لم تكونا متوفرتين في وادي الرافدين، ولا يمكن الاستغناء عنهما في صناعة ادوات العمل البدائية- قد أدى في وقت مبكر جداً إلى نشاط فعال أكثر في المبادلة التي أصبحت، تبعاً لازدياد أهمية دور تقسيم العمل والنمو العام في القوى المنتجة، ذات اثر ملموس في تفكك نظام مجتمع النبلاء. ذلك لأن جماعات من العوائل الشرقية اخذت تنفصل عن بقية اعضاء مجتمع النبلاء.^{٢٢١}

* ومن بين العوامل المؤثرة في تفكك ذلك النظام يرى ستروف بأن حروب الغزو ضد الاقوام والقبائل المجاورة. فقد كتب: ولقد كان العامل المؤثر المماطل في علمية التفكك الداخلي لنظام مجتمع النبلاء يتمثل في حروب الغزو التي كانت تنظم ضد المجتمعات المجاورة، او القبائل التي تسكن حافة وادي النيل. فهذه

^{٢١٨} هذا الاقتباس يقلله افديف عن اي. ف. ستالين، مسائل الاشتراكية الاقتصادية في الاتحاد السوفيتي، موسكو، ١٩٥٢، ص ٥، تأريخ الشرق القديم، ط ١، ص ٥، ط ٢، ص ٩.

^{٢١٩} تاريخ الشرق القديم، ط ١، ص ٥، وط ٢، ص ٩. وينذكر في الصفحات ٤٣ و ٤٩-٤٨ من الطبيعة الأولى والصفحات ٤٦-٤٧، ٥٢-٥٣، ٥٠-٥١ من الطبيعة الثانية عن العبودية في سومروا وآك.

^{٢٢٠} انظر: هامش الفصل، رقم ٢٣.

^{٢٢١} انظر: هامش هذا الفصل، رقم ٢٣، ايضاً.

الحروب بآيجادها الامكانيات لاحداث توسيع آخر في نظام الرق، قد شددت
دورها من عملية التفكك.^{٢٢٢}

* ومما لاشك فيه أن الحروب تعتبر معيناً لايضب يمد الغزاة بالأسرى
الذين يحولون في الاغلب الى عبيد يستخدمون في مختلف الاستثمارات
والخدمات. وعن دور الحروب كتب ستروف: "ثم جاءت الحروب بعدد ملموس
من الارقاء، وظهرت مع ذلك ظروف ملائمة اخرى لتطبيق عمل الرق، وذلك
بظهور اتجاه لدى قسم من العوائل الثرية التي برزت من خلال عملية انقسامها
الى طبقات، نحو توسيع المناطق التي تجري زراعتها. بواسطه تعتبر من أقسى
اعمال البزل التي كانت تتجز على نطاق ضيق.^{٢٢٣}

* ويحلل ستروف مقوله انجلز: «من ان الانسان قد يكون هو الآخر سلعة،
على ضوء استخدام الرقيق في مختلف الاعمال الزراعية الشاقة من المجال
التاريخي والجنسى. بقوله: فهذه المبادئ الأولية في اعمال الري التي مكن ان
تحدث في مرحلة تفكك مجتمع البلاء، قد أكدتها المعلومات اللاستيميا بعلم
الاجناس». ^{٢٢٤} ذلك لاته في اعمال البزل (من حفر الترع، ورفع التراب وما شاكله)
لابد وان يتواضع العمل حين يكون الفرد المرغم على العمل تحت تصرف
شخص آخر. فتوسيع منطقة زراعية، وان كانت مساحتها غير كافية، في مسهل
مستنقع، لابد وان تنجم عنه زيادة ملموسة في المنتوج، وبذلك توجد الظروف
الملازمة لدعم العمل الرقيق الذي كان يهضم بمثل هذه الاعمال. وهذا هو السبب
الذى جعل قوة العمل لدى المجتمعات النبيلة في وادي الفرات والنيل (بقيمة)
لها في وقت مبكر، وان يتم اكتشاف (حقيقة) كبرى خلال تلك العصور القديمة

^{٢٢٢} العراق القديم، ص ٢٦.

^{٢٢٣} ن.م، ص ٢٦.

^{٢٢٤} ن.م، ص ٢٧.

في مثل هذه المناطق، نقول: «أن الإنسان قد يكون هو الآخر سلعة، وان القوة البشرية يمكن مبادلتها واستغلالها عن طريق تحويل الإنسان إلى رقيق».»^{٢٢٥} [فرديريك انجلز: اصل العائلة والملكية الlassيما والدولة، موسكو، الطبعة الروسية، ١٩٦٤، ص ٢٩٠].^{٢٢٦}

* في المؤتمر الثالث والعشرين للمستشرقين الدوليين المنعقد في كامبردج ١٩٥٤، بانكلترا قدم أ. م. دياكونوف بحثاً بعنوان: بيع الأراضي في العصر السابق لسرجون الاكدي Sale of land in Pre-Sargonie Sumer, I.M .Diakonoff

والبحث مطبوع باللغة الانكليزية على الاله الكاتبة (١٢) صفحة. جاء فيه: وفي حالة بلوغ مئات الهكتارات لا يمكن في الحقيقة ان تزرع من قبل العائلة المالكة لوحدها، ولا يوجد دليل على استعمال شامل لعمل العبد خاص بالمنازل الى عصر مبكر، مع ذلك توجد بعض الشواهد الوثائقية عن وجود قليل من العبيد الخصوصيين.

An estate measuring hundreds of hectares could certainly not have been cultivated by the owner's family alone, and there is no evidence of an extensive use of slave labour in private households at so early a period, evidence of the existence of a few-private slaves.²²⁷

* عن الدولة الاشورية جاء في كتاب تاريخ العالم القديم:²²⁸ تكون في نهاية الالف الثالث وفي القرون الأولى من الالف الثاني في آشور المجتمع العبودي..

²²⁵ يقتبس ستروف من: ن. ل. سلير، مقالات عن الثقافة الاقتصادية البدائية ص ٤٧، سنة ١٨٩٩: العراق القديم، ص ٢٧، هامش رقم (٨).

²²⁶ العراق القديم، ص ٢٧.

²²⁷ ن. م، ص ٢٧.

²²⁸ هذا هو النص الانكليزي للبحث وليس معه نصه الروسي.

ومن الوجهاء الملوكين، الظاهره بعد تشكيل الدولة الآشورية.

... النظام السياسي الذي يدعى بالـ(العهد الاشوري القديم) كان يحمل طابعاً انتقاليّاً من حكومة العبودية المبكرة المحافظة بعد بملامح مشاعية إلى الاستبداد العبودي.^{٢٢٩}

* كذلك يكتب تاريخ العالم القديم عن الفترات اللاحقة من تاريخ آشور ما يأتي: .. أن القرن الثامن ق.م تميز بالنسبة لآشور لاسيما بسرعة نمو عدد العبيد. عشرات الآلاف من أسرى الحرب المساقين إلى آشور من قبل الملوك الغزا، محولين إلى عبيد، الجموع الرئيسية منهم موجهة إلى الحياة الملكية والمعبدية. كان لدى سرجون في قصره مالا يقل عن (٤-٣٠٠٠) عباد». ٢٢-

* يشير كتاب الشرق القديم، بتحرير: ف. ف. ستروف^{٣١} ، إلى انتفاضة الفلاحين والعبيد بمصر في عام ١٧٥٠ ق.م. الواردة في ورقي بردى [احداتها محفوظة بمتحف الامميات بلينينغراد]^{٣٢} التي احمدت بمنتهى القسوة^{٣٣}: لأنَّ المنتقضين الفلاحين والعبيد أنفسهم لم يستطعوا ان يحتفظوا طويلاً بأيديهم في تلك الازمان بالسلطة. فلم يكونوا موحدين ولم يعوا ذلك بعد، سوى ان محق العبودية كلياً قادرٌ على تحسين اوضاعهم. انتفض المعدمون والعبيد ضد سادتهم، أقصى الكثيرون، واستوْحد على مالدى الاغلبية من ثراء، ولكنهم لم يقيموا انظمة جديدة في مصر.^{٣٤}

^{٢٢٩} انظر: الهمش رقم ٢٩ اعلاه.

۲۳- ن.م، ص۱۷۷

۲۳۱ ن.م.، ص ۱۸۵

٢٣٢ بالروسية، موسكو، ١٩٥١.

٢٢٣ (ج.م.) ص ٤٤-٤٧

٤٧١ ص ٢٣٤

ونتيجة لذلك، في عهد الأسرة الجديدة، امسكت هنا من جديد سلطة الملك، من أصحاب العدد والوجهاء، سلطة ملوك العباد.^{٢٣٥}

* ورد في كتاب تاريخ العالم القديم، عن أرارات: .. بموجب مالدينا من معطيات كان المجتمع الإلاراتي عبودياً.. إلى جانب الزراعة تطورت تربية الماشية كثيراً. ظهرت تربية الماشية في الهضبة الارمنية منذ العهد الحجري الحديث [النيلوطي Neolithie] ولم يفقد دور المرتبة الأولى حتى الازمات المتأخرة.^{٢٣٦}

* وعن دور الحرب في تزويد الدولة الإلاراتية بالاعداد الغفيرة من الأسرى الذين سرعان ما يحولون إلى عبيد، يذكر كتاب تاريخ العالم القديم: كان للاقتصاد الملكي والزعامة الثرية - الدينية طابع عبودي. كان عدد العبيد جسماً جداً، لأن كل حملة حكومية كان يرافقها استحواذ على الآف الأسرى، هكذا، على سبيل المثال، استحوذ ارغشتى في حملاته بالقفاقاس على أكثر من (١٨) ألف اسير، المحولين إلى عبيد. كان عمل العبيد يتناول، على ما يبدو، زراعة البساتين وزراعة العنب، رعي الاقطعان، إضافة إلى هذه الأعمال الاقتصادية تناول عمل العبيد أيضاً أشغال الحصون والقنوات.^{٢٣٧}

* شبه الجزيرة العربية وسوريا: ورد عنهمما في كتاب تاريخ العالم القديم: .. تمتد إلى الشرق والجنوب الشرقي من فينيقيا وفلسطين أراضي سهوبية سكانها في الأغلب قبائل رحالة يربون الماشية، ويتكلمون بلغات سامية. احتفظ هنا حتى الألف الأول ق.م. بالنظام القبلي وحتى ببقايا مهمة من نظام الأمومة. ولكن في بعض أماكن السهوب العربية والسورية تشكلت دول العبودية، فالعلاقات العبودية ظهرت في جنوب شبه الجزيرة العربية في

^{٢٣٥} ن.م، ص ٤٧.

^{٢٣٦} ن.م، ص ٤٧.

^{٢٣٧} ن.م، ص ١٨٨.

حدود الالف الثاني والاول ق.م. فهنا تشكلت بعض الدول العربية: الدولة المعينية، السبئية وغيرها. إنَّ معرفة نظام الدول العربية القديمة الاجتماعي والإقتصادي رديئة، بيد أننا نعرف بأنَّ العرب اعتمدوا علاقات اقتصادية وسياسية مع دول الشرق الادنى، بشكل خاص مع الفلسطينية، ساهمت مفارز عربية في نضال الدول الفلسطينية والسورية ضد آشور في القرن التاسع. أحدث تدرجين الأبل مقدمات لتطوير تجارة القوافل مع فلسطين ومابين المهرن، زيادة على ذلك مارس التجار العرب الجنوبيون التجارة مع الهند وافريقيا مستلمين من هناك العطور.

تسلىت في نهاية الالف الثاني ق.م من العربية الى سوريا قبائل ارامية مرببة الماشية والمتكلمة بأحدى اللغات السامية. أبعد الازاميون الاشوريين المراحمين وأنشأوا مجموعة دول عبودية، كانت دمشق من بينها الأكثر عظمة.^{٢٢٨}

* الكلدانيون: نقتطف ماكتب عن الكلدانيين من كتاب تاريخ العالم القديم: بقى طابع العبودية في العهد البابلي الخالدي [يقصد بالخالدي في بعض الكتابات الالمانية والروسية والسوفيتية الكلداني ح.ق. العزيز^{*}] في جوهره على

^{٢٢٨} ن.م، ص ١٨٩.

* ملاحظاتي على ان الخالديين يقصد بهم الكلدانيين: من الخطأ القول بأن الخالديين يقصد بهم الكلدانيين، فالخالديين او الكلدانيون هو من احد شعوب منظومة زاكروس وهو من الارين ، بينما الكلدانيين هم من الساميين، الاماكن التي خضعت للخالديين كما تبين ذلك في مخلفاتهم الاثارية وكتابات الاثاريين والرحلة الاجانب الذين زاروا تلك الاثار وكتبوا عنها امثال القس شولتز الذي قتل عام ١٧٨٠ م والجنرال راوبيستون الذي زار اثار الخالديين سنة ١٨٤١ ، وشيد القسن الفرنسي وليمان والفال سوليكي في سنة ١٩٥٢ وبصحبته الاثاري العراقي الدكتور محمود امين اجزاء من ارميلية وبدل الاناضول والاراضي الواقعه بين بحيرتي وان وارومية (المناطق الحدودية بين ايران وتركيا) وكونوا لهم دولة باسم اوراداتو في اوائل القرن التاسع قبل الميلاد واستمرت حتى

ما كان عليه نفسه في الألف الثالث - الثاني، عبودية مباشرة في الأغلب كانت مترتبة، أما عبودية الدين [إيقاء للديون حق العزيز]، فكانت كالسابق وقنية، متميزة عنها فقط، بأن لم تراع حقبة سنوات استرقاء الدين الثلاث، إذ بقي عبيد الدين بدار الدائن حتى عشر سنوات. التغيرات يمكن أن تستجلي فقط في العلاقة بعدد العبيد وفي العلاقة بطرق استغلالهم.

ساعدت حملات الملوك الخالدين [الكلدانين] على تضخيم هام لعدد العبيد، وإن لم يكن المقاسات نفسها التي في الدولة الآشورية.^{٢٣٩} * ويفيد كتاب تاريخ العالم القديم تحفظه على بعض آراء المستشرقين البرجوازين حول وجود مؤسسات صناعية في بابل في ذلك العهد؟

واخر القرن الثامن قبل الميلاد، بينما بلاد الكلدانين كانت تقع في المنطقة الغربية من الخليج الفارسي ، جنوبي العراق (عاصمتهم اور قرب الناصرية). وخلف الخالدين مسلة كثلة شين اي حجارة الزرقاء الواقعة على الحدود الإيرانية العراقية والقريبة من راوندوز ضمن الأراضي العراقية، دونت فيها باللغتين الخالية والآشورية وبالخط المسماوي أخبار ملوك الخالدين وحروفهم مع الآشوريين المعاصرين لهم، ووقع الكثير من اسر الجانحين والذين استخدموها كعبيد، والمتسالة موجودة الان في متحف طهران الايراني. وسموا بالخالدين نسبة الى معبدتهم الإله خالديا، وكانت عاصمتهم هي مُصادر العالية.

للتفاصيل ينظر: د. جمال رشيد احمد، و د. فوزي رشيد، تاريخ الكرد القديم، طبعة ١٩٩٠، ص ٣٧ - ٣٨، ٨٢-٧٨؛ فاضل قره داغي؛ ميزووى دىرىنى كورستان، تاريخ كردستان قديماً (بالكردية) وكتبه سليم (الكتاب الثالث) (دون مكان الطبع والمطبعة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨، ص ٦٥-٤؛ محمد امين زكي، خلاصة تاريخ الكرد وكورستان، ترجمة محمد علي عوني، طبعة ١٩٦١، ص ٥٩، ٩٨-٩٩، د. محمود الامين، مجلة سومر، الجزء الثامن القسم الاول، ١٩٥٢، ص ٥٣-٧١. ليوا وتهام، بلاد ما بين النهرين، ترجمة: سعدي فيضي عبد الرزاق، دار الشؤون الثقافية العامة، الطبعه ٢، ١٩٨٦، ص ٥١١، ٤٩٨، [د. حسام الدين النقشبendi]^{٢٣٩} ن. م.، ص ١٧٦.

جاء فيه: يؤكد بعض المستشرقين البورجوازيين، زعماً بأن في العهد الخالدي [الكلداني] كان في بابل (مؤسسات صناعية) ضخمة من استخدام العمل العبودي. بيد أنَّ هذا الادعاء ليس سوى تحديد اعتباطي (Modernization) لأنَّ الوثائق لا تتحدث إلا عن توزيع المعابد والمرابيب لمواد الأولية على دار الحرفيين - النساجين لعمل الأنسجة فقط.^{٢٤٠}

* ترد تسمية الكلدانين وكلدان وبني كلدان في الابحاث الاجنبية بالخالديين وخليدان وبني خالد، بما فيها كتابات ماركس وإنجلز والأدبيات الماركسيّة-اللينينية والكتابات الروسية والسوفيتية والالمانية الأخرى وسواءهما من اللغات. وأحسب أنَّ هذه التسمية قد جاءت من تداخل تلفظ حرف الخاء (KH) والكاف (K)، [أن رسمهما بالعبرية واحد والاختلاف بالتنجيم-التنقيط فقط].

والكلدان، كما يذهب قسم من المصادر العربية كالمسعودي، مروج الذهب،^{٢٤١} والتبيه والأشراف،^{٢٤٢} وأبن النديم، الفهرست.^{٢٤٣} وسواءهم على أنهم من السريان، أي من نبط العراق كما يطلقون عليهم. وللكلدان تسميات أخرى منها: كشديم- في العربية، وكشدو أو كدو. وقد ناقش د. هاشم الطعان هذه التسميات.^{٢٤٤} ويطلق ابن النديم عليهم أيضاً: كداني وكزداني. ويقول أنها

^{٢٤٠} ن.م، ص ١٩٢.

^{٢٤١} ن.م، ص ١٩٣.

^{٢٤٢} مروج الذهب ومعاذن الذهب، المسعودي، أبي الحسن علي بن الحسين بن علي،

تحقيق: محمد معن الدين عبد الحميد، ط٤، ط٤، القاهرة، ١٩٦٤، ٢١٥/١ و ٢١٩.

^{٢٤٣} للمسعود المُشار إليه أعلاه، طبعة بيروت بالاوفسيت، ١٩٦٥، ص ٢، ٧، ٨، ٣٤.

.٣٥، ٣٦، ٣٥

^{٢٤٤} الفهرست، لأبن النديم، محمد بن اسحق، طبعة بيروت بالاوفسيت، ١٩٦٤،

ص ٣١١، ٣١٢، ٣٥٨.

تسميات بالسريانية.^{٢٤٥} ومما يلاحظ في اللغة الروسية أن غالبية الكلمات التي من اصل اجنبي وفهها: Ch و Lch تكتب بالحرف X الذي يقابل حرف الخاء العربية [فكلمة كالكوليتي Chalcolithic العصر الحجري المعدنى] مثلاً تكتب بالروسية خاليكوليت ولقد سرى هذا الالتباس الى كتابات العديد من الباحثين والمترجمين العرب الذين ترجموا النصوص الالمانية والروسية او اعتمدوا على تلك الترجمان. انظر على سبيل المثال عزيز السيد جاسم في كراسه جدل القومية والطبقة،^{٢٤٦} فهو يذكر احياناً كثيرة خالدين وبني خالد.

* ورد في كتاب، عرض اقتصادي تاريخي،^{٢٤٧} عن آرارات مايأئتي: [على تخوم الالف الثاني والأول ق.م.] تكون فيما وراء القفقاس وعلى مرتفعات ارمينيا عدد من الدول العبودية الصغيرة تميزت منها دولة اورارتو التي بلغت ازدهاراً كبيراً في القرنين التاسع والثامن ق.م.

وقد تحولت اورارتو في مجرى النضال ضد الفاتحين الآشوريين الى دولة من اكبر الدول في العالم القديم. وكانت هذه الدولة تشتمل على جزء من اراضي الجمهوريات السوفيتية الحالية [السابق] فيما وراء القفقاس. كانت مملكة اورارتو تتصف بعلاقات عبودية تحفظ بمخلفات قوية من النظام المشاعي البدائي. فكان العبيد يتبعون سواء الافراد او

^{٢٤٥} مساهمة العرب في دراسة اللغات السامية [الموسوعة الصغيرة-١٩]، بغداد، ١٩٧٨، ص. ٣٣-٢٨.

^{٢٤٦} الفهرست، ص. ٣١١، ٣١٢، ٣٥٨.

^{٢٤٧} بغداد، ١٩٧٦.

^{٢٤٨} ن.م.، ص. ٢٨، هامش ٢، ص. ٤٨، هامش ٢، ص. ٧٦، هامش ٢ وغيرها.

المشاعيات. وفي اوراراتو قامت زراعة مروية متطرفة استخدم فيها، بصورة واسعة، عمل العبيد لدعها^{٢٤٩}.

* كذلك ورد في هذا الكتاب عن اليمن القديمة: «كانت المملكة المعينية العربية القديمة تشمل، عدا اليمن، على غرب حضرموت وساحل البحر الاحمر في شبه جزيرة العرب. وعلى الرغم من المخلفات القوية للنظام العشائري-القبلي، تطورت هنا العلاقات العبودية. وكان العبيد بصورة رئيسة فريقين- اثيوبيين ونوبين.. الخ. وقد بلغت الدولة ازدهاراً كبيراً، ففها انشأت اقنية الري والسدود الكبيرة، والقصور وغيرها من المنشآت.

وفي القرنين السابع والحادي عشر ق.م. جرى ابتلاء المملكة المعينية من قبل الدولة العربية القديمة العبودية المبكرة، التي ظهرت بعد المملكة المعينية والمعروفة باسم مملكة سبا. وهنا ايضاً كانت الزراعة متطرفة. وفي ضواحي مدينة مأرب التي أصبحت عاصمة مملكة سبا وجد سد مأرب المشهور في العالم القديم. وكان هذا السد المنشأة المركزية المنظومة الري في جنوب شبه جزيرة العرب على مرّ قرون وقرون..»

* ويبدي هذا الكتاب ملاحظة عامة هامة يقول فيها: «ان المعلومات المتعلقة بتاريخ بعض الدول القديمة تشهد على عمومية ومناعة قوانين التطور الاجتماعي. ففي كل مكان كان تطور القوى المنتجة يؤدي الى تفسخ العلاقات المشاعية البدائية والى نشوء العبودية، الى نشوء الدول العبودية التي كانت تأخذ، كقواعد، شكل الحكم الاستبدادي.»^{٢٥٠}

^{٢٤٩} الجزء الأول، تشكيارات ما قبل الرأسمالية، مجموعة من استاذة السوفيت بالعربية، بالعربية، نشر مكتبة التحرير، بغداد، بلا. ^{٢٥٠} ن.م، ص ٩٤.

* إسرائيل ويهودا:

سقوط إسرائيل ويهودا: ضمن هذا العنوان حول الوضع السابق لسقوط دولة يهودا، تطرق تاريخ العالم القديم: .. «جَرَبَ يُوشَعَ [ملك يهودا- ح. ق. العزيز]، والبلاد متحولة نحو الاستقلال، توطيد دولة العبودية: لقد خطط مركزة الادارة فكان اصلاح (٦٢٢ق.م) موجهاً للقضاء على الحكم الذاتي المشاعي.. الا ان الجزء الرئيس بالذات من الاصلاح مركزة العبادة في القدس، حيث حُرمت كافة الديانات المحلية وصفيت المعابد المحلية واصبح منذ الان معبد القدس المكان الشرعي الوحيد... ولم يغدو ياهو الاله الرئيس فحسب وإنما الاله الوحيد لم يهودا». ^{٢٥١}

لكن مركزة الادارة ودين الدولة لم تنفذ يهودا من السقوط نظراً لتفاقم الصراع الطبقي الذي تخر جسم هذه الدولة العاجزة، فيشير افديف الى ان هذه الاصلاحات كانت تتضمن صراعاً طبيعاً متفاقماً^{٢٥٢}. كذلك بين تاريخ العالم القديم: «الا أن محاولات مركزة الادارة هذه لم تستطع إنقاذ دولة يهودا. فلم تقطع اضطرابات الجماهير الشعبية المظلومة، فالعلاقات مع الملك قد تفاقمت أكثر فأكثر». ^{٢٥٣}

* ايران القديمة:

يذكر تاريخ العالم القديم عن جنوب غرب ایران: اظهرت التنقيبات، الجارية في ایران في الجزء الجنوبي الغربي من المضبة الايرانية، في مدينة سوسة العيلامية، وكذلك في برسبيول، تطور الحضارة المحلية منذ العصر الحجري الحديث. ووفقاً للنصب بالخط السومري - المصادر السومرية-

^{٢٥١} ن.م., ص. ٩٥.

^{٢٥٢} ن.م., ص. ١٧٣-٤.

^{٢٥٣} تاريخ الشرق القديم، ط١، ص. ٣٥٠، وط٢، ص. ٤٠٦.

فقد تشكلت في عيلام في الالف الثالث ق.م. في اودية الكارون والكرخا في
ایران، دولة عبودية مبكرة قديمة.^{٢٥٤}

* ميديا:

ورد في كتاب تاريخ العالم القديم عن ميديا المعطيات الآتية: «عاشت القبائل الميدية في الجزء الشمالي الغربي من الهضبة الإيرانية، إلى الجنوب من بحر قزوين. أنَّ معطيات الحوليات الأشورية التي يمنتهي الضفاف وآخبار هيرودوت تسمح على كلِّ حالٍ بافتراض أنَّ في القرنين الثامن-السابع ق.م. وقعت القبائل الميدية بمرحلة انحلال النظام القبلي. فروع اقتصادهم الرئيسة كانت الزراعة وتربية الماشية، وبما يبدأ معهما بالتطور من حرف.. يعلن الملوك الأشوريين في نقوشهم عن حملاتهم على الميديين واستيلائهم على أعداد كبيرة من الحرفيين الميديين، الذين تحولوا إلى عبيد. اشتهر الميديون القدامى بتربية الخيول، زد على ذلك أنَّهم أخذوا يستخدمون العربية بعجلات مدورة بوقت مبكر جداً. ظهرت العبودية لدى الميديين وأبتدأت تكتسب أهمية كبيرة جداً».^{٢٥٥}

* ... أما في عهد دارا الثالث (سنوات ٣٣٨-٣٣٠ ق.م) فأنا دولة الاخمينيين وقعت تحت ضريات الدولة العبودية الجديدة، المنشأة من قبل المكدونيين.^{٢٥٦}

* حول خطل رأي العلماء البرجوازيين وضعف إستنتاجاتهم لأسباب الانتقال من العبودية إلى الأقطاعية كُتب في تاريخ القرون الوسطى تعليل لذلك، فضلنا إيراده لما له من علاقة بالموضوعات المطروقة هنا، جاء فيه: كان العلماء

^{٢٥٤}. تاريخ العالم القديم، ص ١٧٤.

^{٢٥٥}. ن.م، ص ١٩٤.

^{٢٥٦}. ن.م، ص ١٩٦.

البرجوازيون ضعفاء في تفسير أسباب فناء المجتمع العبودي القديم وحلول المجتمع الأقطاعي محله. في أفضل الحالات أنهم قادرون على رسم [وصف] هذه او تلك الاعراض الخارجية لهذه الظاهرة. وعندما يُطرح سؤال عن عللها العميق، فأئمّهم يتملصون بعبارات لا معنى لها عن "تعرض العالم القديم لهم" عن «عدم وضوح انهاك قوى الإنسان القديم الحيوية» والخ.

أشدّ التفاسير خرقاً اعطتها العنصريون الالمان، الذين رأوا سبب سقوط الامبراطورية الرومانية في أنّ (العنصر الشمالي) كمؤسس للدولة الرومانية، لم يستطع الاحتفاظ بنقاوة عنصره، ولهذا كان انتصار ممثلي هذا العنصر [الاطهار] الجermanيون. وفي هذا التفسير السخيف كله، فلا الرومان ولا الجerman اعتبروا انفسهم ممثلي العنصر النقي مطلقاً. ولا تقل سخفاً الفكرة عن آية افضليات لعنصر على آخر. سمعت نظريات الكتاب الهتلريين لعنصرین التافهين هذه الى اسناد دعاية الكراهية العنصرية واعمال الحروب فحسب، وبها يحاكمهم بعد الان (علماء) وغير علماء متذلّفو الامبرالية الانكلو-أمريكية [ونستطيع ان نضيف لهم الصهاينة ايضاً ح.ق. العزيز].^{٢٥٧}

* اما بالنسبة لعلم التاريخ الماركسي - اللبناني فان في حلول العصور الوسطى محل القديمة يوجد تبدل من تشكيلة العبودية الى تشكيلة الأقطاعية، المنحدرة بنتيجة الانحطاط الداخلي الطبيعي [القانوني] وازمة تشكيلة العبودية في اكثر تعايرها مفعمة، التي نالتها في الامبراطورية الرومانية. هذا الانتقال الى الجديد. تشكيلة الأقطاعية، سارعت به انتفاضات العبيد والمستعمرين

^{٢٥٧} ن.م، ص ١٩٦، وحول نشأة الدولة العبودية المكدونية، انظر ايضاً: عرض اقتصادي تاريخي، ١٢٤-١٢٧/١.

[المستوطني (Settlement, colong)] التي خاللت المجتمع العبودي، وغزو البرارة، الذي اجتاح روما بعاصفة، كما يقول ستالين.^{٢٥٨}

* هناك رأي آخر لمحمد أ. داندامييف حول تناول موضوع العبودية يقول فيه: «يبدو لنا بأن محاولة عزل دراسة العبودية، مما يتميز به كثير من المؤلفين، تقود بحوث هذه المسائل إلى منعطف مسدود. معرفة غير كافية، بأن كذا من البشر يمتلكون مقدار ما من العبيد، الذين يعملون هذا وهذا، إن مسألة العبودية تمس جوانب الحياة الاقتصادية. المهم التقدير عامه [بأجمله]، محاولة فيهم، بماذا كان ملاك العبيد يتصرفون إضافة إلى العبيد. كيف تزرع الأرض، بم يمكن وصف اقتصاده. مثل هذه الطريقة تساعد من دون شك على فهم دور العمل العبودي، مقاييس تطبيقه بالمقارنة إلى عمل الحرار. لهذا نحن نحسب من الضروري للمعالجة في خطوة مقارنة ومادة مناظرة عن أدوار أعمال صغار ملاكي الأراضي، المستأجرين، الحرفيين والعمال الإجراء».»^{٢٥٩}

* كتب المستشرق السوفيتي يفغيني الالكسندر وريح بيلابيف في كتابه: العرب والإسلام والخلافة العربية، جاء فيه: «أما المصادر الموثوقة التي تتكلم عن نوعية النظام الاجتماعي الاقتصادي الذي كان معمولاً به في имبراطورية الساسانية المترامية الاطراف فنادر، وهي على قلتها».»^{٢٦٠}

تحتاج إلى دراسة دقيقة، أما بالنسبة إلى ما توصل إليه البحث العلمي الموضوعي فنجد أنه كان هناك أسليوبان متواجدان متبعان في الإنتاج في عهد

^{٢٥٨} باشراف الأكاديمي يه. أ. كوسمينسكي وعضو الأكاديمية المشارك س. دي، سكاركين، بالروسية، موسكو، ١٩٥٢.

^{٢٥٩} ن.م، ص ١٩، وهو يقتبس من: اي. ف. ستالين، المؤلفات، المجلد ١٣، ص ٢٠٦.

^{٢٦٠} العبودية في بابل، ص ٥.

^{٢٦١} ترجمة د. انس فريحة، بيروت، ١٩٧٣.

الاسرة الارساكية التي حكمت الامبراطورية الفرثية، وهمما الإنتاج القائم على الرق، والإنتاج القائم على النظام الكوميوني (المملكة المشتركة التي تملكها جماعة). اما نظام الاقتصاد القائم على الرق فكان شائعاً في ما كان يسمى سابقاً بلاد بابل (العراق الجنوبي) حيث كان الفلاحون يعتمدون الري الصناعي منذ اقدم العصور.^{٦٦٢}

* اما في العهد الساساني، فيشير ي. أ. بيلالييف ايضاً: «انتشر الرق انتشاراً واسعاً في عهد الساسانيين الذين استخدموه في الأعمال الزراعية، حتى اتهم القوا بأسرى الحرب من الرومان في الأرض الزراعية في بلاد بابل وخوزستان [الاحواز، ح. ق. العزيز] وفارس. وفي سنة ٢٦٠ عندما احاط جيش شابور الأول بجيش روماني كبير يقوده الامبراطور فاليريان نفسه على مقربة من مدينة أديسا وارغمته على الاستسلام، نقل الاسرى إلى الأرض المحيطة بهر كارون واجبروا على العمل في مشاريع زراعية ضخمة، تلك كانت السياسة العامة للقيادة الساسانيين في معاملة اسرى الحرب من الرومان. ويظن بعض علماء التاريخ ان الحملات الفارسية في عهد الساسانيين ضد الامبراطورية البيزنطية، كانت تستهدف، من جملة ما كانت تستهدفه، زيادة عدد الاسرى العبيد للتعويض عن النقص في عبيد الدول». ^{٦٦٣}

* وحول ازمة العبيد وتقلص استخدامه في الزراعة وظهور الأقطاع كتب ي. ا. بيلالييف: «حتى العراق، الذي عرف الرق وممارسه قبل اربعة آلاف سنة، شهد في القرنين الخامس للميلاد تناقضاً في أهميته بوصفه المصدر الرئيس للعمال الزراعيين. فالمتججون الذين يعقد عليهم قد اصبحوا فلاحين يملكون

^{٦٦٢} ويقتبس بيلالييف هنا القول من نينا بيكوفسكايا، مدن ايران في العصور الوسطى المبكرة، موسكو، لينغرايد، ١٩٥٦، [بالروسية]
^{٦٦٣} ن. م.، ص ٣٢.

ارضاً مشاعاً يشتركون في استثمارها بحسب النظام الكوميوني. ولكن عندما احتل هذا النظام وتفككت غرب الكومونية، اخذ زعمائهم يستولون على الأرض المشاع وعلى المياه التي تسقها وحولوا هذه الملكية العامة المشاعة الى ملكية لاسيما، وجعلوا من الفلاحين عبيداً أرقاء يؤدون الى أسيادهم الفاقد من مواسمهم- ثم صاروا يحولون بهم جزءاً من الغلال لا من الفائض- اما من كان يملك وسائل الري، فكان يستأجر الأرض ويؤمن وصول المياه بهم ثم يسلمها للفلاحين مقابل نسبة معينة من الغلة. وهكذا ظهر الى الوجود نظام الأقطاع القائم على نسبة معينة من الغلة (الربع او الثلث.. الخ) واصبح المنتجون يعتمدون على الذين يملكون وسائل الإنتاج.

وفي الوقت الذي ظهر فيه الأقطاع لأول مرة في الإمبراطورية الساسانية (لاسيما في الولايات المتحدة) ظهرت طبقة اجتماعية جديدة هي جماعة الفرسان، التي كانت تتالف من الملوك الصغار، وأحياناً من الملوك الوسط، والتي أخذت ارضها جزءاً لها على خدماتها العسكرية في فرق الخيالة».^{٢٦٤}

* كتب المختص بتاريخ العصور الوسطى البروفسور ف. سميتوف في كتابه: تاريخ العصور الوسطى،^{٢٦٥} عن إيران في عهد الساسانيين: وكان أملاك العبيد منتشرةً بالبلاد للغاية نوعاً. مستخدم العبيد من أجل العمل في المنشآت الإروائية وفي الأراضي الزراعية في ضياع الملوك والاشراف. أحتفظ بكثير من العبيد والأماء على هيئة خدم المنازل وفي الحرير. كانت تجارة العبيد من أكثر ميادين التجارة ربحاً الا انه يلاحظ بالحقيقة نفسها نمو وتوطيد الأقطاع لدى الساسانيين- حصل من استرداد الفلاحين- المشاعين.

^{٢٦٤} ن.م، ص ٣٢-٣٣.

^{٢٦٥} ن.م، ص ٣٣.

كانت جماهير الفلاحين الساحقة في بداية حكم الساسانيين حرجة بالذات. لأن الساسانيين وزعوا الأراضي بشكل واسع على الإشراف ورجال الدين الزرادشتيين ليكسبوا مساندتهم.

استخدم كبار المزارعين العبيد كقوى عاملة لفلاحة أراضيهم، لاسيما كان ببلاد ما بين الرين، المنضمة إلى دولة الساسانيين، كثير من العبيد بيد أن في إيران نفسها كان الفلاحون المشاعيون يشكلون الجمهور الأساسي للسكان، ولكن كلما استمر كلما توسع استعباد كبار المزارعين المجاور لهم من الفلاحين. المشاعيين الأحرار، محولين إياهم موضوع استغلالهم الأقطاعي.

* أمّا المختص بشؤون إيران البروفيسور م. س. إيفانوف، فيذكر في كتابه: دراسة في تاريخ إيران^{٢٦٦} بأن «من أول الساسانيين حتى القرن الخامس كانت علاقات العبودية منتشرة على نطاق واسع وبصورة رئيسية بين سكان إيران الأحرار وكذلك الارتباطات القبلية، ولكن وسط السكان الأحرار قد نشأت عملية التمييز الطبقي، فغالبيتهم تحولت إلى طبقة الفلاحين التي بدأت تستغلها تدريجياً الاستقرائية الأقطاعية مالكة الأرض وارستقرافية مالكة العبيد وكبار رجال الدين والعسكريين».^{٢٦٧}

* يرى المختص بالإيرانيات م. م. دياكونوف [وهو شقيق المختص بالأشورييات العلامة إغور م. دياكونوف]: «السؤال عن تركيب المجتمع الإيراني الساساني معقد جداً وكثير منتهي لم يقرر في العلم بعد». ^{٢٦٨} ولهذا

^{٢٦٦} [بالروسية]، ط٢، موسكو، ١٩٦١، ص ١١٨.

^{٢٦٧} [بالروسية]، موسكو، ١٩٥٢.

^{٢٦٨} ن.م، ص ٢٧ ، ملاحظة: كنا نطلق كلمة موجز لدى ترجمتنا لكلمة اوجرك الروسية التي تعني [دراسة study ومخطط او تمثيل sbtetch ومقالة essay] موجز هي اقرب الى الاستعمال

فأن دياكونوف نفسه يرى بأن تحليل حالة الفلاحين وتركبهم الاجتماعي من المهمات الصعبة.^{٦٩} ويعزو ذلك إلى «ان انعكاس وضعية الفلاحين جد صعب في المصادر الساسانية».^{٧٠}

* كذلك كتبت إينا أ. بيكلوفسكايا: إن المسألة جد معقدة ولكن الامتناع عنها ممنوع.^{٧١} عند كلامها عن المجتمع الإيراني الساساني.

* بينما نجد البروفسور زاخودير، ب. ن. بقرن العلاقات الأقطاعية باصلاحات كسرى آنوشروان المالية حيث كتب: «ان اصلاحات كسرى الأول ألغت بصورة رئيسية لمصالح اشراف الفرس.. ولهيئته عليا من تجار ومرابي المدينة المتحدررين بدرجة كبيرة من العسكريين السريان».^{٧٢}

إن هذه الاصلاحات عنت أقامة علاقات الإنتاج الأقطاعية في إيران بعد سحق الحركة المزدكية، فالفلاح المتحرر تحول إلى فلاح تابع.^{٧٣}

* حول اصلاحات كسرى آنوشروان كتب م.م. دياكونوف: «التوطيد المسبق للتركيب الأقطاعي كان في ثبيت اصلاحات وريث قياد-كسرى الأول».^{٧٤}

* كتب عن أزمة العبيد والهبوط الاقتصادي الذي حدا بارستقراطي إيران، مالكي الأعداد الهائلة من العبيد، ودفع بهم إلى تشغيل عبيدهم في الزراعة

العربي اصطلاحاً تبين لنا أخيراً بان دراسة هي الادق تعبيرياً، ولهذا سوف نلتزم باستخدامها إلا إذا كان المقصود هو المقالة أو المخطط التمهيدي (المسودة) او المختصر.

^{٦٩} دراسة في تاريخ إيران القديم، بالروسية، موسكو، ١٩٦١، ص ٢٧٨.

^{٧٠} ن.م، ص ٢٨٠.

^{٧١} ن.م، ص ٢٨٠.

^{٧٢} مدن إيران في العصور الوسطى المبكرة، ص ٢١١.

^{٧٣} تاريخ القرون الوسطى الشرقية (الخلافة والشرق الادنى)، موسكو، ١٩٤٤، بالروسية، ص ١١.

^{٧٤} ن.م، ص ١٨.

ومنهم قليلاً من الحرية، عندما أصبحت الزراعة المجال الأوسع للكسب، وهذا التشغيل بدوره ساعد بصورة عامة على ظهور أزمة العبيد وعميقها، وادي إلى التحول نحو الاستغلال الجديد- الاستغلال الأقطاعي. كتب عن ذلك الاقتصادي البروفسور ق. يا. بوليانسكي، في كتابه: التاريخ الاقتصادي للبلدان الأجنبية،^{٢٧٥} ونينا آ. بيكونفسكايا، في كتابها: مدن ايران^{٢٧٦} وغيرهم.

* اوردنا في مؤلفنا: البابكية.^{٢٧٧} بعد أن ذكرنا: ... وكانت سود بلاد آذربيجان وأرمينيا العبودية ، مجتمع العبيد) حتى القرن الرابع الميلادي،^{٢٧٨} اوردنا نصوصاً لوجهات نظر متباعدة منها: ما ورد في تاريخ الاتحاد السوفيتي، الجزء الأول، «انه وجد في القفقاس في القرنين الثالث والرابع المجتمع الأقطاعي»،^{٢٧٩} ومنها ما ذكره تاريخ العالم العام،^{٢٨٠} الجزء الثالث: أقصى الصعوبة في رسم الصورة التاريخية الملحوظة لترتيب المجتمع الأقطاعي المبكر، المسائد في بلدان القفقاس-أرمينيا، جورجيا، البانى [آذربيجان السوفيتية السابقة] وآتروبيتين [آذربيجان الإيرانية] في القرون الثالث-الناتس، بسبب ضيالة المواد الموجودة عن هذه المسألة في المصادر. ما من شك انه فقط في القرن الرابع حصلت في بلدان القفقاس سيرورة عملية تركيز (Concentration) الارضي المزروعة والمراعي بيدى الsherاف العسكريين والعائدية سابقاً للمزارعين المشاعيين. ظهر التملك الأقطاعي الخاص للأراض والمياه (الأنهار، القنوات) وزال الsherاف ملوك العبيد.^{٢٨١} وأشار تاريخ

^{٢٧٥} دراسة في تاريخ ايران القديم، ص ٣٠٩.

^{٢٧٦} التاريخ الاقتصادي للبلدان الأجنبية في عهد الأقطاعي، بالروسية، موسكو، ١٩٥٤، ص ١٢٣.

^{٢٧٧} ن.م، ص ٢١٧.

^{٢٧٨} بيروت، ١٩٧٤.

^{٢٧٩} ن.م، ص ٤٦.

^{٢٨٠} الجزء الأول، موسكو، ١٩٦١، بالروسية، ص ٤١.

^{٢٨١} بالروسية، موسكو، ١٩٥٧.

العالم العام في الهاشم إلى ملاحظة هامة، حيث كتب: انظر: المجلد الثاني من تاريخ العالم العام، ص (٧٦١-٧٧٦) بعض العلماء السوفيت يتمسكون بالفكرة الآتية: بأن بلدان القفقاس لم تمر بمرحلة تشكيلة العبودية بتاتاً وأن عملية الانتقال إلى الأقطاعية (Feudalization)^{٢٨٢} بدأت هنا مبكرة في القرن الثالث الميلادي بصورة محسوسة.

* نعيد، ما أوردناه في الفصل الأول، وجة نظر أigarov M. دياكونوف، لما لها من علاقة بهذا الصدد، حيث توصل دياكونوف إلى إستحالة ظهور المجتمع الأقطاعي مباشرة من المجتمع المشاعي [ألا في حالات معينة]^{٢٨٣}، وإلى «أن في المدن في المرحلة المتأخرة من المجتمع القديم، أي في الشرق الأدنى، بدأً من أواخر العصر الآشوري وحتى أوائل العصر السasanاني، مروراً بالمرحلة البيلينية، فإن ما وصفناه أعلاه من بنية علاقات الإنتاج العبودية، بالمعنى الذي عرضناه لهذا المفهوم تستمر بالبقاء وتندلع». ^{٢٨٤} هذا الاستنتاج قد توصل إليه دياكونوف لأنّه يرى بأنّ جميع مجتمعات العالم القديم تشتراك بملامع عالمية – تاريجية واحدة. غير أن هذا لا يعني أن دياكونوف لا يرى الفروق الحادة جداً بين النماذج المختلفة من المجتمعات القديمة نفسها ولكنّه يخلص إلى استدراك مهم، حيث قال: «ألا أن هذه الفروق ليست بين تشكيلات أو أساليب انتاج متوازنة، وإنما بين طرق لتطور التشكيلة القديمة نفسها...»^{٢٨٥}

* حول ظهور الأقطاعية وتوطينها في إيران كُتب في تاريخ بلدان آسيا الأجنبية في القرون الوسطى ما يأتي: يمكن ربط توطيد المملكة الجديدة بظهور

^{٢٨٢} ن.م.. ١٣٢/٣.

^{٢٨٣} ن.م.. ١٣٢/٣، هامش رقم (٤).

^{٢٨٤} الهاشم ١٤٤، [الملامح الأساسية، مجلة دراسات عربية، ١٢٨/٤].

^{٢٨٥} هامش الفصل الأول، ١٤٥ عن [الملامح الأساسية، مجلة دراسات عربية، ١٢٨/٤].

بدايات الأقطاع في إيران: فأزمة العبيد الشاملة في القرن الثالث الميلادي جمّيع حوض البحر المتوسط وأسيا الصغرى، والقفقاس، قد مسّت هذه البلاد. وتبعد عناصر عملية الانتقال إلى الأقطاعية (Feudalization) أكثر وضوحاً إلى نهاية القرن الخامس. وكان رد الفعل الثقافي ضد الهيلينية التعليل الآخر لانتصار الساسانية السهل نسبياً^{٢٨٦}.

* كتب البروفسور اي. ب. بروشيفسكي عن تكوين الدولة العربية الإسلامية، جاء فيه، «عند الحديث عن الجزيرة العربية في بداية القرن السابع: لم يكن التطور الاجتماعي والإقتصادي والثقافي للأقاليم الشمالية والجنوبية متباهاً.

فقد تحقق في الجنوب، في اليمن، منذ الألف الأول قبل الميلاد تطوير الزراعة المؤسسة على الأرواء وتربية الماشي البدوية. فتشكل هنا المجتمع العبودي المبكر مع النمط الابو [البطرياري] (لدى البدو الرحل). عاش الأشراف المتحضرون في المدن أو في القصور المالكين في المناطق الزراعية اراضي مزروعة - حقول وبساتين ومزارع العنب التي يعمل فيها العبيد. وساهم قسم من الأشراف بقسط واسع بالتجارة، الخارجية والترانزيت. لقد كان في مدن مأرب، صنعاء، ظفار، معين، نجران وسواها إدارة مدنية ذاتية على طراز دولة المدينة (Polia) الاغريقية، على رأسها المسود مجلس الراشدين-المتحדרين من عوائل الأشراف. كان المزارعون المشاعيون الاحرار يمتلكون القنوات وباقي المنشآت الاروائية بصورة جماعية... بقي النظام الابو- المشاعي في الأجزاء الشمالية الوسطى من شبه الجزيرة العربية إلى بداية القرن السابع الميلادي. لقد تشكّل في ارحامه مقدمات تشكيلة طبقية. ظهور الاثرياء: التجار والمربّون وملّاك الارضي

^{٢٨٦} هامش الفصل الأول ١٤٦ [الملامح الأساسية، مجلة دراسات عربية، ١٢٩/٤ ، انظر: مجلة الثقافة، العددان الخامس والسادس، السنة الحادية عشرة، ص ٥٥]

المزروعة والقطعان الكبيرة من الماشية والغبيض. الا ان نمط التملك العبودي لدى العرب لم يتطور الى اسلوب سائد في الانتاج».^{٢٨٧}

* يرى ف. ف. سميتوف، هو يعتبر تاريخ العرب والمسلمين الوسيط يتكون من ثلاثة عهود: (١) العهد الأول ويتألف من ثلاثة اقسام:
ا. العهد المكي-المديني، ب. عرب ما قبل الاسلام، ج. ظهور الاسلام. ٢. العهد الثاني، العهد الدمشقي، ٣. العهد الثالث، العهد العباسي حتى الاحتلال المغولي، يرى بأن هذه العهود التقويمية الثلاثة، المرتبطة بمراحل الخلافة العربية السياسية المختلفة، تتطابق بصورة اساس مع تطور الأقطاع العربي: اذ يكشف العهد الأول بداية سيرورة عملية التحول الى الأقطاع في المجتمع العربي فحسب. بينما تتوارد في الثاني، ولا سيما الثالث، الملامح المميزة للأقطاع العربي، الحائز بالقياس الاوربي، على طائفة من الاختلافات الهامة. اما بالنسبة لدول اليمن القديمة، فيشير سميتوف بقوله: «الاطراف الاكثر زراعة في العربية كانت المقاطعة الجنوبية الغربية-اليمن او "العربية السعيدة" حيث كانت في الماضي بعض دول العبودية المهمة نوعاً، تحل الواحدة محل الاخر بالتتابع».^{٢٨٨}

* كتب ي. أ. بيلايف: وهكذا نرى أنّ سكان الجزيرة العربية في القرنين الخامس والسادس، كانوا مجموعة من بدو رحل ومن متحضرین يعيشون على الزراعة. وقد لاحظ كارل ماركس هذه الظاهرة، فكتب في أحدى رسائله،

^{٢٨٧} مجموعة من العلماء السوفيت، بالروسية، موسكو، ١٩٧٠، وهذا الاقتباس من الفصل السابع الذي بعنوان: ايران في القرون الثالث-السابع، اشترك في كتابته كل من نينا بيكلوف كايا، العضو المشارك باكاديمية العلوم السوفيتية، و.أ. اي. كولسيكوفي، ص ١١٢.

^{٢٨٨} تاريخ بلدان آسيا الاجنبية في القرون الوسطى، الفصل الثامن، ص ١٢٢، انظر ترجمتنا: لهذا الموضوع في: مجلة الثقافة الجديدة العدنية، السنة الخامسة، العدد ١٠/٩، اكتوبر ١٩٧٦، ص ٨-٧.

يقول: «منذ أن ابتدأ التاريخ المدون نجد في الشرق أرتباطاً عاماً بين الحياة الحضرية المستقرة لدى جزء من الشعب وبين الحياة البدوية المتنقلة لدى جزء آخر منه». ^{٢٨٩} كانت غالبية سكان الجزيرة العربية في هذه الحقبة التي نحن بصددها - باستثناء سكان اليمن المتحضررين - تعيش في نطاق الترابط الجماعي البدائي، «في هذه الحقبة التي لم يكن فيها المجتمع البشري قد تصنف بعد إلى طبقات اجتماعية متميزة، لم يكن هناك وجود للحكومة ومؤسساتها المختلفة. فكان العرب يعيشون في ظل نظام القبيلة والعشيرة الذي يعتمد على صلة الرحم والقرابة والنسب، .. وكان استخدام العبيد في تربية الماشية وفي الزراعة التي تعتمد الري أمراً لامفر منه قط. وأكثر العبيد كانوا من الغرباء الأجانب». ^{٢٩٠}

* ولبيلايف ي. أ. بحث في كتاب: رفيق الملحد، ^{٢٩١} وعنوان: الإسلام، جاء فيه: «كان الإسلام واحداً من أكثر الأديان انتشاراً. ظهر في الجزيرة العربية في بداية القرن السابع. وفي هذه الأزمان تعرض نظام القبائل الرحالة والحضارة المشاعية في الجزيرة العربية للأنحلال أكثر لقد ظهر في كل قبيلة عربية طبقة سائدة، أو الرئاسة السائدة، التي منها يبرز قادة (شيخوخ) القبائل [هذه الفكرة موجودة في الفقرة السابقة ولم توردها خشية الإطالة- ح. ق. العزيز]. ^{٢٩٢} سرعت ظاهرة العبودية وأملاقي الكثير من بسطاء الرحالة-

^{٢٨٩} تاريخ العصور الوسطى بالروسية، وهو مؤلف للمعاهد الابتدائية، موسكو، ١٩٦١، ص ١٢٣.

^{٢٩٠} العرب والإسلام والخلافة العربية، ص ٩٧، والاقتباس من رسالة من ماركس إلى

أنجلز ٢ حزيران ١٨٥٣.

^{٢٩١} ن. م.، ص ٨-٩٧، ص ١٠٧.

^{٢٩٢} المجموعة من العلماء السوفيت، بالروسية، موسكو، ١٩٦١.

الرعاة التناقضات الاجتماعية التي دعت بدورها إلى اشتعال أواى
الصراعات الطبقية في القبائل العربية».^{٢٩٣}

* كتب المختص بالدراسات الفلسفية بجمهورية المانيا الديمقراطية [آنذاك-
د. حسام] البروفسور هيرمان لي (Hermann Ley) في كتابه: دراسة في تاريخ مادية
القرون وسطية^{٢٩٤}: «حلت، في عهد ظهور الإسلام، علاقات الإنتاج الأقطاعية
بشكل نهائي محل علاقات إنتاج النظام العبودي».^{٢٩٥}

* ناقش الاقتصادي البولندي اوسكار لانكه، كما بينا سابقاً- موضوعة
نمط الإنتاج الآسيوي، واتماماً لوجهات النظر نورد قسماً آخر من أقواله.
يقول لانكه: «وتختلف الآراء حول نوع العمل المستخدم في النظام الاجتماعي
الآسيوي. هناك رأي واسع الانتشار، يشارك فيه ث. اوستروفيتيانوف،^{٢٩٦}
وهو أنَّ العمل هناك عمل العبيد. وهو يذكر أنَّ هذا النظام الاجتماعي إنما
هو عبارة عن أسلوب إنتاج يكون شكلاً من العبودية، وتكون أكثريَّة الناس
فيه عبيداً مملوكون للملك. بيد أنَّ هذا يبدو تبسيطًا مفرطاً، لأنَّ النظام
الاجتماعي الآسيوي، احتفظ لآلاف من السنين بالمجتمعات القروية التي
تولدت عن المجتمع البدائي. وهذا هو ما لاحظه ماركس من قبل».^{٢٩٧} وعلى

^{٢٩٣} انظر: العرب والإسلام والخلافة العربية، ص ١٠٧، وما بعدها.

^{٢٩٤} رفيق الملحد، ص ١٨٧.

^{٢٩٥} هذا الكتاب مؤلف بالألمانية: Hermann Ley, *Sturz Zur Geschichte Des Materialismus Im Mittelalter*, 1957 Berlin.
وقد ترجمه إلى الروسية ز. ف. كورلوفا

. وأي. أ. ساتس، موسكو، ١٩٦٢.

^{٢٩٦} ن. م.، ص ٤١، (النسخة الروسية).

^{٢٩٧} الاقتصاد السياسي، ص ٨٩، ويشير في الهاشم ص ٣٨٤: انظر: بالروسية:
Distrovitianov, (*An Outline of the Economico of Pre-Cojita Formation*),
pp.46-49.

الرغم من وجود العبودية في المجتمعات الآسيوية القديمة كانوا أشبه بالاقنان الملزمين بدفع الضرائب إلى الدولة عيناً، وتوضح طرق المدفوعات هذه الرسوم الجدارية في القبور المصرية القديمة) والمساهمة في أعمال السخرة قسراً^{٢٩٨} ويأخذ فائض المنتوج، عند ماركس، شكل ضريبة عينية أو خدمة عمل.^{٢٩٩} وقد حاول بعض المؤلفين، بناءً على هذه الملاحظة، تعريف النظام الاجتماعي الآسيوي بأعتبراه نوعاً من الأقطاع، مستعملين اصطلاح الأقطاع البيروقراطي.^{٣٠٠} وهذا هو أيضاً أفراط في التبسيط. إذ أنَّ النظام الاجتماعي الآسيوي نظام مستقل، فيه الضرائب العينية، والعمل بالسخرة القسرية، والعبودية، تجتمع في أسلوب انتاج موحد يقوم على ملكية الدولة للأرض ومشاريع الري الجماعية الكبيرة.^{٣٠١}

^{٢٩٨} الاقتصاد السياسي، ص. ٨٩، ويشير في صفحة ٣٨٤ في الهاشم رقم ١٦ إلى كارل ماركس: K. marx, *Capital*, ed. Cit, Vol. 1, P. 378-379.

ان بساطة نظام الإنتاج في هذه المجتمعات المكتافية ذاتياً التي تتکاثر وتتناسل باستمرار والتيت تقوم بإعادة بناء نفس المجتمعات في نفس الواقع وبنفس الأسماء اذا ما تحطمته صدفة هذه البساطة هي التي تحل لنا لغز انعدام التغير في المجتمع الآسيوي، الذي يتعرض مع انحلال الدولة الآسيوية وإعادة بنائها المستمرة تعارضياً وكذلك مع التغير الدائم في السلالات الحاكمة. وبقى تركيب العناصر الاقتصادية للمجتمع غير متاثر بزوابع الجو السياسي).

^{٢٩٩} الاقتصاد السياسي، ص. ٨٩، ويشير في ص ٣٨٤ في الهاشم ١٧ إلى ذلك بقوله: فمثلاً كانت العبودية في الهند منزلية في الغالب، ولم تلعب دوراً مهماً في الإنتاج الزراعي.

^{٣٠٠} ن.م، ص. ٨٩، وأشار في ص ٣٨٥، إلى كارل ماركس في الهاشم ١٨.

K. Marx, *Das Capital*, ed. Cit, Vol 111. P. 841.

^{٣٠١} الاقتصاد السياسي، ص. ٨٩، وأشار في الهاشم ١٩، ص ٣٨٥ إلى مايلي: Great Soviet Encyclopedia 1936, Vol 32< Article Entitled "Kitai".

* يختتم ف. ف. ستروف بحثه: مسألة تكوين مجتمعات الرق.. بقوله: «-
الآن وقد بلغت نهاية بحثي فأنا أأمل أن أكون قد هيأت قدرًا وافياً من الأدلة
الثابتة التي تبرر تحديد المجتمعات الشرقية كمجتمعات للرق بالمعنى الواسع
لهذه الكلمة (ولو أنها لم تكن مطابقة مع المجتمعات القديمة التقليدية)
وليس كمجتمعات اقطاعية».٢٠٢

هذا غيض من فيض لبعض وجهات نظر علماء مختصين ومستشرقين
ومستعربين من بلدان اشتراكية حول مجتمعات الشرقيين الادنى والوسط.
وهي ان تجمع على ظهور الطبقات ومرورها بتشكيلات العبودية والأقطاعية
فإن استمرار الاختلاف بين البعض لايزال جاريًّا.

فلا غرو اذن ان استطال الاستطراد هنا ولا أحسب [كما سيظن
البعض] ان في ذا شططاً وعزوفاً عن النهج العلمي السليم. طالما كانت رغبتنا
في اطلاع القارئ العربي ولو على بعض، وليس على كل، وجهات النظر
العلمية المتباعدة حول هذه المسألة هي المبرر والداعي الى استعراض هذه
المختارات من الآراء والشواهد كمثلة من دون ذكر التفاصيل والتعليقات مع
ترك بقية الآراء والمناقشات الواسعة، كالتي حول الإنتاج الآسيوي (التي يشير
يه. فاركه الى طرف منها)،٢٠٣ وعن التملك الخاص للأرض، وعن طبيعة
العمل المستخدم في كل تشكيلة وسواها، الى مجال آخر حيث لامكان

وقد وصف جوزيف نيدام المجتمع الصيفي ابتداء من عائلة هان الحاكمة باعتباره
اقطاعياً بiro وقارطاً في كتابه عن:

Science and Civilization in China, Cambridge, 1954, Vol. I PP. XXXVII.

ويوجه نيدام الانتباه ايضاً هو حقيقة ان العبودية لم تلعب دوراً مهماً في الإنتاج. انظر

ص ١٠٩، وص ١١٩.

٢٠٢ /الاقتصاد السياسي، ص ٨٨-٩.

٢٠٣ /العراق القديم، ص ٩٨.

للدخول في تفاصيلها هنا. وإنما أوردنا بعض وجهات النظر كمقدمة للدخولنا
في موضوع دولة العبودية في اليمن والأنباط وتدمير.



دول اليمن

توطئة:

لاشك أن ضياللة بل في الحقيقة انعدام المصادر الوثائقية عن حياة الشعب اليمني القديم في عصور ما قبل التاريخ، الممتدة في دياجير معتمة، إلى أقصى عمق زمني سحيق، تشكل، امام قسم من الباحثين، مشكلة محيرة مريرة، فتدفع البعض منهم إلى الاجحاج عن الخوض فيها، بينما يعتبر البعض الآخر [الباحث اليمني عبدالله احمد الثور، مثلاً^{٣٠٤}] تلك العهود تاريخاً غير حقيقي وخرافي. بيد أن الأضواء التي سلطتها دراسات علماء الجناس والعرافة وأبحاث العلماء عن الشعوب البدائية، في القرون الثلاثة الأخيرة وما أستندت عليها من الدراسات الماركسية-اللينينية [انظر بالذكر مؤلف انجلز-اصل العائلة]- عن عملية تطور البشرية، وبحوث المختصين بتاريخ العالم القديم، عن الجزء المتعلق بسيرورة تطورات الشعوب البدائية في الماضي السحيق، تسمح لنا بسر اغوار ماضي اليمن وكشف حجبة السمية من غير تردد أو خوف أو جل من التخطيط العشوائي، كحاطب ليل، وإنما السير بثقة في عمق هذا الماضي ببصيرة نافذة نحو الأقتباس والمقارنة والاستنتاج، لاسيما وان الشعوب، بأعتراف غالبية العلماء، قد حلّت بها التغيرات بملامح عالمية تأريخية مشتركة، بانتقالها مثلاً من الوحشية إلى البربرية ومن زعامة الام إلى زعامة الاب ومن تكون المجموعات ذات صلات رحم وقرابة- رابطة الدم- العشيرة والقبيلة أولاً ثم إلى تفسخ النظام العشائري القائم على القرابة الدموية إلى قبائل

^{٣٠٤}القضايا الاقتصادية/المجتمعية للرأسمالية، ص ٤٠٢ وما بعدها.

ترتبطها روابط اقتصادية سياسية نتيجة تغير اسلوب الإنتاج الجماعي الى الفردي وسبب التحالفات القبلية الواحدة واستحواذ القوية على مصالح القبيلة العامة وتوجهها لمصالحها الذاتية وبالانتقال من المجتمع الجماعي الى المجتمع الظبيقي. فعملية التطور لدى تلك الشعوب متباينة في مساراتها العامة ماعدا، طبعاً، بعض الفروق الجزئية لأسباب موضوعية. وبالاضافة الى هذه الدراسات عن أحوال الشعوب وتطورها، التي نستنير بها في دراسة احوال الشعب اليمني القديم، فإنّ ماتعكسه الروايات والملامح والقصص الفولكلورية والاخبار المروية سواء التي انتقلت في حينها الى اللغات المعاصرة، العربية والاغريقية واللاتينية والسريلانية وغيرها او التي وصلت فيما بعد الى العرب والمسلمين شفافها، رغم أنّ اغلبها عن حقب متأخرة وشبه اسطورية وذات اصول ادبية وملينة بالغموض والتناقض [كاستورة اصل ونسب فحطان، يقطان، مثلاً، الذي يعتبر رب اسرة او جد اعلى لاول اسرة قوية نتعرف عليها]. تساعد ايضاً على التوصل الى استنتاجات قياسية عن حالة الشعب اليمني القديم، ولنا في هذا النهج اسوة بما انتهجه جورج تومسن، الذي افلح في تحليل المجتمع اليوناني السابق للطبيقي من خلال الاساطير والقصص والمؤثرات الاغريقية، وبمساعدة الدراسات التقديمية العلمية الحديثة، في مؤلفه: اسخيلوس وأثينا، دراسة في الأصول الاجتماعية للدراما.^{٣٠٥} فلما يمكن اذن التملص، بأي حال من الاحوال، من تحليل المجتمع اليمني السابق للعصور التاريخية مهما تكون الحجج. يقول الاستاذ سلطان احمد عمر:^{٣٠٦} «انه لا يمكن التحدث -بالطبع- عن مرحلة النظام المشاعي القبلي في المجتمع اليمني باعتبار تلك المرحلة خارجة عن إطار التاريخ اليمني

^{٣٠٥} هذه هي اليمن، ط٢، بيروت، ١٩٧٩، ص.٩٨.

^{٣٠٦} ترجمة: د. صالح جواد الكاظم، بغداد، ١٩٧٥.

المكتوب والمفهوم. ومع ذلك يمكن لنا ان نؤكد ان المجتمع اليمني قد مر بتلك المرحلة التاريخية التي عاشتها مجمل الجماعات الإنسانية في جميع أنحاء الأرض في مرحلة تطورها الأولى [اي مرحلة المشاعية البدائية] ولازال بقابيا مظاهر المشاعية البدائية قائمة في المناطق الرعوية من اليمن حيث تشارك القبيلة كلها في ملكية اراضي الرعي.»^{٣٠٧}

تظهر الحقب المتأخرة من مرحلة المشاعية في اليمن في الروايات العربية بشكل اوضح من الفترات البعيدة. وعلى الرغم من طبيعة تلك الروايات والقصص، التي أشرنا إليها سابقاً، فإنها تحتوى على معلومات توضح ملامح من الحقبة المشاعية المتأخرة بشكل جيد ففي تشير بشكل واضح وجل واحياناً بشكل تفصيلي الى ان كل شئ في عالم العشيرة وما يحيط بها كان ملكاً مشاعاً للقبائل الرحالة والمستوطنة، فالصيد وارض الحمى والاحتطاب والمراعي والعيون والأبار والغائم واسلاب الغزو، كانت كلها ملكاً مشاعاً بين افراد العشيرة، قبل ان تستبدل الأسر القوية وتحول المصالح العامة الى مصالح أسرية. يمتد بحث دول اليمن زمنياً بشكل عمودي حقبة تاريخية طويلة في أعماق الماضي متجاوزاً حقبة قيام الدول، منذ العهد المعيني- منذ نهاية الالف الثاني ق.م. [يرى البعض انه أقدم من هنا التاريخ بأكثر من الف عام]^{٣٠٨} حتى نهاية الاحتلال الايراني السادساني لليمن وتحرير البلاد بظهور الإسلام في بداية القرن السابع الميلادي، كما يمتد البحث مساحةً بشكل افقي عبر اراضي اليمن بقسمها الشمالي والجنوبي، اي اليمن وحضرموت وقتبان واوسان.

^{٣٠٧} ورد اسمه في مقدمة الكتاب: سلطان محمد عمر، ص٦، وعلى غلاف الكتاب ورد اسمه سلطان احمد عمر.

^{٣٠٨} نظرية في تطور المجتمع اليمني، ص٧-٨.

لقد مرت هذه المنطقة، منذ تطور الجنس البشري حتى ظهور الإسلام، بتشكيلها المشاعية البدائية والعبودية^{٣٠٩} ولهذا فسوف لن نقصر بحثنا على تاريخ دول اليمن ضمن تشكيلة العبودية فحسب، وأئمًا سنتجاوز هذه المرحلة فنسير غور الماضي لنتعرف، قدر المستطاع، على الظروف الشرطية لخلق المقدمات المادية لظهور النظام الطبقي وقيام الدول، أي دراسة حقبة التشكيلة المشاعية التي اختلفت في ارحامها مقدمات تشكيلة العبودية. ويقتضينا هذا الأمر دراسة القضايا الاقتصادية والإجتماعية والجنسية والحضارية في كلتا التشكيلتين بشكل عميق وبشئ من التفصيل، على أن نعير اهتماماً بالجوانب السياسية أحياناً بالقير الذي تساعد فيه على توضيح عملية التطور الحضاري ومؤثراتها الاقتصادية والإجتماعية فحسب.

اليمن خلال تشكيلة المشاعية البدائية:

لم يختلف سكان اليمن البدائيون، ولاشك، عن سواهم من البشر البدائيين في اعتمادهم في معاشهم على صيد الحيوان وجمع النباتات البرية. وظلوا لحقب طويلة جداً على حالتهم الوحشية هذه الحقبة تقدر بعشرات الآلوف من السنين [قال الشاعر حسان بن ثابت مخاطباً أهل اليمن:

تعلمو من منطق الشيخ يعرب
أبيكم فصرتم معربين ذوي نحر
وكنتم قدماً مالكم غير عجمة
٢٠٨ كلاماً وكنتم كالبهائم في القفر]

^{٣٠٩} انظر: د. جواد علي، المفصل، ٢، ٧٧-٨٠، حول اختلاف وجهات نظر العلماء.

كان الشعب اليمني فيها جاماً للقوت لا يعرف الإنتاج الى ان تيسر له تدجين الحيوان والنباتات البرية [هناك اختلاف رأي حول اصالتهم في ذلك او اقتباسهم ذلك من وادي الرافدين]

ومن ثم تعلم الزراعة، وما ارتبط بها من فنون الري وخزن اليماه وتوزيعها، وما ارتبط بالزراعة وتدجين الحيوان من حرف، ومانجم عن كل ذلك من تراكم الفائض وتقسيم العمل الاجتماعي وظهور التبادل وقيام التجارة. لكن توسيع وازدهار تجارة اليمن فيما بعد لم يكن بسبب تراكم الفائض فحسب، وإنما لتوسيط اليمن بين مناطق مختلفة في متاحها ومنتوجاتها، مناطق حرارية مدارية، كالهند وشرق إفريقيا، ومعتدلة كحوض البحر المتوسط والعراق وأسيا الصغرى، وكذلك بسبب تزايد الطلب على البضائع المصنوعة والمنتجات الزراعية، بسبب نمو السكان في العالم القديم وارتفاع مستواهم المعاشي، الذي أدى إلى توسيع التبادل الاستثنائي بين اقطار العالم القديم، ومن ضمنها اليمن، وإلى تخطي الحدود الإقليمية أيضاً.^{٣١٠} لقد أدى تعلم الزراعة وقيام التبادل إلى حملة تطورات في أحوال اليمنيين فأنتقلوا من الوحشية إلى البربرية مع تطور أحوالهم الاجتماعية، بأختيارهم دور زعامة الام [يشير إليها وجود الالهات الانثويات بين الالهة] إلى زعامة الاب وبتكوين مجموعات تربطها روابط الدم وصلات القرابة- العشيرة والقبيلة.

لا يوجد، في ما وصللينا من مصادر مكتوبة وآخبار مروية عن أحوال اليمن الاجتماعية، أي انعكاس واضح وصريح عن ما يعرف بـ(دور زعامة الام) في اليمن، سوى اشارة خاطئة لدى سترايون عن مشاعر المرأة في اليمن، سوى شواهد رمزية إلى ممارسة دور زعامة الام في نطاق محدود. وبينما أن كافة أعراف وانظمة ومرتكزات هذا الدور الرئيسية قد تلاشت واختفت من اليمن منذ أمد بعيد، منذ

^{٣١٠} الشيخ يعرب بقصد به يعرب بن قحطان مؤسس الأسرة القحطانية كما ذهب الروايات.

الانتقال من دور زعامة الام الى دور زعامة الاب، على اثر تعلم الزراعة وتربيبة الماشية، حتى اذا بلغنا زمن الكتابة وظهور الخط المسند في اليمن نجد هذه الآثار قد اختفت تماماً ولم تعد ذاكرة الشعب اليماني تعها وترصدها لدى المستقررين عند المباشرة بالكتابة او تحفظها عبر روايات واساطير مروية، فلا نجد ذكراً ولا حتى اشارات الى التأقلم (Locality) الامومي للزوج [سكنى الزوج مع عشيرة الزوجة]، والى سيادة المرأة على الاسرة، والى اعتبار النسب الامومي والاهتمام بخط القرابة الامومي بدل الابوي، والى بروز دور الحال بدلاً من العم وفي توسيع الحال شؤون رعاية وتربيبة اولاد الاخت، والى ادارة المرأة للاقتصاد وهيمتها على المرافق الحيوية الإنتاجية، والى تعدد الزوج...والى اخره من الظواهر الأساسية التي كانت ملزمة لدور زعامة الام، حيث اختفت هذه من المجتمع اليماني عبر الاف من السنين ولم يعد لها، طبعاً، من الظهور الا في حالات استثنائية لدى بعض القبائل الرحالة. ييد ان عدم ذكرها في النصوص القديمة والروايات المروية لا يعني استثناء اليمن من المرور في الماضي السحيق بهذا الدور، الذي مرت به شعوب العالم، فوجود آلهات انتوثيات مع الالهة الذكور، في ديانة اليمن القديمة، وذكر اسم والدة الشخص بدلاً من ذكر اسم ابيه، عند الترجم عليه وطلب الغفران له وعند تقديم القرابين والاضاحي والفدى عنه، وهو ما ورثناه عنهم فيما بعد، هذا بالإضافة الى ما ذكره المستشرقون من تأثير اسم بعض القبائل ومن تسمية اشخاص بأمهاتهم^{٣١١} واستلاقات الام: الامومة، الامة، وما يتصل بها من بطن وفخذ...الخ تعتبر شواهد تُذكر بممارسة دور زعامة الام في ماض سحيق لاتعنه ذاكرة الشعب.

لقد اجتاز الشعب اليماني هذا الدور، كما اجتازته غالبية الشعوب القديمة، [باستثناء بعض الشعوب البدائية، التي ظلت تمارسه لفترة اطول]، بعد ممارسة

^{٣١١} كونراد، *العرب والشرق*، ص ٤١.

حرف الزراعة وتربيـة الماشية، التي افردت للرجل فرص الاستئثار بالمركز الاجتماعي المتميـز، لهـيمنته على الاقتصاد طلما هو المنتج الفعلى والرئيـسي، كحـارت وراعـ، في الوقت الذي اجبرت فيه المرأة على التخلـي عن الموقع الممتاز الذي احتـلتـه سابقاً في الإنتاج والهيـمنـة. فـتضـاءـلتـ من جراء ذلك مكانـتها الإجتماعية ولم تعد سـيدة الأسرـة ولا رـبـها المسـؤـول بل تـدـنـتـ مكانـتها تـدـريـجيـاً لـتـغـدوـ بعدـ سـيـاطـة لـانتـاجـ الأولـاد.^{٣١٢} فـظـهـرـ، طـبـقاً لـتحقـيقـ هـذـهـ الرـغـباتـ، نـظـامـ تـعـدـدـ الزـوـجـاتـ (Pdygamy). لقد تـدـنـىـ مركزـ المرأةـ الـيـمـانـيـةـ المـتـحـضـرـةـ المـسـتـقـرـةـ وـسـاءـ حـالـهـاـ، اـمـاـ المـرـأـةـ الـيـمـانـيـةـ الـبـدوـيـةـ الـمـتـنـقـلـةـ، فـقـدـ تـمـتـعـتـ بـحـرـيـةـ اوـسـعـ نـسـبـيـاًـ مـنـ شـقـيقـهـاـ الـيـمـانـيـةـ الـمـسـتـقـرـةـ. لقد حـاـوـلـ جـرجـيـ زـيـدانـ يـنـفـيـ مـرـورـ العـرـبـ جـمـيعـاًـ، بـماـ فـيهـ اـهـلـ الـيـمـنـ، بـدـورـ زـعـامـةـ الـامـ اـطـلاـقاًـ.^{٣١٣} فيـ رـدـهـ عـلـىـ بـعـضـ الـمـسـتـشـرـقـينـ وـالـعـلـمـاءـ

^{٣١٢} بـالـمـنـاسـبـةـ أـورـدـ عـبـدـالـسـلـامـ هـارـونـ فـيـ مـوـلـفـهـ: نـوـادرـ الـمـخـطـوـطـاتـ، الـجـزـءـ الـأـوـلـ، الـقـاهـرـةـ، ١٩٥١ـ، كـتـابـ مـنـ نـسـبـ إـلـىـ اـمـهـ مـنـ الشـعـرـاءـ لـمـحـمـدـ بـنـ حـبـيـبـ (وـحـبـيـبـ اـمـهـ)، نـوـادرـ الـمـخـطـوـطـاتـ، ٩٦-٨١/١ـ، وـقـدـ ذـكـرـ عـبـدـالـسـلـامـ فـيـ الـمـقـدـمةـ [٨٢/١]ـ إـنـ هـذـاـ الـمـخـطـوـطـ قـدـ نـشـرـهـ فـيـ مـجـلـةـ الـمـقـطـفـ (ماـيـوـ ١٩٤٥ـ)، وـانـ جـ لـيفـيـ دـلـافـيدـ اـسـبـقـهـ فـيـ نـشـرـ هـذـاـ الـمـخـطـوـطـ فـيـ مـجـلـةـ الـجـمـعـيـةـ الـشـرـقـيـةـ الـأـمـرـكـيـةـ ١٩٤٢ـ، ١٥٦/٦٢ـ، ١٧١ـ. كـمـ نـشـرـ عـبـدـالـسـلـامـ فـيـ نـوـادرـ الـمـخـطـوـطـاتـ اـيـضاًـ: تـحـفـةـ الـأـيـةـ فـيـ مـنـ نـسـبـ إـلـىـ غـيرـ اـبـهـ لـمـجـدـ الـدـينـ مـحـمـدـ بـنـ يـعـقـوبـ الـفـيـروـزـآـبـادـيـ، ١١٠-٩٧/١ـ. وـيـذـكـرـ عـبـدـالـسـلـامـ بـأـنـ هـنـاكـ مـخـطـوـطـ بـعـنـوانـ: تـذـكـرـةـ الطـالـبـ الـبـيـهـ عنـ نـسـبـ إـلـىـ اـمـهـ دـونـ اـبـهـ، لـاحـمـدـ بـنـ خـلـيلـ الـبـوـدـيـ وـهـوـ تـهـنـيـبـ لـكتـابـ آخرـ لـجـلـالـ الدـينـ اـبـنـ الـخـطـيـبـ دـارـيـاـ، مـحـفـوظـ بـالـخـزـانـةـ الـتـيمـورـيـةـ بـرـقـمـ ١٤٠٧ـ تـارـيخـ تـيمـورـ، نـوـادرـ الـمـخـطـوـطـاتـ، ٩٨/١ـ.

^{٣١٣} اـصـلـ الـعـاـلـةـ، [الـنـصـ الـرـوـسـيـ]ـ، مـوـسـكـوـ، ١٩٥٣ـ، صـ ٥٧ـ، وـالـنـصـ كـمـاـ فـيـ التـرـجـمـةـ الـعـرـبـيـةـ [إـنـ أـسـقـاطـ الـحـقـ الـأـيـيـ كـانـ هـزـيـمةـ تـارـيـخـيـةـ عـالـمـيـةـ لـلـجـنـسـ النـسـائـيـ]. لـقدـ أـخـذـ الـرـوـجـ دـفـةـ الـقـيـادـةـ فـيـ الـبـيـتـ اـيـضاًـ، وـحـرـمـتـ الـزـوـجـةـ مـنـ مـرـكـزـ الـمـشـرـفـ، وـاسـتـدـلـتـ، وـعـدـتـ عـبـدـةـ رـغـائبـ زـوـجـهاـ، وـأـمـسـتـ اـدـةـ بـسـيـاطـةـ لـانتـاجـ الأولـادـ]ـ، دـارـ التـقـدمـ، مـوـسـكـوـ، صـ ٧١ـ.

[روبرتسن سميث، نولدكه، ويلكن وأخرين]، وقد استخدم حجاجاً منطقية، مثل ورود ذكر العائلة مقاربة لما هي عليه الآن والتاكيد على رئاسة الرجل للأسرة في قوانين حمورابي والكتابات العربية القديمة وفي التوراة، كما استخدم جرجي زيدان حجاجاً لفظية ومناقشات لغوية حول تأثير اسماء بعض القبائل وانتساب بعضهم الى امهاتهم والعصمة بالطلاق التي بيد بعض النساء، وهي الحجج التي اعتمدها المستشرقون لاثبات وجهات نظرهم، فبين جرجي زيدان في رده على ان هذه نادرة ولا علاقه لها بهذا الموضوع. وناقش كذلك مصطلحات الحال والعم والكنة او زوجة الابن والزوجة باعتبارها مصطلحات قلقة يمكن ان يحل الواحد منها محل الآخر، تماماً مثلما هي في لغات الشعوب الاخرى غير مستقرة على معنى ثابت، وحول اشتقاقات الام: الامة، الامومة، وما يصل به الام من: رحم وطن وفخذ، رافضاً ان تقوم هذه الحالات والمصطلحات والاشتقاقات كأدلة على وجود زعامة الام لدى العرب منذ القرن الأول قبل الميلاد حتى العصور الجاهلية،

قبيل ظهور الإسلام.^{٣١٤}

اما د. جواد علي^{٣١٥} فقد اكتفى باستعراض آراء هؤلاء العلماء، الذين ردّ عليهم جرجي زيدان، من دون ان يبدي رأيه الخاص بها كما لم يذكر ردود جرجي زيدان، فليس هو بالمؤيد ولا بالرافض لوجهات نظر هؤلاء العلماء ولم ينالش ما طرحته جرجي زيدان وأنما اكتفى بالإشارة الى: «ان جرجي زيدان قد بحث في نظرية الامومة عند العرب وردّ عليها بالتفصيل».«^{٣١٦}

^{٣١٤}- تاريخ التقىدين الإسلامي، بتأشير د. حسين مؤنس، القاهرة، بلا، ٢٤٠ .٢٦١/٣.

^{٣١٥}- ن.م.، ٣٢٦٠-٢٥٩/٣.

^{٣١٦}- المفصل، بيروت، ١٩٦٨، ١/٥٢٤-٥٢١.

إن جرجي زيدان مصيبة في نفيه لوجود دور زعامة الام في الحقبة التي حددتها {قبيل ميلاد المسيح وحتى ظهور الإسلام} فقط وذلك لأن هذا الدور - كما أسلفنا القول- قد اختفى منذ زمن سحيق منذ أن تعلم الإنسان الزراعة وتربية الماشية وما تبع ذلك من اشغال الرجل للموقع المتميز في الإنتاج، وهذا ما فات جرجي زيدان ادراكه وتعتمد اغفاله. لأن زمن اختفاء هذا العهد من البلاد العربية، وان جرى بشكل متفاوت، يسبق، بالطبع، ميلاد المسيح بعده الااف السنين وليس بضع مئات، لذلك فان نفي جرجي زيدان لمروء العرب بهذا الدور نهائياً وبشكل مطلق غير صحيح، ولكنه مصيبة فقط بالنسبة للمدة التي حددتها.

ذكرنا في بداية حديثنا عن دور زعامة الام بأن المصادر القديمة والروايات المروية تخلو من الأشارة إلى هذا الدور سوى ماذكره خطأً سترايون عن مشاعية المرأة في اليمن، أي تعدد الأزواج، وهذا ضرب من الخيال لأنه عارٍ عن الصحة، كما سببته: لقد ذكر سترايون، [المفترض أنه رافق حملة الرومان على اليمن بقيادة حاكم مصر الروماني اليوس غالوس عام ٢٤ ق.م]:^{٣١٧} «أما الممتلكات [وهو يتحدث عن بلاد العرب السعيدة- اي اليمن] فمشاعية بين جميع الأقارب. وأكبرهم سنًا هو زعيمهم. ولهم جميعاً زوجة واحدة، ومن يدخل الدار أولاً قبل غيره يضاجعها، بعد أن يضع عصاه بالباب، لأن حمل العصا عادة ضرورية يلزم الجميع أتباعها. غير أن المرأة تقضي الليل مع أكبرهم سنًا. وهم يضاجعون امهاتهم أيضاً. ويعاقبون الزاني بالموت اذا كان من أسرة أخرى». ^{٣١٨} فهو يعتبر النظام

^{٣١٧} ن.م.، ٥٢٥/١٢.

^{٣١٨} توجه الاستاذ محمد عزة دروزة، بأن سترايون عاش في القرن الرابع قبل المسيح، تاريخ العرب قبل العروبة الصريحة، بيروت، بلا، ص ٣٦، وقد أشار في الهاشم الى جواد علي، بينما

السائل في اليمن أيام الحملة الرومانية [٢٤ ق.م] مشاعياً وفيه الممتلكات والنساء مشاعة. ولكي يجعل هذه القرية مقبولة من قبل قراته ساق مثلاً آخر عره من خياله ليؤكد مارواه آنفأ فكتب: «كانت بنت أحد الملوك ذات جمال رائع، وكان لها خمسة عشر أخاً يعشقوها جميعاً ويدخلون عليها بالتتابع دون انقطاع. ويقال: إنها سئمت لحاجتهم، فلجلأت إلى هذه الحيلة: ذلك أنها حصلت على عصي صنعت على شكل عصي أخواتها، فإذا غادر المترى أحدهم، وضعفت بالباب عصا تشبه عصاه، وبعد ذلك بقليل عصا أخرى، وهكذا بالتتابع – وهي إذ تفعل ذلك تحسب حسابها بحيث لا يجد الرجل الذي يريد الدخول إليها عصا بالباب تشبه عصاه. وحدث مرة، انه بينما كان الأخوة جميعهم في السوق، ان غادرهم أحدهم واتى إلى باب الدار، فرأى عصا هناك تدل على وجود رجل في الداخل ليس الا زانياً. فهرول إليه واحضره إلى الدار، غير انه ثبت انه إنما اتهم اخته زوراً».^{٣١٩}

إن رأي سترايون وكل القصة التي ساقها عن أحوال اليمن الاجتماعية هو محض اختلاق، وذلك لأن سترايون:

١. لم يصاحب الحملة الرومانية التي بلغت الجوف في اليمن، كما هو شائع عنه، وإنما استقى جل معلوماته من مؤلفين سابقين له [آرثميدورس، اراتستيس، أغاثريخيس، سواهم الذين ذكرهم في كتابه] وجلهم اعتمد سمع الروايات عن بلاد العرب دون تحمل مشاق السفر للإطلاع والمشاهدة الميدانية،

د. جواد علي يذكر ميلاد سترايون ووفاته على الشكل الآتي: (٦٤ ق.م - ١٩ م)، انظر: المفصل، ٥٨/١، وهو الصحيح.

^{٣١٩} بلاد العرب من جغرافية سترايون، ترجمة جبرا خليل جبرا، مجلة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٥٢، ٢٦٧/٢. الملاحظ ان التاريخ المدون لحياة سترايون على هذه الترجمة جاء كمابلي: حوالي ٦٦ ق.م.- ٢٤ م، وذلك في الصفحة ٢٦٤ بينما الحقبة التي حددها د. جواد علي -كما ذكر في الهامش السابق- هي الأدق.

وَرِيمَا أَسْتَقِنْ سَتَابُونْ أَخْبَارَهُ وَاحَادِيَّهُ وَقَصْصَهُ عَنِ الْعَرَبِ مِنْ صَدِيقِهِ قَائِدِ
الْحَمْلَةِ الرُّومَانِيَّةِ الْيُوسُ غَالْلُوسُ أَوْ مِنْ مَرَافِقِهِ كَمَا يَقُولُ دُ. جَوَادُ عَلِيٌّ.^{٣٢٠}

٢. وَلَوْ فَرَضْنَا جَدَلًاً وَصُولَ سَتَابُونْ مَعَ الْحَمْلَةِ إِلَى أَرْضِ الْيَمَنِ وَدُونَ
مَشَاهِدَتِهِ كَمَا رَأَى فَأَنَّ بِلَادِ الْيَمَنِ زَمْنَ الْحَمْلَةِ قَدْ سَبَقَ لَهَا الْاِنْتِقَالُ مِنْ
تَشْكِيلَةِ الْمَشَاعِيَّةِ إِلَى الْعَبُودِيَّةِ وَسَادَ فِيهَا النَّظَامُ الطَّبْقِيُّ، الَّذِي مِنْ حَصْيلَتِهِ
قِيَامُ الدُّولَةِ. فَقَدْ قَامَتِ الدُّولَ، كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ، فِي الْيَمَنِ قَبْلَ مَعْنَىِ الْحَمْلَةِ
بِفَتْرَةٍ تَزِيدُ عَلَى الْأَلْفِ عَامٍ عَلَى أَقْلَ تَقْدِيرٍ وَهَذِهِ مَدَدَ كَافِيَّةٍ بَحْدَ ذَاهِبِها
لَانْحِسَارِ الْمَشَاعِيَّةِ لِتَسْتَمِرُ فِي الْبَوَادِي بَيْنَ الْقَبَائِلِ الرَّحَالَةِ وَبَعْضِ
الْمُسْتَوْطِنَةِ، الَّتِي تَزَرَّعُ مَشَاعِيًّا، فَحَسَبٌ.

٣. ذَكَرَ فِيِ الْقَصَّةِ أَنَّهَا عَنِ احْدَى بَنَاتِ الْمَلُوكِ، وَالْمَلُوكِيَّةِ مِنْ مَسْتَلِزمَاتِ
الْعَهْدِ الطَّبْقِيِّ، الَّذِي سَادَ فِيهِ نَظَامٌ تَعْدُدُ الْزَوْجَاتِ بِيَنْمَا تَعْدُدُ الْأَزْوَاجِ -الَّذِي
وَرَدَ فِيِ الْقَصَّةِ- هُوَ مِنْ مَمَارِسَاتِ دُورِ زَعَامَةِ الْأَمِّ فِيِ الْعَهْدِ السَّابِقِ لِأَخْتِرَاقِ
الْبَشَرِ مِنْ الزَّرَاعَةِ وَتَرْبِيَّةِ الْمَاشِيَّةِ، كَمَا أَسْلَفَنَا الْقَوْلُ، الَّذِي أَدَى تَرْكِيزَ
أَحْتِرَافِهِمَا إِلَى ظَهُورِ الْطَّبَقَاتِ مَعَ زَوَالِ آثَارِ دُورِ زَعَامَةِ الْأَمِّ حِيثُ تَسْنَمُ الرَّجُلُ
مَقَالِيدِ الرَّئَاسَةِ فِيِ الْبَيْتِ وَالْمَجَمِعِ وَجَرِيِ التَّحُوَّلِ مِنْ تَعْدُدِ الْأَزْوَاجِ إِلَى تَعْدُدِ
الْزَوْجَاتِ، أَوِ الْإِقْتِصَارِ عَلَى زَوْجَةٍ وَاحِدَةٍ وَبَعْضِهِ مَحْضِيَّاتِ.

٤. ذَكَرَ فِيِ الْقَصَّةِ أَنَّ احْدَى الْأَخْوَةِ ذَهَبَ إِلَى أَبِيهِ. وَالْحَالُ أَنَّ تَعْدُدَ الْأَزْوَاجِ
يَفْتَرِضُ مَجْهُولِيَّةَ الْأَبِ، حِيثُ تَتَوَلِّ الْأَمِّ أَوِ الْخَالِ تَرْبِيَّتِهِمْ وَالْعَنَيْفَيَّةُ بِهِمْ فَلَا يَعْرِفُونَ
لَهُمْ أَبًا وَيَنْتَسِبُونَ إِلَى أَمْهَاتِهِمْ أَوْ عَشَيْرَتِهِمْ فِيِ الْغَالِبِ الْأَعْمَمِ. عَلَمًا بِأَنَّ تَعْدُدَ الْأَزْوَاجِ قدْ
أَنْحَصَرَ بِعَضُ الْقَبَائِلِ الرَّحَالَةِ وَأَخْذَ بِالْأَنْدَثَارِ، وَسَبَبَ اسْتِمْرَارُ هَذَا النَّوْعِ مِنِ
الْأَزْوَاجِ هُوَ -كَمَا يَقُولُ ي. أَبِيلَيْفُ- غِيَابُ الرَّجُلِ مَدَدَ طَوِيلَةٍ عِنْدَمَا يَلْتَحِقُ
بِالْقَوَافِلِ أَوْ يَنْهَبُ لِلْأَنْتِجَاعِ بَعِيدًا عَنِ مَنَازِلِ الْمَرْأَةِ.^{٣٢١}

أما الصورة التي يرسمها ستابون للمجتمع اليماني المتحضر في القرن الأول قبل الميلاد لا تتفق مع درجة تطور المجتمع اليماني الاقتصادي والاجتماعي والحضاري في ذلك العين. لقد ناقش جرجي زيدان القصة التي رواها ستابون واعتبرها مختلفة^{٣٢٢}، وهو محق في اعتراضه على وجود هذا الضرب من الزواج وشيوعه في مجتمع متحضر كاليمين، في فترة الحملة الرومانية على اليمن، حيث تسود التشكيلة العبودية وتقلصت المشاعية في البوادي وحيث اختفت ممارسة تعدد الأزواج منذ أمد بعيد جداً - كما أسلفنا - وأنحسرت وبشكل استثنائي في بعض محطات توقف وسائل النقل، حيث وجدت نسوة من عرقن بدوات الروايات،^{٣٢٣} كن زوجات لعدة رجال متقللين مع القوافل التجارية. لقد سخر ي. أ. بيلايف من قصة ستابون هذه، مبيناً بأنَّ عرب ذلك الزمان لا يستوعبها سوى طريقة تاريخية.^{٣٢٤}

إنبقاء بعض ترسيرات العلاقات الجنسية الواطئة، الموروثة عن عهود سحرية، لدى كافة الشعوب، والتي تستتر الاعراف والتقاليد الدينية على بعضها، كراقصات المعابد،^{٣٢٥} وأنواع من الزيجات التي كانت معروفة في

^{٣٢١} المفصل، بيروت، ٤٩/٢، ١٩٦٩.

^{٣٢٢} العرب والإسلام، الترجمة العربية، ص ٧-٢٥٦.

^{٣٢٣} تاريخ العهدن الإسلامي، ٧-٢٥٦/٣.

^{٣٢٤} انظر: محمود شكري الالوسي، بلوغ الارب في معرفة احوال العرب، ط ٣، القاهرة، ١٣٤٢ هـ، ٤، وقد اعتبرهن بغايا، انظر ايضاً: د. جواد علي، المفصل، ٦٢٩/٤؛ وانظر: بيلايف، العرب والإسلام، ١٠٢.

^{٣٢٥} العرب والإسلام، النسخة الروسية، ص ٧١، وفي الترجمة العربية قد وردت على هذه الصورة: (فأمر كان العرب في الحقبة التي هي موضع بحثنا ينظرون اليه انه خبر من اخبار الماضي البعيد)، ص ١٠٣.

الجاهلية: مثل زواج الرهط وزواج ذوات الريات،^{٣٢٦} والتي ابطلها وحرّمها الإسلام، وعصمة الطلاق بيد بعض النسوة، حيث يحق للواحدة منه أن تطلق زوجها متى شاءت وليس عليها إذا أرادت تطليقه- الا ان تحول مدخل الخبراء من جهة الى جهة أخرى، أو أن تعطيه رحماً وخيمة، فالرمح -كما يقول ي. ا. بيلابيف- أشاره الى أنه أصبح مسؤولاً عن الاصطياد لنفسه، والخيمة اشاره الى انه سيسكن وحده منذ تلك اللحظة دون ان يكون له حق الدخول الى خيامها،^{٣٢٧} لا يعطي بقاوتها مبرراً لتعيم حالة استثنائية وصورة قديمة على واقع مجتمع جديد متغير عن السابق بداع الحقد والكراهية، مثل ما فعل ستراوبون الروماني، وهو يعيش ظروف الحرب ومتاثر بالآيديولوجية الرومانية الاعتدائية الحاقدة، التي برت عدواها وحرّبها اللصوصية على اليمن لتهب خيراته بشتى الحجج، لأن تلك البقايا من العلاقات القديمة أصبحت، بعد توطيد الأسرة التي سيدها الرجل، استثنائية ولا تمارس إلا في نطاق محدود جداً. كما أنها ليست لاسيماً بشعب معين، فهذه الممارسة ظهرت مالوفة لدى شعوب عديدة. يقول د. جواد علي -هو يتكلم عن انواع الزواج في الجاهلية- بأنها: «ليست لاسيماً بالجاهليين، وإنما هي معروفة عند غيرهم أيضاً، ولاسيما عند الشعوب السامية، وهي مراحل مرّ بها جميع البشر، ولايزال الكثير منها قائماً في

^{٣٢٦} حول فتيات المعابد، او بناء المعابد، التي انتشرت قديماً في اقطار شرقية وغربية، انظر مقال د. تقى الدباغ، الله فوق الأرض، مجلة سومر، المجلد الثالث، والعشرين، الجزء الأول والثاني، ١٩٦٧، ص ١٢٩-١٣٠ وبخلص الى ان ما ذكرناه عن صلة الفتيات بالغرباء قبل الزواج يمثل ظاهرة اجتماعية مشروعة اخذها الناس ضمن اطارها الديني ووضعت قواعدها وفق التعاليم والمراسيم الاسيما بالمعابد وعبادة الآلهة فيها ولذلك كانت منزلة الفتاة بعدها منزلة محترمة بين ابناء قومها)، ص ١٣٠.

^{٣٢٧} د. جواد علي، المفصل، ٦٣٠-٦٢٩/٤.

أنباء متعددة من العالم. وهي في الغالب مرآة صافية للظروف التي يعيش فيها الناس. وبعض هذه الانواع زناه معيب في عرفنا، غير اننا يجب ان نفكر دائمًا ان اولئك القوم كانت لهم مقاييس دينية وخلقية لاسيمما بهم، وهي سليمة صحيحة بالقياس اليهم، وانهم عاشوا قبل الإسلام وفي ظروف تختلف عن ظروفنا، وان مانسميه عيباً لم يكن عيباً بالقياس الى المراحل التي كانوا فيها والى عرف ذلك العهد». ^{٣٢٨}

إن ما توصل اليه د. جواد علي من استنتاج جيد لتأكيد دراسات علمية تقدمية، تذكر على سبيل المثال رأي المستشرق بطل الاتحاد السوفياتي ضياء بوبياتوف عن مشاعية الزوجات حيث يقول: ان البحث العلمي لهذه المسألة - مشاعية الزوجات- في الواقع يحتم ملاحظة ان الرواسب الدينية للزواج الجماعي البدائي كانت معروفة لشعوب كل البلدان تقريباً احياناً تحت ستار الاعراف الدينية الرسمية والأخلاقية والقانونية وعلى الرغم من هذه الاعراف احياناً ^{٣٢٩}. ويستنتج بوبياتوف: «هذا ما لا يقبل الجدل وليس هناك فسق ما». ^{٣٣٠} وقد توصل بوبياتوف الى ذلك من دراسته لقراء انجلز في اصل العائلة، ^{٣٣١} التي منها: «لام يمكن تفهم ظروف المجتمع البدائي طالما كنا ننظر اليه نظرتنا الى دور البغاء». ^{٣٣٢} نكتفي

^{٣٢٨} العرب والإسلام، ص ٤٠١.

^{٣٢٩} المفصل ٤/٦٢٩-٦٣٠.

^{٣٣٠} مجلة اخبار المجمع العلمي لجمهورية آذربيجان السوفيتية، ١٩٥٩، ٢/٤٤، آذربيجان في القرون السابعة-الناتس، باكو، ١٩٦٥، [بالروسية]، ص ٤-٢٣٣، انظر ايضاً: البابكية، ١٢٤، الهامش ٨٧.

^{٣٣١} مجلة اخبار المجمع العلمي لجمهورية آذربيجان السوفيتية، ١٩٥٩، ٢/٤٤، آذربيجان في القرون السابعة-الناتس، باكو، ١٩٦٥، [بالروسية]، ص ٤-٢٣٣، انظر ايضاً: البابكية، ١٢٤، الهامش ٨٧.

^{٣٣٢} ن.م، ص ٢٦-٤٥.

بهذا القدر من الكلام عن دور زعامة الام وما اتصل به لتنقل الى الكلام عن انحلال روابط الدم وصلات القرابة في نظام العشيرة القبلي في اليمن:

من المعلوم ان النظام العشائري، الذي هو من أبرز انظمة التشكيلة المشاعية، يبقى مستمراً بروابطه وصلاته الأساسية في المشاعية طالما افراده يتتجون ويعملون ويتمتعون بالمنافع العامة بشكل جماعي فتسود بينهم الصلات الرحيمة والقرابة الدموية حتى يأخذ هذا النظام بالتفسخ والانحلال. نتيجة تغير اسلوب الاتصال الجماعي الى الفردي وظهور الملكية الشخصية وكان لتطور الزراعة وتربية الماشية من اثر يبلغ في زيادة انتاجية العمل وظهور التراكم الذي ادى الى بروز التبادل المنتظم وكل هذه الامور أدت الى ظهور التفاوت بين الافراد ومكنت الاسر القوية المتنفذة من استغلال التراكم لبسط نفوذها على البقية.

بالتحالفات القبلية غير اشكال وصيغ متعددة قضت على الروابط الدموية وصلات الرحم، حيث دخل في عداد العشيرة غرباء عن طريق: الغوة والجيرة والارحام القسري على الولاء والتحالفات غير المتكافئة، وقامت الروابط والصلات الاقتصادية بين افراد العشيرة. كما ادى التفاوت الى بروز اسر قوية تستغل حتى اسر العشيرة الضعيفة التي تربطها صلات رحم وقرابة سابقة.

تجمع الروايات، التي يرددتها الاخباريون والنسابة العرب المسلمين، كما وردت في المصادر، على ان أقدم تلك الاسر التي سيطرت في اليمن على بقية الاسر والقبائل هي اسرة قحطان [يقظان اسم ورد في التوراة، وفي نصوص المسند قحطان اسم قبيلة وفي بعض المصادر العربية^{٣٣٢} قحطان اسم قبيلة]. وقحطان كما تذكره الروايات العربية^{٣٣٣} هو ابن عابر بن شالخ بن أفحشد بن سام بن نوح، قد سيطر وأبنه يعرب وأحفاده كأسرة متنفذة لاعلى قبليتهم فحسب وإنما

^{٣٣٢} مجلة اخبار المجمع العلمي لجمهورية اذربيجان، ٤٨/٢.

^{٣٣٣} حمزة الاصفهاني، تاريخ سبي ملوك الأرض والأنبياء، ط٣، بيروت، ١٩٦١، ص ١٠٥، ١٠٦.

على أسر وقبائل أخرى في أماكن متعددة. والاقوال حول اصل قحطان واسلافه ونسله ومناطق نفوذهم متضاربة، فعلى سبيل المثال يذكر الطبرى ان لعاشر ولدين هما فالغ (القاسم) وقحطان.^{٣٢٥} بينما يذكر مع البقية ان لعاشر ولدين هما قحطان وبقطن،^{٣٢٦} ثم يعود الطبرى، فيذكر ان بقطن هو قحطان.^{٣٢٧} لاشك ان أسم بقطن حُشر بتأثير الاسرائيليات [العلوم والاخبار التي وصلت الى المسلمين من اليهود]. إن سبب تضارب الاقوال عن قحطان واسلافه ونسله يرجع الى ان جميع الاخبار المروية عنهم هي روايات شفهية ذات أصول قصصية أدبية التصقت بها تشويبات وتحريفات الاسرائيليات، حيث كان اغلب الاخباريين المسلمين يهل منها ظناً بآيتها دقة وصادقة وصحيحة لاعتمادها على التوراة بينما اغلب الاسرائيليات موضوعة وملفقة ومتناقضه بداعف مختلفه. ومهما تكون التناقضات حول قحطان واسلافه ونسله فأن له وجوداً في وقت ما سابق للتدوين بدليل وجود قبيلة قحطان في نصوص المسند.

إن ظهور هذه الأسر يشكل ظاهرة طبيعية لأربابه بتطور القوى المنتجة وزيادة انتاجية العمل، حيث بدأ الناس ينتجون أكثر مما يستهلكون مما أدى الى ظهور التبادل. وطبيعي ان التبادل لا يقوم بين افراد المشاعية الواحدة لأنهم ينتجون معاً وإنما كان التبادل يقوم بين قبيلة واخرى، مثلاً بين الرعوية والزراعية، وكان شيخ القبائل هم الذين يمارسون عملية التبادل. ولكن بتطور

^{٣٢٥} ابن قتيبة الدينوري، *المعارف*، القاهرة، ١٩٦٠، ص ٢٧؛ ابو حنيفة الدينوري، *الاخبار الطوال*، القاهرة، ١٩٦٠، ص ٧؛ العقوبي، *تاريخ*، بيروت، ١٩٥١، ١٩٦٠، الطبرى، *تاريخ الرسل والملوك*، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، القاهرة، ١٩٦٠، ٢٠٥/١ وما بعدها؛ المسعودي، *مروج الذهب*، ط ٤، ٤٢/١؛ *التنبيه والاضرار*، ١/٨٩؛ *تاريخ سنتي ملوك الأرض والأنبياء*، ص ١٠٥، وغيرها.

^{٣٢٦} *تاريخ الرسل*، ١/٢٠٥.

^{٣٢٧} ن.م، ص ١/٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧.

القوى المنتجة وظهور تقسيم العمل الاجتماعي الخطير الثاني وظهور التراكم ازداد التبادل المنتظم، فظهرت امكانية تراكم الثروات وظهرت الملكية الالاسِيما التي ساعد ظهورها على التقسيم التقديمي للعمل وتنامي التجارة.^{٣٢٨}

وكنتيجة لتطور الملكية الالاسِيما وحلولها محل الملكية المشاعية تزايد التفاوت الاقتصادي بين الناس. فالبعض، وهو في الغالب استقراطية العشيرة، اغتنى، اغتصبوا وسائل الإنتاج المشاعية، آخرون، المحرومون من هذه الوسائل اضطروا إلى العمل عند مالكيها. وهكذا سارت عملية تفكك المشاعية البدائية وتم انقسامها إلى طبقات. وقد انتهت هذه العملية بظهور الطبقات المتعارضة والاستغلال.^{٣٢٩}

ولاشك ان الإنتاج الفردي -المنافس القوي للإنتاج الجماعي- قد لعب دوره في تفكك الروابط والصلات القبلية القائمة على رابطة الدم لتحول محلها روابط قائمة على المنافع والمصالح المتبادلة. لقد سادت المشاعية البدائية اليمن وحضرموت وقبيان وأوسان كأسلوب للإنتاج لعدة آلاف من السنين. ودليلنا على وجودها قيام الحياة القبلية بأسلوبها التعاوني الجماعي في الإنتاج واستمرارها حتى العهد الطبقي. فكانت القبائل اليمنية منذ بدء ظهورها وظلت لحقب طويلة هي الوحيدة في كل مكان، شأنها في ذلك شأن بقية العشائر العربية، بكافة أنحاء وأطراف شبه جزيرة العرب [مع استثناء هو أنَّ الظروف الموضعية في اليمن تساعد على الاستقرار واحتراف المهن بشكل أكثر واقوى من بقية انحاء شبه الجزيرة]، وشأن سائر العشائر في انحاء العالم القديم.

^{٣٢٨}. ن.م.، ٢٠٧/١.

^{٣٢٩} حول عملية تفسخ المشاعية وظهور الطبقات انظر: نيكيتين، أساس الاقتصاد السياسي، موسكو، بالعربية، ص ١٩، أفالاميليف، أساس الفلسفة الماركسية، ترجمة عبد الرزاق الصبافي، ص ١٧٣.

لقد كان انتاج القبائل اليمنية، في البدء، استهلاكياً ضعيفاً نظراً لانتشار القبائل، التي كان الغالبيها في البداية رحالة، وتبعثرها في بقاع شاسعة من ارض اليمن وفي ظروف بيئية غير مسيطر عليها بعد وذات تأثير سلبي في السكان مما أثر في اقتصادهم فكان متخلفاً ضعيفاً. ييد أن تعلم الزراعة وتدرجين الحيوان، ولاسيما الجمل، والتغلب على الظروف البيئية القاسية واستغلالها لخدمة الانسان، كإنشاء المنشآت الأروائية، بصورة مبكرة في اليمن، قد ساعد على التمهيد لخلق المقدمات المادية للتحرر من الإنتاج الجماعي وإلى تقوية الاقتصاد والتطور الحضاري ومهد السبيل للمجتمع الظبيقي. ذلك لأن علاقات الإنتاج الجماعية في آية مشاعية بدائية، بعد ظهور فائض الإنتاج وتراكمه وضرورة مبادلته، غير قادرة على مساعدة القوى المنتجة على التطور، بل العكس تحد العلاقات الجماعية من نشاط تلك القوى وطموحاتها. ويصبح لزاماً بالتالي ان تتغير مع الزمن علاقات الإنتاج الجماعية المعوقة الى علاقات انتاج قائمة على الملكية الشخصية منسجمة مع رغبات القوى المنتجة. لأن الملكية الجماعية في العشيرة والقبيلة وعلاقات العمل الجماعي والتعاون المتداول بين اعضاء هذه الجماعات تظل تتلاءم مع طابع قوى الإنتاج الى ان يستدعي المستوى المنخفض لتطور الإنتاج ضرورة تحسين الإنتاج^{٣٤}، الذي يؤدي الى تقسيم العمل وظهور الإنتاج يؤدي الذي يولد التناقض بين الملكية الجماعية والطابع الفردي لعملية الإنتاج، ومن الطبيعي ان هذا التناقض لا يحل الا عن طريق القضاء على الملكية الجماعية وظهور الملكية اللاسيما لوسائل ومواد الإنتاج. ان هذه الحالة يمكن متابعتها بسهولة في الأجزاء الجنوبية الغربية لشبه جزيرة العرب، في اليمن، التي كانت لأسباب موضوعية

^{٣٤}. /المادية التاريخية، ص ١٥٨.

وذاتية -ذكرت سابقاً- هي السبقة من بين بقية انحاء شبه جزيرة العرب في التحرر من علاقات الإنتاج الجماعية وفي التحول الى الإنتاج الفردي. فبدأت اركان المجتمع المعاي بالانحلال والتفسخ في اليمن لفسخ للمجتمع الجديد، الطبيعي، بالظهور. ونحن وان كنا نفتقر الى الوثائق والاسانيد والآثار التي تسند اقوالنا، اذ ليس لدينا سوى روايات، كالتي عن العرب البايندة، غير ان الاستنتاج من دراسة احوال سكان اليمن في العصور التاريخية الطبقية من خلال تصووص المسند تعطينا امكانية التحدث عن اسلاف القبائل التي دونت اخباره وفي هذا المجال نورد ما ذكره محمد يحيى الحداد، تحت عنوان: "التعاونيات او ما يعرف بالوحدات المجمعة". وهو يستعرض أقوال نيكلوس رودوكاناكيس عن الروابط الجديدة التي تربط القبائل بعضها بعض: (.. ثم ذكر -نيكلوس-) «ان القبائل اليمنية القديمة كانت تنقسم الى قبيلة حاكمة، وتدل عليها عندهم كلمة "شعب"، والى قبائل محكومة وتسمى "القبيلة" ، وذكر ان اساس تكون القبيلة روابط العمل، لا اواصر القرابة والدم، وان الجماعة التي يجمع افرادها العمل تسمى قبيلة». ^{٣٤١} ويورد محمد يحيى الحداد، بعد ذلك ملاحظة رودوكاناكيس: «... فالحالة الاقتصادية السياسية هي التي تقرر وظيفة عمل الجماعة، وهذه ايضاً تسمى قبيلة.. ويستخلص الى ان القبيلة التي ليست في حقيقتها عبارة عن جماعة تربط بين افرادها رابطة الدم من السهل تقسيمها الى بطون وأفخاذ حسب حاجة العمل وطبيعة التربية والظروف السياسية والادارية المحيطة بها، فهي تنقسم الى ثلاث وارباع، لذلك وجب عليها ان تتحدد مع قبيلة اخرى تفرض علىها الظروف وتدعوا

^{٣٤١} تاريخ اليمن السياسي، ط، ٣، القاهرة، ١٩٧٦، ص، ١٢٤.

الها الحاجة، وهذا يذكر بالنظام المصري والإسلامي، وفي سياق القديمة تجد نفس هذا النظام نفسه يتطور حتى ينجح في تكوين قبائل مدنية.^{٣٤٢}
 ليس في ماوصل اليانا من مصادر مكتوبة، عدا الشمودية، من ذكر عن مايسى بالعرب البائدة اما المصادر العربية الإسلامية فتردد نتفاً من اخبار مشتلة ضعيفة ومشوهة وذات طابع اسطوري. فتذكرة أسماء قبائل عربية عاشت في مناطق مختلفة من شبه الجزيرة العربية واعتبرتها قديمة وبائدة. ومن هذه القبائل، التي اوردها حمزة الاصفهاني بشكل مكثف: عاد وتمود وطسم وجديس وعماليق واميم ووبار رهط وجامس وقططان.^{٣٤٣}

ومن الملاحظ ان حمزة اعتبر قحطان قبيلة بائدة، بينما نجد أبا حنيفة الدينوري يعتبر قحطان مؤسس جاء بعد انقراض قوم عاد، وبلادوا من اليمن، فقد كتب الدينوري: ولما انقرضت عاد من ارض اليمن وبلادوا، وذلك في عصر نمرود ابن كنعان، اقطعها نمرود ابن عمته قحطان بن عابر، فسار بها في ولده، حتى نزلها، فلم يكن الاقليل حتى انقرضوا وبلادوا، وصفت الأرض لقططان.^{٣٤٤}
 لاشك ان ترأس قحطان لأسرة متعددة فرضت هيمنتها على قبائل متعددة بشكل بداية الانتقال الى النظام الطبقي وبداية تفكك الروابط القبلية المبنية على صلات الرحم، ولا يستبعد ان اسمه اطلق لا على اسرته فحسب وإنما على مجموعة قبائل. والمصادر العربية تشير الى سيطرة قحطان او ولده يعرب او احفاده على ارض اليمن. وحمزة الاصفهاني يقول: «صار يعرب بن قحطان الى

^{٣٤٢} ن.م، ص ١٢٥.

^{٣٤٣} تاريخ سبي ملوك الأرض والأنبياء، ص ١٠٥، انظر كذلك: الطبرى، تاريخ الرسل، ٢١١-٢٠٢، وكذلك المسعودي، مروج الذهب، ٣-٤٢/١.

^{٣٤٤} الأخبار الطوال، ص ٧.

ارض اليمن في ولده فأستوطنها».^{٣٤٥} وفي مكان آخر يقول حمزة، «وفي زمن كيقباذ، عقدت بنو قحطان ملكها بأرض اليمن».^{٣٤٦}

رِبَّما كان لبني قحطان او قبيلة قحطان امتداد عميق في التاريخ ولكن لا يمكن اعتبارهم بائدين وذلك لورود اسم قبيلة قحطان في نصوص المسند. يعتقد د. جواد علي، بأن: «عاد وتمود وطسم وجديس واميم وبار وعبييل وجرهم الأولى والعمالقة وحضاراً» هي قبائل عربية بائدة كانت موجودة بعد الميلاد وظلت الى عهد غير بعيد من ظهور الإسلام مع ملاحظة بأن التوراة لا تذكرهم، وإن المستشرقين اعتبروا ذكر الرواية العربية لها من باب القصص الخرافية، فهو يقول عن هذه القبائل: «واكثر هذه الاقوام اقوام متاخرة عاشت بعد الاتماء من تدوين التوراة، عاشت بعد الميلاد في الغالب، ولعل منها من عاش الى عهد غير بعيد من الإسلام. ثم ان التوراة والكتب اليهودية الأخرى لم تهتم الا بالشئون التي لها علاقة بالعبرانيين، وهي ليست كتاباً في التواريخ العامة للعالم حتى تكتب عنهم وعن امثالهم من قبائل. امابقاء اخبار قوم عاد ومن كان على شاكلتهم من العرب البائدة في ذاكرة اهل الاخبار، فلأنهم عاشوا بعد الميلاد، وفي عهد غير بعيد عن الإسلام، ومع ذلك فقد اخذت اخبارهم طابع القصص والاساطير»^{٣٤٧} لايتعارض مع تسمية هذه القبائل بالبائدة استمرار بقاء بعضها، كتمود، حيث اكتشفت ودرست بعض كتاباتها، الى الحقيقة التي يذكرها د. جواد علي، بيد أنَّ بدء ظهور هذه القبائل، بقدر ما يخص الأمر القبائل اليمانية البائدة: عاد وبار وعبييل وجرهم الأولى،^{٣٤٨} سابق للعهد التاريخي لليمن. لقد كانت هذه القبائل البائدة [وحقى التي

^{٣٤٥} تاريخ سني الملوك والأنبياء، ص ١٠٥.

^{٣٤٦} ن، م، ص ١٠٦.

^{٣٤٧} المفصل / ٣٠٠.

^{٣٤٨} تعتقد المصادر العربية ان جرهم الأولى كانت في الاصل في اليمن ثم نزحت منها الى الحجاز

استمر بقاوها في الاغلب] بدوية رحالة عاشت في اسياق البوادي في الاحقاف في عهد التشكيلة المشاعية قبل انحلالها قلما تطورت العلاقات القبلية لدى اغلبية القبائل التي استوطنت ومارست الحرف وظهرت قبائل جديدة بروابط جديدة [قطantan بدل عاد، مثلاً] غالب اسم الجديدة على السالفه المقهورة أو المندمجة. فلما جاء عهد الكتابة، دونت اسماء القبائل الغالية والجديدة واهمل ذكر القديمة. بيد أنها بقيت في ذاكرة الابناء والأحفاد من افراد القبائل المغلوبة يتناقلونها ويحفظونها كأمجاد وتأثير اخترت شكل قصص اسطورية، كالتي عن طسم وجديس، في وسط نجد. كذلك اهملت الكتابات شأن القبائل المزروية في الأطراف النائية التي بقيت محتفظة بعلاقتها الاجتماعية وروابطها القبلية القديمة، اي تعيش حياة هانئة بعيدة عن معرك الحياة السياسية والإقصادية والاجتماعية الأساسية، في ذات نشاط وتأثير محدود في المجتمع ما قلص احتمال ذكرها في النصوص والكتابات القديمة.

لم يسر انحلال المجتمع المشاعي اليماني في البلاد على وتيرة واحدة تبعاً للاختلافات الموضعية وللحرف ولحالة الاستقرار والتنقل. فقد سارعت المجتمعات المتحضرة المستقرة المزاولة للزراعة ومن ثم التجارة وما اتصل بهما من حرف بالتفكك والتحلل من روابطها وصلاتها الرحمية بينما بقيت الممارسة لحرف الرعي والصيدمحتفظة بروابطها القديمة. والملاحظ بالنسبة للروابط الاجتماعية والتقاليد القبلية ان رؤساء القبائل ومنتزهاتها يحرصون ويصررون على الاحتفاظ والتمسك بذلك الجزء من الروابط والتقاليد القبلية القديمة الذي يخدم مصالحهم الشخصية بالذات. فيسعون الى تسخير تلك التقاليد والاعراف والروابط والاحتفاظ بها لحقب اطول طالما هي تخدمهم وتعزز مراكز سيادتهم، رغم انفصام الروابط الرحمية بين افراد

ونزلت بجوار مكة ولكن الوئائق والمعطيات الاشارية لا تزال لا تؤكد هذه الفرضية.

القبيلة، فحصر الاجتماع بدار اجتماع معينة = المسود [تلفظ المزود]، او المشود، بأستقراطي القبيلة، المتميزة عن صفات مؤسسات قرابة الدم ومسؤولي العشائر القدامي، وكذلك الاستمرار بالطالبية بتقديم الهدايا للرؤساء بالمناسبات المعينة والخدمة بدر سيد القبيلة لدى إقامة الولائم، مثلاً، وغيرها، هي جميعاً لخدمة مصالح السادة الرؤوساء طبعاً.

سجل انحلال وتفسخ روابط الدم وصلات الرحم القبلية القديمة افتتاح صفحات جديدة ومشروقة من تاريخ اليمن الحضاري لأنّ مستوى الحياة المعيشية في المشاعية البدائية المنخفض قد حرم اهل اليمن المشاعيين من التقدم فلم يساعدهم على بلوغ اي تطور فكري او روحي. لقد زامنت المعارف الأولية عن المظاهر الطبيعية وعن وسائل العيش وأدواتها والشعوذة السحرية الروحية، بسماتها الطفولية الساذجة، تلك الحقبة المظلمة العجاف، فكانت الجهالة والشعوذة والمعلومات الفجة هي حصيلة كل مكتسبات وموروثات تلك الحقب الطويلة المظلمة. ولم يتجاوز الشعب اليمني عهود التخلف ويرتقي الى اعتاب العهود المتطرفة الا بعد تمركز الزراعة والتجارة لديهم. ولايمتد زمن هذا التغيير الى ابعد من الالف الثالث قبل الميلاد. ومع ذلك يواجهنا راي لعضو المجمع العلمي العراقي د. احمد سوسة، يجعل تاريخ التحضر وتعلم الزراعة في اليمن اقدم من هذا التاريخ بكثير حيث يمتد الزمن لديه الى مئه الف سنة من الحضارة والخبرة الزراعية لدى العرب الذين هاجروا من اليمن، في الالف التاسع ق.م. -حسب رأيه- الى سوريا والعراق. ونظراً لأهمية موضوع الهجرات وتعلقه بتاريخ اليمن فسوف نتناول موضوع الهجرات مع مناقشة راي د. احمد سوسة فيما يأتي:

دّوافع الهجرات:

تواجه الباحثين في شؤون شبه الجزيرة العربية القديمة، ولاسيما اليمنية، قضية مهمة لا يمكن تجاوزها، وهي مسألة الهجرات الرئيسة الأساسية المؤثرة، أسبابها، مبتدأ زمان ومكان انطلاقها، مساراتها، الاماكن التي حلّت بها. إننا نميز نوعين من الهجرات: اولاً: هجرة الرحالة البدو انتجاعاً للكلاً ولماء والارتفاع وهي في كافة الاتجاهات، كما أنها ظاهرة طبيعية ملزمة لحياة السكان المتنقلين غير المستقررين -البدو- ومستمرة عند هذه الأقوام منذ البدء وحتى يومنا هذا عبر تشكيلات المشاعية والعبيودية وماتلهمها طالما هذه الأقوام البدوية غير مستقرة وتحترف الرعي والصيد فحسب. وجرت هذه الهجرة وتجرى بكافة اتجاهات شبه الجزيرة العربية، بما فيها اليمن، وبكافّة الاتجاهات، داخل شبه الجزيرة ومن داخلها إلى خارجها وبالعكس من خارجها إلى داخلها حسب المواسم.

ثانياً: هجرة السكان المستقررين المتحضرين، تحت تأثير عوامل قاهرة لا قبل للسكان بتحملها، فيضطرون على الرحيل وهجر مناطق سكناهم على مضض، فهذه ظاهرة عرضية تظهر عند حلول الكوارث والنكبات بالمنطقة واسدها واقساها على السكان الاحتلال الاجنبي للبلاد الذي يرافقه الهلاك والدمار الاقتصادي لنهب الخيرات وألاضطراب حبل الامن وتعطل المرافق الحيوية وتحول طرق التجارة واهمال المنشآت الإروائية. ان وجدت، فتراجعاً القوى المنتجة الوطنية نتيجة ذلك ويسبب الكساد إلى الهرب خارج البلاد. على شكل موجات واسعة ظاهرة. وتتوقف الهجرة بعد زوال الاحتلال واستقرار الامور في البلاد.

لقد أولى ولايزال يولي العلماء والباحثون [شلوتزر، آيشهورن، كريمر، كويدي، بيترس، هومل، شيرنكر، سايس دي غوبه، بروكلمان، فيلي، موسكاني، بارتون، بلكريفت، جيرليند، انكاند، كلي، كيتاني، أرنولد، الويس موسيل،

ولفنسون، كريمسكي، بيليف، جواد علي وآخرون^{٣٤٩} موضوع الهجرة من شبه الجزيرة العربية، سواء عند البحث عن أصل الساميين ومهدهم وهجرتهم او عن اصل القبائل العربية القاطنة خارج شبه الجزيرة، اهتماماً بالغ الاهمية، بيد أنهم لم يتوصلا، لحد الان، إلى رأي ثابت ومستقر، سواء حول الاسباب والد الواقع التي انطلقت من جراءها تلك الهجرات ام حول المكان [بين سواحل الخليج العربي الغربية وبين وسط شبه الجزيرة، نجد، وبين طرفيها الجنوبي الغربي، اليمن، بل وحتى من خارج شبه الجزيرة] الذي ابتدأ منها، وحول الزمان الذي انطلقت فيه [بين الألف الرابع، الثالث، الثاني ق.م. وبين القرون الرابعة والخامسة والسادسة والسابع الميلادي]. زُيّنا كان لعدم التمييز بين ظاهرة الهجرة الطبيعية والعرضية من أثر في تلك الاختلافات.

وكان آخر ما جاء بقصد الهجرات هو رأي د. احمد سوسه والذي مفاده بأنَّ العرب الذين هاجروا من شبه الجزيرة العربية، التي حلَّ بها الجفاف قبل حوالي (١٥) الف سنة بعد أن كانت تتمتع بمناخ توفر فيه كل مستلزمات الحياة حيث كانت اوديتها اهراً تغذى عصب الحياة المزدهرة، «رحلوا وحملوا معهم خبرة مائة الف سنة في الزراعة والفلاحة، رحلوا ومعهم حضارة هنرية اكتسبوها من محيطهم فهم اول من اخترع الزراعة الفنية التي تعتمد على الري ومارسوها فعلاً في وطنهم قبل رحيلهم. فالي اهل جزيرة العرب اذن نحن والعالم كله مدين للعرب بهذا الاختراع العظيم الذي كان الأساس الذي اعتمدت عليه كل الحضارات القديمة لقد اسسوا النازحون بعد هجرتهم من جزيرة العرب اثر الجفاف الذي حلَّ بها، اول واقدم استيطان على نهر الفرات في سوريا يرجع الى ما قبل تسعة

^{٣٤٩} انظر تناولنا المكثف لمختلف اراء هؤلاء في مؤلفنا: موجز تاريخ العرب والإسلام، ص ٢٤٢-٥١ [انظر: هوامش ص ٤٤ رقم ١ و ٢].

الاف سنة قبل الميلاد مما يدل على ان الهجرة بدأت منذ ذلك التاريخ». ^{٣٥٠}

وقد رجح د. احمد سوسه منطقة جنوب شبه الجزيرة بما فيها اليمن موطنًا اصلياً للساميين حيث كتب: «وهناك شبه اجماع عند العلماء على ان المنطقة الجنوبية من جزيرة العرب ومن ضمنها اليمن هي الوطن الاصلي للشعوب السامية العربية التي نزحت من جزيرة العرب اثر الجفاف الذي حل بها، وذلك لما كانت عليه منطقة جنوب الجزيرة من كثافة السكان وتقدم في مدارج الحضارة». ^{٣٥١} ومع أن آراء د. احمد سوسه هذه هي استمزاج لآراء بعض العلماء المختلفة، رغم تناقضها من حيث الاسباب والمكان والزمان، والتي ناقشناها بشكل مكثف في مؤلفنا: *موجز تاريخ العرب والإسلام* ^{٣٥٢}، فإن القضايا التي يطرحها د. احمد سوسه تتطلب وقفة غير قصيرة للتفاوش بذلك:

اولاً: يصعب تحديد بداية انتلاظ المجرات السامية والعربية زماناً ومكاناً، وذلك لضيالة بل انعدام المعطيات التي يمكن الاستناد عليها لأثباتات آية فرضية حول الموطن الاصلي. فنجد المختص بتدريس اللغات السامية الدكتور اسرائيل ولفسون [آبا ذؤبة]، وهو يناقش اراء العلماء المتباينة حول موطن الساميين الاصلي، يتسائل اين كان هذا الموطن؟ وذلك في كتابه الموسوم *بتاريخ اللغات السامية* ^{٣٥٣}، فزاه يقول: «واذا فرضنا صحة الرأي القائل بأنه كان لجميع الامم السامية موطن واحد ومهد اصلي نشأت كلها فيه ثم تفرعت عنه وانتشرت في

^{٣٥٠} حضارة وادي الرافدين، بين الساميين والسموريين، ص ١٠-١١.

^{٣٥١} ن.م، ص ١١.

^{٣٥٢} ن.م، ص ٤٦-٥١.

^{٣٥٣} طبعة دار القلم، بيروت، [بالاؤفسيت] (الطبعة الأولى)، ١٩٨٠، هناك ملاحظات انتقادية وتحليلية على هذا الكتاب منشورة في مجلة الهلال وهي بقلم فؤاد حسين علي، سجل فيها انتقاداته وأماذنه على الكتاب، ولدي نسخه مصورة لمstellen من مجلة الهلال وهي خلو من السنة ورقم المجلة.

انحاء المعمورة فأين كان هنا الموطن الاصلي؟»^{٣٥٤} ويعلّق بنفسه على هنا التساؤل المشروع، فيقول: «الحق ان هذه مشكلة دقيقة جداً بذل فيها العلماء المستشرقون جهداً كبيراً ولكنهم لم يتفقوا على حل لها حتى الان، بل تشعبت فيها آراؤهم واختلفت اقوالهم اختلافاً عظيماً»^{٣٥٥}

وبعد أن يعرض وجهات نظر نولنكيه وأخرين حول الموضوع ذاته يستخلص استنتاجاً دقيقاً بهذا الصدد يقول فيه: «من كل هذا يتبين ان من العسير ان نجزم برأي في المهد الاصلي للامم السامية». كذلك نجد أن د. جواد علي في حيرة من أمر تعين هجرة العرب وتحديدها حيث نراه يقول: «وتاريخ ظهور العرب في بادية الشام وفي اطراف الهلال الخصيب، تاريخ قديم جداً، ولكننا لا نستطيع تحديد مبدئه، ولا ثبيته، لأننا لا نملك ادلة علمية تعينه وتحددده». ^{٣٥٦}

ثانياً: اطلقت المصادر العراقية المسماوية والتوراة والاخباريون العرب المسلمين لفظة (العرب) لتدل على جماعة محددة [البدو] من العرب الموجودين في العراق وسوريا دون سواهم من بقية العرب المستقرین في هذه البقاع والوافدين إليها من شبه الجزيرة العربية. إن هذا تحديد اجتماعي لاقتصره على البدو [الاعرب] واقصائه المدلول الجنسي للعرب كعنصر، لعدم شموله كافة العرب المستقرین المتحضرين من سكنة المدن والارياف. إن هذا التحديد الاجتماعي غير الجنسي للمدلول قد اربك وحير العلماء. كما وان الاستناد على تلك المصادر، التي اطلقت لفظة العرب لتعني الرحالـة منهم فقط،

^{٣٥٤} تاريخ اللغات السامية، ص ٤.

^{٣٥٥} ن، م، ص ٤.

^{٣٥٦} ن، م، ص ٥.

.٥٤٤/١ ^{٣٥٧} المفصل

من دون تمييز او انتباه للمعنى المحدد للفظة العرب يؤؤل الى افتراض حالات غير دقيقة وغير صائبة. يقول د. جواد علي: «ثم ان كلمة (العرب) لم تكن تعني عند الشعوب التي عاشت قبل الميلاد، غير معنى (اعراب)، وكانت اذا ما ذكرت لفظة (عرب) تقصد البدو على نحو ما ذكرت في الفصل الأول في تحديد معنى هذه اللفظة، اما العرب المستقرون، او شبه الحضر، فقد عرفوا عندهم بأسماهم، ولهذا اشتبه امرهم علينا، وعسر على العلماء تعين هوياتهم، لعدم نص الكتابات او الكتب القديمة على انهم عرب، بمعنى جنس للسبب المذكور، فصرنا في حيرة من أمرهم، وفي التوراة اسماء قبائل كثيرة، نسبت الى آباء واجداد يجب ان تعدد من العرب، ولكن التوراة لم تطلق عليها لفظة (عرب)، لأنها لم تكن قبائل بدوية وليس لفظة فيها الا بهذا المعنى، فحار العلماء في تعين اصل كثير منها، وما زالت حيرتهم هذه حتى اليوم. وليس من المستبعد ان يكون بين الشعوب القديمة شعوب عربية، الا انها لم تعدد من العرب لأن اللفظة لم تكن علماً على جنس قبل الميلاد».^{٣٥٨}

لقد ذكرنا مراراً بأن الدراسات العلمية تؤكد على انه لا يمكن متابعة تطور حضارة اي مجتمع الا من خلال معرفة اسلوب انتاجه ذلك لأن عزل اسلوب الانتاج في اي مجتمع عن تطوره الحضاري يولد ضيقاً في الافق العلمي تنشأ عنه إنتاجات بعيدة كل البعد عن ملموسيات الوضع الواقعي، وبعكسه فأن ادراك وجود الترابط العضوي بين اسلوب الانتاج والتطور الحضاري سيساعد من دون شك على أتساع الرؤيا مما يسهل رسم صورة واضحة لذلك المجتمع بحيث تكون مطابقة لواقعه الملموس. فالانتقال المتواصل المستمر في بقاع شاسعة، اتجاعاً للماء والكلأ. يؤدي حتماً الى انخفاض مستوى الانتاج الذي ينجم عنه تخلفاً حضارياً – كما قلنا

ذلك- سابقاً وما سنلاحظه في النقطة التالية: ولما كانت الدلائل والقرائن تشير بشكل واضح الى ان العناصر المهاجرة من شبه الجزيرة العربية قبل الميلاد كانت في اغلبيتها، باستثناء بعض مهاجري الخليج العربي، رحالة متنقلة، بحكم الظاهرة الطبيعية للمجتمعات البدوية، ولم تحضر ولم تتمهن الحرف والمهن الا بعد استقرارها في مواطنها الجديدة، فأن القبائل العربية التي حلّت في العراق وسوريا وغيرهما من الاماكن كانت بدوية غير متحضره ولا تملك خلفية حضارية. يقول د. جواد علي: «والكتابات الاشورية هي اقدم سجل، لاشك في ذلك، يشير الى وجود العرب في الأرضين الواسعة الممتدة من الفرات الى مشارف بلاد الشام. ولكن العرب فيه هم اعراب، لا اقل من ذلك ولا اكثرا، اعراب متنقلون في الغالب، هائمون في الbadia حيث الماء والكلأ والارزاق من الغارات على الاشوريين وغيرهم».٣٥٩ اما تلك التي هاجرت من شبه الجزيرة بعد الميلاد فكانت في اغلبيتها من عناصر مستقرة متحضره مزاولة للمهن، قبل هجرتها، في مقدمتها الزراعة والتجارة، ولاسيما القوى المنتجة في اليمن، التي ارغمتها الوضاع السياسية والإقتصادية المتردية، بسبب الاحتلال الاجنبي، على ترك مناطقها والمigration منها. ولا تشکل هجرة هذه الاقوام المتحضره ظاهرة طبيعية وإنما هي ظاهرة عرضية، حيث تبادر الى الهجرة في حالة الاضطرار القصوى، فحسب والا فهي مستقرة في مواطنها الاصليه. والملاحظ ان هذه العناصر المهاجرة تبادر بعد الاستقرار في المواطن الجديدة، الى معاودة نشاطها السابق، اذا ما تهيأت لها الظروف، فتبادر الى مزاولة ما كانت تتحرف من مهن سابقة تجيدها او غيرها، لأنها متحضره قبل الهجرة.

ثالثاً: إن المدنية لا تنمو مع الترحال -كما يقول ج. برونو فوسكي، فكيف تسمى ياترى لرحالة القرن التسعين ق. م. ان يحملوا معهم حضارة؟ وتمتد لعشرة الف عام؟ يقول برونو فوسكي عن حياة قبائل البختيارية التنقلية الرعوية والعائشة الان -في القرن العشرين- في فيافي ايران ويتنقلون في براهمها، يقول عنها: «فثمة قبائل بدو رحل لاتزال تعيش ردة انسانية هائلة تجوب الأرض من بقعة لآخرى سعياً وراء الكلأ والماء كقبيلة البختياري في ايران وما عليك الا ان ترافق تلك القبيلة في ترحالها لتدرك بان المدنية لا يمكن ان تنمو مع الترحال». ^{٣٦٠}

لقد صور برونو فوسكي، بشكل دقيق، مختلف ملامح حياة هذه القبيلة الرعوية التنقلية، فنراه يقول عن نسائهم: ولم يكن لديهن سوى تقنية بسيطة مما كان يمكن حملها معهن في الترحال اليومي من مكان إلى آخر. وهذه البساطة ليست من الرومانسية في شيء، إنها قضية الحفاظ على البقاء، إذ ينبغي ان يكون كل شيء خفيف الوزن كي يسهل حمله ولكي يجهز بسرعة للأستعمال كل مساء ومن ثم يحرم ثانية كل صباح. فعندما تغزل النساء الصوف بالوسائل البسيطة القديمة، فيما ذلك الا للأستعمال الفوري، كالقيام ببعض الاصداحات الفورية للملابس اثناء الترحال، وليس أكثر من ذلك ^{٣٦١}. وهذا النموذج الحديث الذي اختاره برونو فوسكي لقبيلة رعوية تنقلية توفر امكانية المقارنة، حيث تلوح في الذهن من الوصف الدقيق لهذه القبيلة صورة ملامح قبائل رعوية رحالة مماثلة، قديمة ام حديثة، على الرغم من الاختلافات الزمنية والموضعية لأن القبائل البدوية الرحالة هي ظاهرة اجتماعية تمتلك خصائص مشتركة، كما يلاحظ في وصف برونو فوسكي لحياة هذه القبيلة: ان حياة قبائل البختياري ضيقة جداً لدرجة أنها لا توفر لا

^{٣٦٠}/ارتفاع الأنسان، ترجمة: د. موفق شخاشiro، الكويت، ١٩٨١، ص ١٥.

^{٣٦١} ن. م، ص ١٦.

الوقت ولا المهارة للتخصص. وليس لابتكار مكان لهم وذلك لعدم توفر الوقت، فهم مهملون في الترحال المستديم بين الصباح والمساء، ذهاباً وأياماً طوال حياتهم. فكيف يمكن والحالة هذه أن يتمكنوا من تطوير جهاز جديد أو فكرة مبدعة، أو حتى نغم جديد. فالعادات الوحيدة التي تبقى معهم هي تلك القديمة عنها. وطموح الابن الوحيد هو أن يصبح كائباً^{٣٦٢}. فإذا كان هذا هو حال القبائل الرعوية الآن وفي قرننا الإلكتروني هذا، حيث تيسر بشكل واسع وسهولة للغاية اقتناء واستعمال الراديو ترانزistor، فكيف ياترى كان حال القبائل الرعوية الرحالة في الألف التاسع قبل الميلاد؟ وكيف يتسمى لتلك القبائل نقل تقنية فنية متقدمة بالنسبة لها، ونقصد بالتقنية الفنية المتقدمة لذلك الزمن الزراعة والإرواء. لأن على العكس من حياة البداوة والتنقل، تتطلب الزراعة وتدرجين الحيوان وحياة الاستقرار مقداراً من التطور التقني الذي تفتقر اليه الشعوب الرحالة، ذلك لأن مستلزمات الحياة الرعوية التقليدية الواطنة جداً لا تتطلب أشكالاً متقدمة بسبب حياة التنقل الدائمة التي تستوجب خفة باللون وسهولة بالحمل، هذا مع انخفاض مستوى الإنتاج فيها، وتعرضه للتقلبات المناخية. لهذا فإن القبائل الرحالة لا تمتلك امكانية اي تطور تقني الا اذا استقرت وزاولت حرف الزراعة والتجارة والحرف المتعلقة بها.

رابعاً: إن الفلاحة وتدرجين الحيوان هي من نتاج الإنسان الحديث، الإنسان العاقل (*Homo Sapiens*)، الذي لا يمتد عصر ظهوره إلى أكثر من ٤٠٠٥٠ الف ق. م. في العصر الحجري القديم الأعلى (Upper Palaeolithic) الذي بدأ بتطور ويتعمق وعيه في العمل والحياة الاجتماعية في تلك الحقبة. كما أن أقدم تاريخ لتعلم الإنسان الزراعة يضعه العلماء، على ضوء آخر معطيات ماتوصلوا اليه

^{٣٦٢} ن. م., ص ١٧.

من مكتشفات، لا يرقى إلى بعد من (٧) الاف سنة ق.م. في العصر الحجري الحديث (Neolithic).

أما ما وجد من آثار لزراعة حقلية، بقايا أدوات حصاد حجرية، تعود إلى العصر الحجري المتوسط، في قرية زاوي جبي بشمال العراق وفي وادي النطوف بجبل الكرمل وفي أريحا في فلسطين،^{٣٦٢} فأنها كانت محاولات أولية لزراعة بدائية وكانت تمارس إلى جانب حصد وجني ثمار النباتات البرية، في مرحلة انتقال من الصيد وجمع الثمار إلى الفلاحة لأن الزراعة لم تكن عmad حياة سكان هذه المستوطنات المعاشرة بل كانت هناك ممارسات لمختلف أوجه نشاط السكان الاقتصادي كجمع القوت من صيد وحصاد إضافة إلى انتاجه بشكل بدائي. والسؤال المهم الآن بالنسبة لما نحن بصدده هو أين بدأ الإنسان في تعلم الزراعة وتدرجن الحيوان لأول مرة؟، لاشك أن الجواب على هذا السؤال ليس بالسهل الميسور للبت به بشكل قطعي فقد اختلف العلماء والباحثون بصدده كثيراً:

فتقى د. تقى الدباغ، في آخر انتاج له، ينفي وجود دليل على نشوء الزراعة في موطن واحد انتشرت منه فيما بعد. كما يرى أن الدلائل التي يمكن بها تحديد تاريخ نشأتها ضئيلة جداً.^{٣٦٤} بينما نرى آخرين [جيمس هنري برستد، د. انطوان

^{٣٦٢} انظر: طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ١٨٤/١، ١٨٦، ١٨٥، سيلتون لويد، آثار بلاد الرافدين، ترجمة: د. سامي الأحمد، بغداد، ١٩٨٠، عن وادي النطوف والكرمل وأريحا، ص ٢٦-٢٨، د. تقى الدباغ، مقدمة في علم الآثار، بغداد، ١٩٨١، ص ٤٨، ٥٢، ٥٥، لقد توهם د. تقى الدباغ، في موقع أريحا حيث الحقها بالأردن، مقدمة، ص ٥٥، بينما هي في فلسطين، انظر أيضاً: د. سامي سعيد الأحمد، المدخل إلى تاريخ العالم القديم، القسم الأول، العراق القديم، بغداد، ١٩٧٨، ١٢٣/١، ١٧٨، ٥٢.

^{٣٦٤} مقدمة في علم الآثار، ص ٥٢.

مورتكان، هنري فرانكفورت، سيتون لويد، د. سامي سعيد الاحمد.. الخ^{٣٦٥} لم يشأوا الأدلة برأي قاطع وصرح حول تحديد موقع بداية تعلم الزراعة وتدرجين الحيوان. لكن طه باقر، بخلاف هؤلاء، يشير بشكل واضح وصريح إلى أنّ موقع اثربة مكتشفة في شمال العراق قد أكدت معطياتها وجود قرى فلاجية اعتبر سكانها من أقدم فلاجي العالم في ممارسة الزراعة سواء بشكلها البدائي^{٣٦٦} الانتقالى، قرية زاوي جي مثلاً، أم المقطورة.

لقد جاءت معطيات تنقيبات العلماء السوفيت الآثاريين في موقع يارم تبه، آذار ١٩٦٨ م، بشمال العراق لتأكيد ملائمة الشروط الإيكولوجية [من إيكولوجي Ecological = علم التبيؤ= معرفة العلاقة بين الكائنات الحية وبيئة] لقيام زراعة عريقة في القدم بشمال العراق^{٣٦٧}، هيأت بشكل واسع وخطير الشروط الموضوعية لأحداث منعطف اجتماعي هام بانتقال الناس

^{٣٦٥} جميس هنري برستد، العصور القديمة، ترجمة: داود قربان، بيروت، ١٩٣٦ ص ٢١، ٨١، وله أيضاً: انتصار الحضارة، ترجمة: د. احمد فخرى، القاهرة، ١٩٦٢، ٣٩-٣٧، ٧١، ١٥٨-١٥١، د. انطون مورتكان، تاريخ الشرق الادنى القديم، ترجمة: د. توفيق سليمان، دمشق، ١٩٦٧، ص ١٦-٣٠، هنري فرانكفورت، فجر الحضارة في الشرق الادنى، ص ٤١-٦٢، لقد ورد اسم تبه كوره محرفاً باسم تبه غوره، ص ٦٠، سيتون لويد، آثار بلاد الرافدين، ٢٤-٣٨، د. سامي سعيد الاحمد، المدخل إلى تاريخ العالم القديم، ١/١٢٣-١٩٣.

^{٣٦٦} مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ١، ١٨٤، ١٨٦، ١٨٥، ١٨١، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ٢٢٩، ٢٣٠. ^{٣٦٧} تعتبر قرية يارم تبه، بوادي سنجار في الشمال الغربي من العراق، من أقدم الاماكن التي تأصلت فيها الجذور المحلية للحضارات القائمة على الإنتاج الفلاجي الناشئة في العراق. انظر: ن. ميرفيت و د. مونجايف، تنقيبات اثربة في وادي سنجار، مجلة آسيا وأفريقيا، موسكو، العدد ١٢ لسنة ١٩٧٦، قام بترجمته لحساب جمعية الثقافة الكردية، ابو رياض ونشر في مجلة الجمعية: شمس كردستان، العدد ٤٨-٤٧، تموز ١١٩٧٧، ص ٦-٢، [تنقيبات اثربة، فيما بعد].

من طور جمع القوت الى انتاج القوت بالزراعة وتدجين الحيوان، مما كان له أبرز الاثار في التطور الحضاري.

لهذا يمكننا القول، على ضوء اخر ما وصل اليها من معطيات آثرية والدراسات حولها، بأن مناطق شمالية في العراق بما امتلكت من خصوصية، قد تهيأت لها ظروف بيئية ملائمة وتجاوب من السكان جيد لتفادى هي المرجحة في تبؤ المركز المتقدم الذي انطلقت منه المبادرات الأولى في تعلم الزراعة وتدجين الحيوان وتطوره الى علم استثماري رئيس من بين مثيلاتها من المناطق المتوفرة فيها شروط تعلم الزراعة وتدجين الحيوان.

وعلى هذا الأساس لا يساق المثال على السبق في هذه المبادرات من قرية زاوي- جي، وإن كانت أقدم مستوطن قروي في العالم، حيث يمتد تاريخها إلى العصر الحجري الوسيط، والتي تقع بالقرب من كهف شاندر، المنتج الشتوي لسكان هذه القرية، بالقرب من الزاب الاعلى بشمال العراق، وانما تساق الامثلة من قرى اخرى، وذلك لأنَّ الزراعة وتدجين الحيوان من قبل سكان قرية زاوي - كما سبق وقلنا- كانت عبارة عن محاولات اولية بدائية ساذجة، شأنها شأن بعض المناطق في فلسطين: وادي النطوف، الكرمل وأريحا، وعلى الرغم من أنها تسجل الريادة في ممارسة الزراعة وتدجين الحيوان الا أنها لم تكن بشكل منتظم ومتتطور ورئيسي. ومع ذلك يشكل تعلم الزراعة وتدجين الحيوان في قرية زاوي جعي بداية منعطف مهم في حياة البشر ونقلة نوعية خطيرة بالانتقال من طور جمع القوت الى انتاجه بالزراعة وتدجين الحيوان. يساق المثل على السبق في المبادرات بالزراعة وتدجين الحيوان التي اصبحت اساسية وعماد حياة الإنسان من قرية جromo، بين كركوك وججمجال، وهي من اقدم قرى العصر الحجري الحديث، حوالي ٢٦٠٠ ق.م. فقد ظهرت فيها خلاصة تجارب الاطوار السابقة لها، واعتبرت اقدم قرية فلاحية يوم اصبحت الزراعة وتدجين الحيوان

عماد حياة الإنسان. كتب سيدون لويد عن قرية جromo: «وفي تقديرات بريدوود
فإن مركز جromo لا يزال في الصنف الذي يطلق عليه في مجتمعات القرية
الزراعية الأولى الفعالة».^{٣٦٨}

بيد أن بدائية أسلوب وادوات الإنتاج المستعملة وقتئذ لم ترفع من
انتاجية العمل إلى المستوى الذي يتكون فيه فائض انتاج يؤدي تراكمه إلى
ضرورة المبادلة. لهذا اقتصرت الحياة الاقتصادية في قرية جromo على
الاكتفاء الذاتي. غير أن الزراعة في قرية تبه كوره، الواقعة شمال شرق
الموصل في العراق، [يمتد تاريخ القرية إلى حضارة حلفاً]، تشكل نقلة نوعية
في تطورها، فبالإضافة إلى اتساع نطاق الزراعة فائزها اقترن بتطور تقني
ملازم لها في السهول الرسوبيّة الوسطى والجنوبية، ونعني به الزراعة
الاروائية.^{٣٦٩} أما قرية يارم تبه، بوادي سنجار في الشمال الغربي من العراق،
 فهي من أقدم الأماكن التي تأسّلت فيها الجذور المحلية للحضارات القائمة
على الإنتاج الفلاحي في العراق.^{٣٧٠}

فمن أين تزود رحالة الآلف التاسع قبل الميلاد بالخبرة الزراعية؟ وكيف
أمدت هذه الخبرة لأكثر من مئة ألف عام؟

خامسًا: تذهب الدرamas العلمية، على ضوء آخر المكتشفات، إلى أن
أقدم حضارة متطرفة في الجزيرة العربية هي التي قامت في اليمن وفي بعض
المراكز التجارية على السواحل الغربية للخليج العربي قبل الميلاد بثلاثة
الاف سنة، بعد أن مارس السكان، ولاسيما في اليمن، الزراعة والتجارة.
وإذا كان لبعض مراكز الخليج العربي التجارية امتداد حضاري يصل في

^{٣٦٨}. آثار بلاد الرافدين، ص ٣٦.

^{٣٦٩}. طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ١/٢٣.

^{٣٧٠}. تنبّهات أثرية، ص ٦.

العمق التاريخي الى عهد حضارة العبيد وأريدو [من ٣٨٠٠-٥٠٠ ق.م] فأن حضارة هذه المراكز لم تكن محلية اصلية، وأنما متأثرة بمؤثرات خارجية، اوسعها من العراق؟ حيث ارتبطت حضارة هذه المراكز التجارية الخليجية بحضارة وادي الرافدين بحكم العلاقات التجارية المسائدة بينهما، وبحكم العلاقات السياسية ولاسيما منذ الاحتلال الاكدي في عهد الملك سرجون الاكدي.^{٣٧١} لقد اظهرت التحاليل الكيميائية -كما يذكر الاستاذ رضا جواد الهاشمي، لدى مناقشته احدث التفسيرات بشأن فخار العبيد في الخليج العربي^{٣٧٢}- بأن الفخاريات المكتشفة في الخليج انما هي مستوردة من العراق.^{٣٧٣} فهذه الحضارة المتأثرة بحضارة اعراق القديم ليس لها أمتداد زمني يبعد عن الألف السادس قبل الميلاد، فمن أين نقل مهاجرو الألف التاسع قبل الميلاد؟

سادساً: قام لفيف من العلماء الأكاديميين الآثاريين السوفيت بأعمال التنقيب [ابتداءً من آذار ١٩٦٨ م]، في موقع يارم تيه بوادي سنجار، في الشمال الغربي من العراق، فعثروا على اقدم قرية فلاحية اثبتت اصالة تقاليد التحضر الفلاحي المبكر للسكان في وادي الرافدين حيث كانت الجنور المحلية للحضارات اللاحقة القائمة على الإنتاج الفلاحي. لهذا اعتبرت حفريات هذا التل صفة أخرى لأقدم تاريخ حضارة ما بين النهرين.

لقد نشر مقال مكثف^{٣٧٤} عن أعمال التنقيب جاء فيه: «إن تكون هذه الحضارات -يقصد حضارات وادي الرافدين- وتقديرها السريع وتطورها العالي قد

^{٣٧١} عن ذلك انظر: د. جواد علي، المفصل، ١/٥٤٨.

^{٣٧٢} المدخل لآثار الخليج العربي، بغداد، ١٩٨٠، ٦-٧.

^{٣٧٣} ن.م، ص ١٠٦.

^{٣٧٤} بعنوان: تنقيبات اثرية في وادي سنجار، صفحات لأقدم تاريخ في حضارة ما بين

اشترطها أحد أكثر التغيرات المبدئية في التاريخ الإنساني- الانتقال من الأقتصاد البدائي المسائد على مرّ مئات الآف السنين إلى الأقتصاد الإنتاجي، بأهم فروعه النباتي والحيواني. وكانت مابين النهرين بخصوصية ظروفها الطبيعية، من أوائل مراكز هذا التحول، ومن أقدم المراكز الزراعية في العالم القديم. لقد انتشرت هنا، على سفوح الجبلية لشمال مابين النهرين، الأسلاف البرية لأنواع الأساسية للحبوب- الحنطة والشعير، فنشأت زراعتها هنا، وبهذا سكن أوائل الفلاحين، وبهذا الس肯 جرى استصلاح وادي النهرين العظيمين منطقة سومر واكد وبابل وأشور القائمة فيما بعد».^{٣٧٥}

سابعاً: كانت بداية تعلم الإنسان الزراعة وتدجين الحيوان -كما أسلفنا- في العصر الحجري الحديث في الآلف الثامن او السابع ق.م. على أبعد تحديد قد اشترطه:

- ا. توفر بيئة تتيح ظروف وجود نباتات وحيوانات برية غير مدجنة.
- ب. درجة من التقنية تساعد على ارتفاع انتاجية عمل الإنسان مما يمكنه من انتظار المحصول.

ولم يتتوفر هذان الشرطان إلا في منطقة معينة من الشرق الأدنى، وهي الممتدة من هضبة الاناضول وواواسط آسيا والقوقاز ومرتفعات فلسطين [وادي النطوف، الكرمل، واريحا] وشمال العراق [قرية جرمو، تل حسونه،

النهرين، انظر: اعلاه الهاشم، ١٨٢.

^{٣٧٥} ن.م، وقد جاء في المقال: «فلا غرابة أن يكون نشوء زراعة المحاصولات الزراعية المبكر والذي يعتبر منعطفاً في التاريخ القديم موضع اهتمام الباحثين المؤرخين. إن معالجة هذه المشكلة سلمت لمجموعة من العلماء السوفيت ف تكونت منها البعثة الاثرية العراقية لacadémie علوم الاتحاد السوفيتي وكان موقع عملها وادي سنجار في الشمال العربي من العراق، وهذا بعد لم يتناوله البحث الا قليلاً لكنه لظروفه الايكولوجية [معرفة العلاقة بين الاحياء وماجاورها] ملائم جداً للزراعة العريقة في القدم»، ص ٣-٢.

تبه كه وره، يارم تبه]. في سفوح جبال زاكروس وبرادومست ولعله ايضاً جهات البرز الشرقية والمنحدرات الشمالية لجبال هندوكوش فقط،^{٣٧٦} ولا يدخل في عدادها وادي النيل وبوادي بلاد الشام ومناطق الجزيرة العربية وسهل وادي الرافدين الجنوبي وسواحل البحر المتوسط وشمال افريقيا واوروبا،^{٣٧٧} لأن هذا الانتقال من الاقتصاد البدائي، الذي ساد على مر مئات الاف السنين، إلى الاقتصاد الإنتاجي، الذي سرع وتاثر تكوين وتطوير وتقديم الحضارات، قد اشترط توفر بيئة تميّز ظروف وجود نباتات، كالقمح والشعير والعدس. الخ. وحيوانات بريّة كالاغنام والماعز والخنازير، التي أستأنس معظمها في العصر الحجري الوسيط بحدود الالف العاشر ق.م وهي نفس الحقبة التي دُجنت فيها النباتات البرية،^{٣٧٨} لهذا لم تكن ظروف شبه الجزيرة العربية تهيّأ لها لتصبح موطنًا لتعلم الزراعة وتدرجين الحيوان. بينما كان العراق، مثلاً، من وجهة نظر علم التبيؤ [ايكولوجي] ملائماً جداً للزراعة العريقة في القدم،^{٣٧٩} وفقاً لظروفه الايكولوجية (Ecological).

^{٣٧٦} طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ١٩١، ١٩٢، ١٩٠/١، عرض اقتصادي تاريخي، ١-٣٦/٧، د. تقى الدباغ، مقدمة في علم الاثار، ٣٥-٣٦، تنقيبات اثرية، ٣-٢.

^{٣٧٧} لقد انتقل تعلم الزراعة وتدرجين الحيوان منها إلى الهند والصين فيما بعد وكذلك إلى الأمريكتين بفارق زمني واضح وبأسلوب مغایر تبعاً لخصوصيات تلك المناطق، يلاحظ بهذا الصدد تأخر الانقلاب الحضاري في وادي النيل بالقياس إلى العراق، انظر: طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ١، ١٩١-١٩٢.

^{٣٧٨} انظر: طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ١/٤٨-٥٠، د. تقى الدباغ، مقدمة في علم الاثار، ص ٤٨؛ ويشير إلى وادي النطوف في فلسطين من حيث القدم والتطور، ص ٤٨؛ سينتون لويد، آثار بلاد الرافدين، ٢٦-٢٨.

^{٣٧٩} تنقيبات اثرية، ص ٣.

ثامناً: يمكن للمتابع لتاريخ اليمن أن يلاحظ بسهولة أن هجرات اليمانيين الواسعة الملحوظة المؤثرة، كهجرة قبيلة كنده من اليمن إلى أواسط نجد،^{٣٨٠} لم تجر في عهد المشاعية، وإن لم يخل هذا العهد من ارتحال وتنقل القبائل الرحالة، طلباً للكلاً والماء، التي هي ظاهرة طبيعية للأقوام الرحالة وتجرى بشكل غير ملحوظ، وإنما جرت الهجرات الواسعة في العهود الطبقية اللاحقة في ظروف الاحتلال الأجنبي لليمن [١]. الحبشي الأول ٣٧٨-٣٤٠م، ٢. الحبشي الثاني ٥٢٥-٥٧١م، ٣. الإيراني الساساني ٥٧١م - حتى تحرير اليمن من قبل المسلمين. ولاعبرة بالغزو الروماني بقيادة اليوس كالوس لجزاء من اليمن في عام ٢٤ق.م لانحساره السريع بعد فشل الحملة الرومانية، حيث تبدأ الهجرات الكبيرة أثر تدهور الزراعة لأهمال المنشاءات الأروائية وتردى الأحوال وتفاقم لدى انحسار المياه بسبب تذبذب معدلات سقوط المطر، وكذلك نبدأ الهجرات من أثر تخلف التجارة لتغيير طرقها^{٣٨١} وأضطراب حيل الأمن، ولفقدان الاستقلال

^{٣٨٠}. انظر مؤلفنا: *موجز تاريخ العرب والإسلام*، ص ٧٣.

^{٣٨١}. اشار تاريخ العالم العام إلى أن السلطة الإيرانية الساسانية المسيطرة على اليمن (٥٢٨-٥٧٢م) اتجهت إلى تحويل تجارة المور - الترانزيت - في نقل البضائع الهندية إلى بيزنطة عبر إيران فقط ولم تسمح بمرورها باليمن مما أدى إلى تدهورها وتعطلت أنظمة الأرواه الواحد تلو الآخر وانحطت المدن، ١، ٦/٣، كتب كارل ماركس: (يفسر تخصيب التربة الاصطناعي الذي ينبغي بانحطاط نظام الري مباشرة، الحقيقة التي تبقى مستغربة من دون ذلك، وهي أن مساحات برمتها كانت يوماً تزرع زراعة رائعة استحالت إلى أرض قاحلة وجرداء الآن: تدمر، البطراء، واطلال اليمن، ومناطق في مصر، وإيران وهندستان: وهي تفسر حقيقة أن حريماً مدمرة واحدة يمكن أن تخلي البلاد من سكانها لقرون وتجردها من حضارتها كلية)، كارل ماركس، السيطرة البريطانية في الهند، كارل

الوطني. ويتزامن كل هذا مع الاحتلال الاجنبي و كنتيجة له. لذا لا يمكن حصر سبب الهجرات، ولا سيما في اليمن، بالجاف فحسب، لأن الوصف المُعطى لمناخ شبه جزيرة العرب قبل ثلاثة الاف سنة لا يختلف كثيراً عما عليه الآن.^{٣٨٢} كما أن خراب سد مأرب لم يحصل الا نتيجة تصدعه وتداعيه وانهياره وعدم صمود امام السيول المتدافعه - سيل العرم- من جراء الاهوال. فلا شأن اذن لجفاف المناخ في هجرة السكان - تفرق ايدي سباً- وأنما تفرقوا بسبب الاحتلال والظروف المهددة له، ذلك الاحتلال الذي جلب الكوارث للبلاد. فتشتت قوى الإنتاج اليمانية بشكل واضح وملموس ابان الاحتلال الاجنبي الغاصب. ترد في المصادر العربية الإسلامية رواية عن مشاعر الخوف والقلق من الدمار عند ظهور بوادر التصدع بسد مأرب. ومهما اختلفت صيغ المصادر عن الرواية فهي تشير الى مبادرة ما يدعى (عمرو مزقاء) في بيع أملاكه وتركه الديار مهاجراً بعد علمه بتصدع سد مأرب^{٣٨٣} وعلى الرغم من ان هذه الرواية هي أقرب الى الأدب القصصي ولا تشير الى المحتل الاجنبي فأنما تمتلك جذوراً من الواقع الحقيقي في تصويرها مشاعر الخوف والقلق لدى السكان مما حدى بهم الى تفضيل الهجرة وترك الديار على البقاء وانتظار المصير المحتموم بعد انهيار السد.

^{٣٨١} ماركس وفريدریک انجلز، *المؤلفات [الروسية]* موسکو، ١٩٣٤، ٥٠٩/٦، انظر: لانكه،

وينسب القول الى انجلز في رسالته الى ماركس، *الاقتصاد السياسي*، ص ٣٨٤.

^{٣٨٢} انظر: بلاييف، *العرب والإسلام*، (الترجمة العربية)، ص ٥٤.

^{٣٨٣} ابن قتيبة الدينوري، *المعارف*، ص ٦٤٥، ٦٤٧، ٦٤٠؛ ابن هشام، *السيرة النبوية*، القاهرة، ١٩٣٦، ١٣/١، ٤-١٤؛ اليعقوبي، *التاريخ*، ١/٢٠٣؛ المسعودي، *مروج الذهب*، ١٨٦-١٩١؛ التنببي والاشتر، ص ٢٠٢؛ حمزة الاصفهاني، *تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء*، ص ٩٩٨.

تاسعاً: لم تكن لدى القبائل الرحالة آية إمكانية تقنية لكي تبدع في فنون الأرواء، فليس لديها الوقت ولا الطبيعة تسمح بقيام زراعة إلا على نطاق ضيق بحدود في أسياف البوادي. وبما أن معدل سقوط الأمطار في شبه الجزيرة العربية لا يتجاوز (٤-٦) بوصة في العام، بينما تحتاج الحشائش، التي منها الحبوب كالحنطة والشعير، إلى معدل (١٢-١٦) بوصة في العام، فقد عمد المزارعون، المستقرون في اليمن، إلى إنشاء المنشآت الأروائية لخزن المياه والارتفاع بها في الجهات والأوقات المطلوبة إن هذا التطور التقني كان من انتاج المستقررين فحسب وليس من انتاج الرحالة.

عاشرأً: إن الرأي الذي يقصر الهجرة من شبه جزيرة العرب بما فيها طرف الجنوبي الغربي -اليمن- على عامل الجفاف هو ما نادى به المفكر البرجوازي البيتي الامير الايطالي (ليون كيتاني Leon Caetani ١٨١٩-١٩٢٦) الذي يفترض بأنَّ التغيير في شبه الجزيرة العربية قد طرأ قبل ميلاد المسيح بنحو عشرة الاف سنة وظهر تأثيره قبل المسيح بخمسة الاف سنة وأخذ سكان الجزيرة الذين هم الساميون، ينزحون منها، فكانت هذه الهجرات إلى العراق وببلاد الشام ومصر وموطن الساميين الآخر، وكانت هذه الهجرات، كما يقول، قوية عنيفة بين (٥٠٠-١٥٠٠) قبل الميلاد حيث دخل الهكسوس مصر وهاجر العبرانيون إلى فلسطين-قد اعتمد كيتاني في اثبات فرضيته على جفاف ما أسماه بالانهار التي بقاياها اليوم الاودية في وسط شبه الجزيرة وعلى اختفاء الفيلة الكبار وبعض الحيوانات الآخر. وكيتاني في فرضيته يشطر شبه جزيرة العرب إلى شطرين:

١. القسم الغربي الذي يضم الجبال والسهول الساحلية.

٢. القسم الشرقي الذي ينحدر من السفوح الشرقية للجبال الغربية.

وأفترض كيتاني بأنّ أهالي القسم الغربي كانوا أقوى وأرق من سكان القسم الشرقي، الذين هم أضعف وافقر. وقد ذهب إلى أن الجفاف قد اصاب القسم الشرقي قبل الغربي، ولهذا فإن الهجرات، حسب اعتقاده، بدأت من القسم الشرقي ببدأت من القسم الشرقي ثم تلتها من القسم الغربي.^{٣٨٤}

لقد أعتقدتomas آرنولد بفرضية كيتاني وأعتبرها من أهم النظريات التي اكتشفها المؤرخون الحداثيون بالنسبة للتاريخ العربي. ولكن المستشرق الجيوكسلاوفاكي الوس موسى [الوزير موزيل A. Musil (١٩٤٤-١٨٦٨)]، المشهور بين قبائل الرولة بالشيخ موسى الرويلي قد نسف فرضيات كيتاني جملةً وتفصيلاً، فهو يرى أن هذه الفرضيات لا تستند إلى أساس تاريخية ولا إلى أدلة علمية. وأن القائلين بها قد بالغوا فيها مبالغة كبيرة. ولذا فهو [موسى] يرجع سبب الهجرات وتحول الأراضي الخصبة إلى صحاري إلى:

١. ضعف الحكومة.

٢. تحول طرق التجارة.

وعلى هذا الأساس فإنّ موسى لا يتفق مع كيتاني فيما يخص جفاف الانهار وانخفاض بعض الحيوانات وتقسيم شبه الجزيرة إلى قسمين متباينين، ولا يتفق معه على هجرة القبائل من الجنوب إلى الشمال ومن الشرق إلى الشمال أيضاً. كما يرى موسى أن سبب انحسار سد مأرب دليل على بطالة موضوع الجفاف لأنّ المياه المتدافعه هي التي هدمت البناء الذي تصدع نتيجة الاهمال. ويسئل موسى بعد ذلك عن اسباب توقف الهجرة بعد القرن السابع الميلادي، فهل يعزى إلى زيادة الرطوبة؟ وينذهب موسى في دحض فرضية كيتاني إلى الاستعانة بحجج مختلفة فيذكر على سبيل المثال: أن مشائخ الحيرة والشام المستوطنيين هم الذين أسسوا دول المناذرة

^{٣٨٤} انظر: مؤلفنا: موجز تاريخ العرب والإسلام، ص ٧٤.

والغساسنة وليس الواردون من شبه الجزيرة، كما يعتقد موسى بأنّ اليمن كانت قد هيمنت على الطريق التجاري الغربي البري الذي يصلها بالشام وعلى غيره من الطرق، وكانت لليمنيين حاميات على تلك الطرق، فلما ضعفت حكومات اليمن استقلت تلك الحاميات، وتزاوج أهلها مع من جاورهم من القبائل العربية ونسبوا أنفسهم لقبائل اليمن اعتزازاً، ومن هنا نشأت اسطورة الانساب، ثم جاء علماء الانساب في العهد الإسلامي، في المدينة والكوفة، وسجلوها على أنها حقيقة، ومنهم انتقلت إلى كتب التاريخ. ويرى موسى أيضاً بأنه لو كانت هناك هجرات حقاً لرأينا اثرها في لغة القبائل النازحة إلى الشمال. وأخيراً اعترض موسى على دعوى كيتاني ودعوى غيره من المستشرقين ممن زعموا أن الفتح الإسلامي هو آخر هجرة سامية قدفت بها جزيرة العرب إلى الخارج، وأنّها كانت بسبب الجفاف والجوع.^{٣٨٥}

حادي عشر: ناقش د. جواد علي بالتفصيل الآراء التي دارت حول الهجرات وخرج باستنتاجات اهمها:

١. لا يعقل أن ينتقل سكان الجبال والمزارعون من حياة الحضارة والاستقرار إلى البداوة بل يحدث العكس.
٢. ثبت أن معظم المدن والقرى التي تكونت في العراق أو الشام إنما كونتها عناصر بدوية استقرت في مواضعها وأشتغلت باصلاح اراضيها وعمراها، واشتغلت بالتجارة، فنشأت من ذلك تلك المدن والقرى ولما كانت أكثر هذه العناصر البدوية قد جاءت من جزيرة العرب، فتكون الجزيرة قياساً على ذلك الموطن الذي غنى العراق وبادية الشام بالساميين، وارسل إليها موجات متواتلة.

^{٣٨٥} ن.م، ص ٤٨٩-٩.

٣. هناك أدلة دينية ولغوية، وتاريخية وجغرافية، تشير بوضوح إلى أن جزيرة العرب هي مهد الساميين ووطن الساميين.

٤. إننا نرى أن جزيرة العرب قد أمدت العراق وبلاد الشام بالسكان، وإن القبائل الضاربة في الهلال الخصيب قد جاءت من جزيرة العرب، فليس بمستبعد اذن أن يكون الساميون قد هاجروا منها إلى الهلال الخصيب.^{٣٨٦} لقد نقل د. احمد سوسة، في كتابه: حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور،^{٣٨٧} عن د. جواد علي، الفقرات الثلاث الأولى، بيد أنه اغفل وترك الفقرة الرابعة واستعاض عنها بالفقرة الآتية:

ان اللغة العربية (لغة جزيرة العرب الام) حافظت على نسبة كبيرة من خصائص اللغة السامية الأصلية أكثر من أيّة لهجة من لهجات السامية [نقلًا عن بارتون]، لأنّ بلاد العرب لم تخضع يوماً من الايام الى الاجنبي^{٣٨٨} [نقلًا عن ديتلوف نيلسون وأخرين، التاريخ العربي القديم].

ويرى د. جواد علي أيضًا: «إن مايسعي بموضوع تغير الجو في جزيرة العرب وبالهجرات السامية والاستشهاد بأثار السكن عند حانات الاثورية وفي أماكن مهجورة نائية. لأخذ ذلك دليلاً على الوطن السامي وهجرة الساميين، هو موضوع لم يتضح بعد، وهو لا يزال يحتاج الى دراسة علمية والنتائج ابحاث علماء الجيولوجيا والعلوم الأخرى. ورأينا أن الاستشهاد باشتراك اللغات في الالفاظ لايمكن ان يكون دليلاً قاطعاً على الاصل المشترك، ثم اننا لا نملك سجلًا تاريخياً للنبات والحيوان ولظهور الالفاظ حتى نستشهد بها لاثبات تغير جو جزيرة العرب، فهي امثلة لايمكن ان تكون

^{٣٨٦} المفصل، ٢٣٤/١.

^{٣٨٧} بغداد، ١٩٧٩، ص ٤٦.

^{٣٨٨} ن.م، ص ٤٦.

دليلًا للتغيير، وإنما ترجع إلى عوامل أخرى مثل تغير طرق القوافل، وتغير اتجاهات السفن البحرية، وإلى الفتن والحروب وغارات القبائل المتولدة التي هي من شر الأوبئة التي فتكت بالمجتمع العربي، فسببت هرب الحضر من أماكن إقامتهم إلى أماكن أخرى، ولعدم وجود قوات نظامية وحكومية ترد اعتداءات الاعراب عليهم، ثم الحروب الأهلية التي وقعت في اليمن بين الجيش واهل اليمن وامثال ذلك مما وقع بين الفرس والعرب.^{٣٨٩}

ثاني عشر: يستخلص على ضوء ماتقدم من الفرضيات والأراء والإستنتاجات بأنّ: سكان شبه الجزيرة العربية وما بين النهرين وبلاد الشام وفلسطين كانوا ساميين وعرب ساميين وكانت تعيش معهم اجناس أخرى ويتألفون من بدو وحضر. وكان الرحالة وبعض سكان الواحات، في اواسط شبه الجزيرة، أكثر تأثيراً بالكوارث الطبيعية والمجاعات في السنتين العجاف. وبموجب القوانين الاجتماعية، التي تسير البشر، فإنّ الناس ينتقلون من المجتمعات المختلفة إلى التي أكثر منها تطوراً، إلى التي متقدمة عليها في مسيرة البشر التطورية. فعلى هذا الأساس ينتقل المختلفون من أبناء البوادي إلى المناطق المتحضرة، ولا ياجر أبناء المناطق المتحضرة من ديارهم إلا اضطراراً بسبب الأوبئة والحروب والاحتلال الاجنبي. إن تغيير طرق المواصلات التجارية، التي كان لها أهمية كبيرة، كان يؤدي بدوره إلى هجر مدن وتحطيم دول، قائمة في حياتها الإقتصادية على تلك الطرق وعلى التجارة. وكان ضعف المؤسسات والتنظيمات السياسية في دول الاطراف، بسبب الإزمات الحادة وتغير طرق التجارة الرئيسية، خير مشجع لسكان البوادي المتحفزين على غزو تلك الدول الواهنة. أنّ مما يضعف وجهة نظر البيئيين الالسيّما بتأثير المناخ في الهجرات هو أنّ اوصاف الرحالة في القرنين الماضيين وفي هذا القرن قد اعطت انطباعاً بأن المناخ لم يتغير كثيراً خلال

الالفي سنة الأخيرة بحيث تشاهدت اوصافهم مع ما كتبه الرحالة الاغريق والرومان وغيرهم عن شبه الجزيرة. لهذا فإن عمل المناخ لا يمكن ان يلعب ذلك الدور الذي أسنده اليه أولئك المستشرقون.^{٣٩٠}

وأخيراً لابد من القول بأن مناقشة دوافع الهجرات قد استوجبت وقفة طويلة واستطراداً إستثنائياً. بيد أن هذه المناقشات الشاغلة حيزاً استثنائياً نسبياً، ليست ضرورية لتعلقها المتن في تاريخ اليمن القديم، وإن كانت هذه لوحدها كافية لتبرير هذه المعالجة الطويلة، فحسب، ولكن لاهميتها في المساهمة في مناقشة مسائل أساسية تحدد مركبات حضارة وادي الرافدين وسورية ومقدار تعلقها بنواحي شبه الجزيرة العربية الاقتصادية والإجتماعية والجنسية.

^{٣٩٠} انظر: بيليف، العرب والإسلام، ص٥٤؛ وانظر ايضاً مؤلفنا: موجز تاريخ العرب والإسلام، ص١٥.